

اللغة والنحو

دراسات تاريخية وتحليلية ومقارنة

تأليف

الدكتور حسن عون

الاستاذ المساعد بكلية الآداب

جامعة الاسكندرية

الطبعة الأولى

سنة ١٩٥٢م

مطبعة زوايل صنف بحكمة آي كادز شريعة

فهرس محتويات الكتاب

١ مقدمة

٧ اللغة

نشأة اللغة ٧ ، رأى أفلاطون في اللغة ٩ ، تقدم العقل على حساب الأديان —
نظرة بنية علماء الغرب إلى اللغة ١٠ ، فارون واللغة ١٣ ، كانتيليان واللغة ١٤ ، نظرة
علماء الشرق إلى اللغة ١٥ ، منشأ القول بفكرة التوقيف عند الشرقيين ٢٤ ، المذهب
الروحي في الشرق ٢٥ ، تمايل الغربيين للمذهب الروحي ٢٧ ، لامي للقول بتوقيف
اللغة ٢٨ ، اللغة في نظر علماء التشریح ٢٩ ، مراحل نمو اللغة عند الطفل ٣٠ ، أشهر
اللغات ٣٦ ، أسبق اللغات — رأى صاحب الفهرست في أسبق اللغات ٢٧ ؛ رأى
ميروودوت في أسبق اللغات ٣٨ ؛ لغة الاسيراتو ٢٩ ما هي اللغة العربية ٤٢ ؛ مثل
كانت هناك لهجة تسمى لهجة قریش ؟ ٤٢ ؛ النحو العربي أسس على لهجة قریش ٤٤ ؛
حاجتنا إلى معرفة اللهجات العربية الأخرى ٤٤ ؛ ما عمله اليونانيون في لغتهم ٤٥ ؛
دراسة اللغة اللاتينية ٤٦ ؛ فساد الفكرة القائلة بضعف اللهجات العربية الأخرى ٤٨ ؛

٥٠ اللغة والنحو

النحو بالنسبة للغة — لا ينشأ النحو مع اللغة ٥٢ ؛ العقل متأخر في الوجود عن
الحس ٥٤ ، نشأة اللغة اليونانية واللغة اللاتينية — الفولسكلور واللغة ٥٣ ؛ مبدأ
عمل العقل في اللغة — الرسوم الهيروغليفية والسومرية ٥٤ ؛ أطوار اللغة ٥٥ ،
سبب بقاء الرواسب القديمة في اللغة ٥٨ ؛ مقارنة اللغة العربية بغيرها من اللغات ٦٥ ،
الإعراب بالحركات أسبق في الضبط من الإعراب بالحروف ٧١ ؛ نشأة الطرق
المختلفة في التعبير ٧٢ .

٧٨ نشأة النحو العربي

النحو بمعناه الفني ٧٨ ؛ أسبقية فنون اللغوم — نشأة النحو الفني ٧٩ ، الفرق
بين تأريخ الفن وتأريخ العلم — ليس من السهل تأريخ النحو بمعناه الفني ٨٠ ؛ ظواهر
النحو الفني ٨١ ؛ الإعراب بالحركات أسبق من الإعراب بالحروف ٨٢ ؛ الأدلة على
سبق الإعراب بالحركات ٨٣ ؛ حروف الإعراب لم توجد كلها دفعة واحدة — وجه
الشبه بين الإعراب بالحروف في العربية واللاتينية — الأدلة على عدم وجود حروف
الإعراب دفعة واحدة ٨٥ ؛ أوائل النحاة وفهمهم للغة العرب ٨٧ ؛ موقف النحاة
من قواعدهم ٩١ ؛ فساد فهم النحاة لبعض الآيات ٩٢ ؛ مثل من تعليقات النحاة
٩٦ ؛ ملاحظات على البحث في النحو الفني ١٠٠ ؛ أثر النحاة اللاتينيين في اللغة
اللاتينية ومقارنة ذلك بنحاة العرب ١٠٦ ؛ صعوبة معرفة تطور اللغة العربية —

مقارنة اللغة العربية باللغة اللاتينية يهدينا لفهم شيء عن تطورها ١٠٨ ، أطوار اللغة اللاتينية ١٠٩ ؛ نتائج المقارنة بين اللغة اللاتينية واللغة العربية ١١٩ ؛ أطوار اللغة العربية ١٢٦ ؛ تطور استعمال اللغة ١٢٨ ؛ نتيجة البحث في النحو بمعناه الفنى ١٣٩ .

١٤٩ النحو بمعناه العلمى

سبب وضع النحو عند الشرقيين ١٤٩ ، سبب وضع النحو عند الغربيين ١٥٠ ؛ الشرق يحدوه فى تفكيره معنى روحى ١٥١ ، المراحل الدينية فى الشرق ١٥٢ ، الغرب يسوده معنى مادى — ينبغى القضاء على روح التشاؤم ١٥٣ ؛ العلوم الإسلامية نشأت لخدمة القرآن ١٥٥ ؛ البيئة العربية مأوى للمهاجرين وطلاب الكسب من الأمم الأخرى ١٥٦ ؛ كان اللحن يجرى فى البيئة العربية قبل الإسلام ١٥٨ ، ما وصل إلينا من النصوص الأدبية القديمة لا يمثل اللغة العربية تمثيلاً صحيحاً ١٥٩ ؛ مكة وما كان فيها من بيوت تجارية وسفراء ١٦٠ ؛ ظاهرة الفتيات الأجنبية فى الجزيرة العربية ١٦١ ، عدم خطورة اللحن فى صدر الإسلام ؛ دور اللحن الخطير ١٦٣

١٦٣ تاريخ اللحن فى العربية

أنواع اللحن ١٦٤ ؛ تعريف اللحن ١٦٧ ؛ أخطر أنواع اللحن ١٧٧ ؛ ما يجرى عند علماء القراءات هو نفس ما يجرى عند علماء اللغة اليونانية واللاتينية ٢٧٩ ؛ الفرق بين تأريخ اللحن وتأريخ النحو ١٨١ ؛ أولية اللحن ١٨٢ ؛ اللحن فى العصر الجاهلى — اللحن فى صدر الإسلام ١٨٥ ، اللحن بعد الفتوح الإسلامية ١٨٦ ؛ اللحن فى الطبقات المثقفة ؛ لحن الفقهاء ١٨٨ ، لحن القراء ١٨٩ ؛ لحن الشعراء ورجال الأدب ١٩١ ؛ ظاهرة تنقية اللغة ١٩٤ .

١٩٨ نشأة النحو العربى والأسباب التى دعت إليه

نشأة العلوم الإسلامية الأولى ٢٠١ ؛ علم القراءات ٢٠٢ ؛ علم التفسير ٢٠٥ ، علم الحديث ٢٠٦ ؛ علم الفقه ٢٠٧ ؛ الضرورة فى وضع النحو كانت أشد الحاحاً من الضرورة فى وضع العلوم الإسلامية الأخرى — موضوع علم النحو ٢٠٨ ، السبب فى وضع النحو ٢٠٩ .

٢١٢ من هو الواضع الأول للنحو العربى

صنيع العرب بلغتهم وصنيع الروم بلغة اليونانيين ٢١٢ ؛ الفرق بين العرب والروم من ناحية الفتوح — ترجمة الدواوين إلى العربية ٢١٣ ، كلمة نحو وما براد منها ٢١٤ ، أصل كلمة نحو وتطور معناها ٢١٧ ، المنهج فى معرفة الواضع الأول للنحو ٢١٩ ، ماهى البنسنة الأولى فى بناء النحو العربى ٢٣٨ ، مناقشة الروايات التى تنسب وضع النحو إلى أبى الأسود ٢٤٣ ، اتصال أبى الأسود باللغة السريانية وبعلمائها ٢٥٠ المراجع . التصويب .

سبحان الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ عام ونصف عام تقريباً ظهرت الطبعة الأولى من كتابنا عن العراق وتاريخ حضاراته : ولم يكن ذلك في الواقع سوى خطوة أولى ، ولعلها ضرورة جداً لدراسة الحضارة الإسلامية ؛ إذ أن بيئة العراق تعتبر أهم بيئة بالنسبة لهذه الحضارة فقد احتضنتها منذ أيامها الأولى وغذتها بشمار حضارات تركزت فيها منذ آلاف السنين ؛ وبقيت تمسدها بنتاج عقليات أجنبية تفد إليها من الشرق طوراً ومن الغرب طوراً آخر ؛ وليس هناك من سبيل لدراسة الحضارة الإسلامية دراسة عميقة ، وفهمها فهماً صحيحاً إلا إذا درست أصولها وبيئاتها وعرفت مصادرها ومدى ما يمكن أن يتصور من تبادل وامتزاج بين العقلية العربية والعقليات الأجنبية .

واقدر قننا بهذه الخطوة في ذلك الكتاب الذي أشرنا إليه منذ سطور ومحرصنا على أن نبين فيه أكثر من مرة أن هدفنا من تأليفه إنما هو التمهيد لدراسة الحضارة الإسلامية في مختلف مظاهرها على أسس علمية صحيحة وفق مناهج البحث الحديث ، فينبغي منذ الآن ألا يكتفي بعرض تلك الحضارة الإسلامية عرضاً عاماً أو وصفها وصفاً شاملاً ، صنيع العلماء والمؤلفين في الشرق ، سواء منهم القدماء والمحدثون ؛ وإنما ينبغي أن تدرس تلك الحضارة دراسة جديدة فتحلل عناصرها ، ويرد ما يمكن أن يرد منها إلى أصوله القديمة ومناخه الأولى ؛ وعلى ضوء هذه الاعتبارات ينبغي

أن تتجه دراساتنا للحضارة الإسلامية وجهة تمكننا من فهم — لم كانت الحضارة الإسلامية هكذا ؟ — بعد أن فهمنا — كيف كانت ؟ ومدى ما وصلت إليه من نمو واتساع — .

ولما كانت هذه الأسس هي رائدنا ، فقد اعدت منا ، بمؤلفنا اليوم ، أن نفتح الباب الأول في هذا البناء الشاخص وأن نرسى إحدى قواعد بعد أن ميداننا له يبحثنا عن العراق وحضاراته . وهذه هي مرحلة ضرورية لدراسة الحضارات الإنسانية قديمها وحديثها ؛ حضارة الشعوب تتكون ثم تمضي عليها قرون والناس منكبنون عليها يقذفون آثارها ، وأخيراً يأتي عهد يبدأ فيه العلماء وأصحاب الفكر يحاولون تلك الحضارة ويفهمونها مع تعليل مظاهرها ويبحث أصولها ومقارنة مسائلها بغيرها مما سبقها أو عاصرها من حضارات ، وبهذا النظام قد درست الحضارة اليونانية ومن بعدها الحضارة اللاتينية .

وقد يتساءل القراء عن السبب الذي جعلنا نتخير النحو من بين سائر العلوم الإسلامية الأولى ليكون موضوعاً للدرس ، بينما غيره لم يكن أبسط منه شأنًا ولا أقل منه خطراً ؛ ولكم سيجدون الجواب عن ذلك مفصلاً في ثنايا أبواب هذا الكتاب وفصوله ؛ ومع ذلك فإنا نستطيع أن نلخصها فيما يلي حرصاً على مصلحة القراء وشافة أن تتوزع أفكارهم قبل أن يسعفهم الوقت وتواتهم الفرصة لفهم كل مسألة تعرض لهم دون إهمال ولا إبطاء : —

معروف أن العلوم الإسلامية الأولى عديدة ؛ منها علم الفقه ، وعلم الحديث وعلم الرواية ، وعلم اللغة ، وعلم التفسير وعلم القراءات ، وعلم النحو ؛ ومعروف كذلك أن الظروف التي نشأت فيها تلك العلوم تكاد تكون واحدة والأسباب التي دعت إلى نشأتها لا تكاد تختلف بالنسبة لعلم عنها بالنسبة لعلم آخر . ولكن النحو يمتاز عن غيره من العلوم الإسلامية

الأخرى بأشياء ، منها نضوجه المبكر ووصوله سريعاً إلى مرحلة الكمال . كما
لفت نظر العلماء حديثاً وجعلهم يفيضون في القول بشأنه ؛ ومنها الأثر
الأجنبي الواضح فيه منذ النشأة والذي لازمه في عهد نضوجه واكتماله
ملازمة كادت تخرج به عن موضوعه وتتجاوز حدوده ورسومه ، ولولا
ما نشأ حوله من علوم استقل كل منها بميدان من ميادين الأبحاث اللغوية
المختلفة كعلم المعاني ، والبيان ، والبديع ، وكعلم فقه اللغة بمعناه القديم ،
نقول لولا نشأة هذه العلوم بجانب النحو العربي وتخفيفها بعض العبء عنه ،
ولولا ما اتصفت به عقلية المؤلفين القدماء من إجلال أساتذتهم السابقين ،
واحترام تراثهم العلمي لتشتت ، فيما نعتقد ، ضوابط النحو وقواعده ،
واضاعت معاملة أو كادت تضيع في ثنايا هذه المعارف اللغوية الواسعة التي
تآزر على جمعها وتدوينها نخبة من رواة اللغة ، وعدد غفير من علمائها ،
ولأصبح النحو العربي موسوعة ضخمة تضم بين مجلداتها كثيراً من الآثار
اللغوية ، والدينية ، والعلمية ، والأدبية ؛ ولم يكن ذلك ، فيما نظن ، سوى
نتيجة لأثر العقلية الأجنبية ، وتنادياً من جانب علماء العربية في تتبع هذا
الأثر واستغلاله إلى حد بعيد وليس كتاب سيبويه الذي هو بين أيدينا الآن
والذي هو صورة مصغرة من تلك الموسوعة الضخمة إلا إيداناً بهذا
الاتجاه . كل هذا جعلنا نوجه ههنا أول مانوجه إلى دراسة النحو العربي
دراسة تحليلية على ضوء ما قدمناه من دراسة لبينة العراق وما توالى عليها
من حضارات . هذا وهناك عامل آخر قد حفزنا إلى الإسراع بهذا المؤلف
وإن لم يكن داخلًا في طبيعة البحث ولا مترتباً عليه أحد الأسباب المنطقية
في تأليفه ، ذلك هو ما قدمه لنا معهد الدراسات العليا من فرص مواتية وما
لمسناه في طلابه من شوق إلى المعرفة ورغبة في الاستزادة منها ، فلقد
درسنا معهم هذا الموضوع في خلال العام الدراسي الحالي ونشهد الله أن

مأهدهنا فيهم من سماع للقول ، وقبول للفهم ، واستجابة روحية وعقلية لما
كنا تبديه من آراء ، ونعرضه من نظريات كانت من أهم الدوافع على أن
تمضي قدما في التأليف دون تردد ولا إبطاء .

وموضوع درس الحضارة الإسلامية ، كما يرى القراء ، واسع طويل ،
وهو في حاجة إلى تضافر في القوي وتعاون في التفكير وتأزر في الإنتاج ؛
وليس من السهل أن ينهض بهذا العبء شخص وحده ، وإذن فليس لنا
أن نزعم الاستئثار به بالرغم من هذا التميد الذي قمنا به في دراسة بيئة
العراق وكفنا من الاطلاع والبحث والعناء جهداً لا يكاد يطاق والله نسأل
أن يلمنا الرشيد في القول والسداد في العمل والتوفيق في الأداء ؟

حسن عونه

الإسكندرية في ٣١/٧/١٩٥٢م

اللغة

النقط الاساسية

ما هي؟ كيف نشأ؟ أشهر اللغات، أسبق

اللغات، ما هي اللغة العربية؟

اللغة

هي أداة من أدوات التعبير والتفاهم في المجتمعات الإنسانية ، بل هي أهم تلك الأدوات على الاطلاق ، يمكن بواسطتها أن نشرح حاجياتنا ، ونعبر عن رغباتنا ، ونبين للآخرين إحساسنا وشعورنا . واللغة بهذا المعنى ضرورة اجتماعية ، فلا يمكن لمجتمع ما أن يكون له وحدة وكيان بدون هذه الأداة تربط وحدته وتؤلف بين أفرادها ، وتجمع شتات أغراضه وأهدافه .

نشأة اللغة

واللغة أياً كان نوعها نشأ مع المجتمع الإنساني ، فهي عنصر أساسي من عناصر تكوينه ، وأداة فعالة من أدوات تطوره ونموه ورفيقه .

وفي كل طور من أطوار هذا المجتمع تعتبر اللغة مرآة صافية تنعكس عليها حياة ذلك المجتمع ، ليرى من خلالها عقليته وإحساسه وتفكيره ودرجته من الثقافة والتقدم . ولهذا فقد اتجه في العصور الحديثة مجهد كثير من العلماء في الغرب أولاً ، وفي الشرق أخيراً إلى دراسة اللغات المختلفة في مهدها وفي عصور نموها ، ليتفهموا على ضوءها حالة الشعوب في طفولتها ويدركوا منها حركة التطور العقلي في تلك الشعوب ، بل هي دراسة لتاريخ الشعوب إن أعوز المؤرخين وجود الوثائق التاريخية .

وليس هذه المحاولات التي نراها من وقت لآخر بين كثير من العلماء الذين يذهبون إلى الشعوب البدائية في أفريقيا وفي آسيا وفي أمريكا الجنوبية لملاحظة لغات هذه الشعوب وما تشتمل عليه من مقاطع وأصوات وما تدل عليه من معاني وأغراض ، ثم لمعرفة مبلغ ما هنالك من تطابق بين هذه اللغات والبيئات التي نشأت فيها ، نقول إن هذه المحاولات ليست إلا نوعاً من تلك الدراسات اللغوية الواسعة . والكلام على نشأة اللغة يحتاج إلى فصل طويل فقد شغل المفكرين قديماً وكان موضع نقاش وجدل مختلفان باختلاف العصور شدة وعنفاً ، ولا يزال نجد حول هذا الموضوع في العصور الحديثة وعلى ضوء العلوم التجريدية والملاحظات النفسية نظريات عدة . ولسنا نستطيع في هذا البحث أن نستعرض بالتفصيل ما اتجه إليه تفكير القدماء ولا ما اهتمت إليه تجارب المحدثين ، فإن ذلك يخرج بنا عن الموضوع الذي رسمنا له الخطة ، وما نظن أن بحثنا في حاجة إلى مثل هذه الإفاضة وإنما يكفي منا أن نعرض لردوس المسائل ونبين أهم الأفكار والآراء حتى يكون القارئ لبحثنا هذا على بينة من الأسس العامة التي تستلزمها طبيعة الكلام عن النحو ونشأته وتحليله ومقارنته ، تاركين التفصيل

في ذلك لعلماء الأبحاث اللغوية الخاصة ولمراجعتها المتعددة الواسعة . وعلى هذا فلتتحدث أولاً عن وجهة نظر القدماء بالنسبة لنظرية اللغة ونشأتها ؛ ثانياً عن وجهة نظر المحدثين .

لم نجد فيما قرأنا من أبحاث الغربيين عن اللغات ونشأتها وتطورها من زعم أن اللغة توقيفية ، أي تنزل من السماء أو يوحى بها الله سوى أفلاطون (١)

ولهذا الاتجاه من ذلك الفيلسوف ما يبرره ، فإن بيئته التي نشأ فيها ، ودراساته التي اهتم بها ، وأساتذته الذين سموا به إلى كثير من المعاني الروحية ، وعصره الذي امتاز باحترام العقيدة والأوامر الدينية ، كل ذلك

(١) أفلاطون هو ذلك الفيلسوف اليوناني الكبير ذو العقيدة الجارية والمؤلفات العديدة الهامة . ولد في سنة ٤٢٩ ، مات في سنة ٣٤٧ ق.م ، أي أنه عاش نحواً من اثنين وثمانين سنة . كان وهو في سن العشرين تقريباً تلميذاً لسقراط ولم يتلمذ بعد هذا السن على أستاذ سواه وصار أستاذاً لأرسطو . وتمتاز مؤلفاته بطريقتها التي تكتب بها : إذ كانت تكتب على شكل حوار ، والتحدث فيها سقراط . أهم تلك المؤلفات : كريتون *Criton* ، فيدون *Phédon* ، فيدر *Phédre* ، جورجياس *Gorgias* ، بانكيه (الوليمة) *le Banquet* ، الجمهورية *la République* والقوانين *les lois* . وليس من السهل أن نحصى في تعداد مؤلفاته كلها ولا في تحليل هذه المؤلفات ؛ وحسبنا أن نعلم أن عدد ما ألفه من المحاورات قد بلغ ٤٣ ثلاثة وأربعين حواراً ؛ وله بعد ذلك نحو من ثلاث عشرة رسالة على شكل خطابات ؛ وله فوق هذا العدد الضخم مجموعة من الأفكار مدونه بلا نظام ولا ترتيب ؛ وفيما يختص بهذه الأفكار وتلك الرسائل فلم يثبت بصفة قاطعة أنها له ؛ وقد استطاع النقاد المحدثون أن يثبتوا له فقط من هذه المحاورات ما يقرب من ثلاثين محاوره .

كان حافزاً لتفكير إفلاطون ومهداً لطريقته في مواجهة المسائل الفكرية
وحل ما يمكن أن يعترضه من النظريات العلمية . كانت الديانة والآلهة تحتل
المكان الأسمى ، وكان ميدان التفكير الإنساني ذا أفق محدود ، ودائرة
تجاربه العلمية لا تكاد تتجاوز البيئة التي يعيش فيها ، ولذا فكان سهلاً على
الإنسان مهما كانت مكانته العلمية ودرجته في سمو العقل وسعة التفكير إذ
ذاك أن يعزو مالا يجد وسيلة لفهمه أو ما يسمو فوق مداركه إلى الطبيعة ،
إلى القوة الخالقة ، إلى الآلهة . هذا والدارس لتاريخ الأديان والملم بطبيعة
المجتمعات التي نشأت فيها تلك الأديان المختلفة يستطيع أن يلمس تماماً أن
تقدم العقل البشري كان في كثير من الأحيان على حساب الأديان ، بمعنى
أن العقل البشري كلما اتسعت آفاقه فأدرك بوسائله الخاصة وتجاربه المختلفة
حقيقة من الحقائق التي كانت عسيرة الفهم غامضة الإدراك فيما مضى ، نقول
كلما أدرك حقيقة من هذا النوع من الحقائق فإنها تخرج من حظيرة الدين
ولا تصبح سرّاً من أسراره ، ولا معجزة من معجزاته وتقع في محيط
المدرجات العقلية ، وهكذا دواليك يضيق أفق العوالم الإلهية كلما اتسعت
ميادين الإدراكات العقلية . أما بقية علماء الغرب فهم مجمعون فيما نعتقد
على أنها وضعية أي من وضع الإنسان ، ومن وحي البيئة ، ومستلزمات
الظروف . ونظرة الغربيين في هذا نظرة واقعية كتنظرهم إلى أغلب
المسائل العلمية والظواهر الاجتماعية . ولذا فقد غلبت عليهم النظرة المادية

وتحکم فيهم وساد بينهم المذهب المادى . وقد قال بذلك شيشرون^(١)

(١) شيشرون : هو أكبر خطيب روماني بلا منازع ، ولد في مدينة أريدينوم واسمها الآن أريدينو ، وذلك في سنة ١٠٦ قبل الميلاد . برع منذ شبابه في صناعة القول فاستطاع أن يلفت اليه الانتظار ، وتقلب في مناصب الدولة حتى وصل إلى أخطرها ، وهو منصب القنصل . وقد لعب أدواراً هامة في سياسة روما ، فقد عرف بميله إلى نظام الحكم الجمهورى ولذا فإنه أنقذ الجمهورية من مؤامرة ديكتاتورية خطيرة قام بها كاتيلينا ، وذلك بعد أن كشف شيشرون أمرها واستطاع أن يقدم للحكمة أنصار ذلك الديكتاتور فيحكم بإعدامه . وبعد ذلك استحق شيشرون من الشعب الروماني لقب (أبو الوطن) .

وقد ناصر شيشرون قيصر ما دام يحكم على النظام الجمهورى ، وأظهر شيئاً من التراخى حينما ظهر قيصر بمظهر الديكتاتور . وبعد قيصر عمل على معاونة أوكتافيوس ، ولكن الخصومة بينه وبين أنطونيوس قد أوردته موارد الهلاك : فبعد ما تخرجت الأمور السياسية في روما ، وبالرغم من اعتزاله السياسة فقد هرب شيشرون من روما ليختبئ في القرى . ولكن أنطونيوس وهو المحقق منه ومن لسانه بحث إليه من أدركوه في الطريق وقتلوه غيلة في سنة ٤٣ ق.م .

كان شيشرون إذن خطيباً بارعاً ، ومحامياً ماهراً ، وسياسياً محنكاً وفوق ذلك فقد كان عالماً كبيراً ومؤلفاً عظيماً : ترجم بعض الكتب عن اليونانية ، وألف في الخطابة ، وفي اللغة ، وفي الدين ، وفي الفلسفة . وما هي مؤلفاته لا تزال معتبرة من أهم المراجع في هذه الميادين العلمية . وينبغي أن نقرر هنا أن الأستاذ مصطفى صادق الرافعى في كتابه

« تاريخ آداب اللغة العربية ، ص ٤٦٤ ج ١ هو الذي يروى عنه هذا الرأي في نظرية اللغة ولكنه كدأبه لا يذكر نصاً ولا مرجعاً وبالرغم من اطلاعتنا الكثير على ما كتبه شيشرون فإننا لم نجد نصاً صريحاً ومع ذلك فإن اتجاهه في مجموع الآراء ، وروحه في السأليف ، ومنزعه في فهم اللغة يؤيد ما نسبه إليه الرافعي .

(١) ديودور الصقلي : هو مؤرخ يوناني كبير عاش في عصر الامبراطور

أغسطس

ربما كان أكثر دقة من هيروdot ، وهو لا يقل عنه شهرة . والذي عرف عنه هو كتابه التاريخي العظيم الذي يعتبر سجلاً لتاريخ العالم القديم حتى سنة ٦٠ ق.م .

وينقسم كتابه في التاريخ إلى ثلاثة أقسام مرتبة على حسب الأحداث التاريخية : القسم الأول يتناول تاريخ الشعوب المعروفة قبل حرب طروادة التي تغنى بها هوميروس في إلياذته ؛ وهذا القسم يشتمل على ستة كتب عشر منها على خمسة فقط ؛ ثلاثة من هذه الكتب الستة تقص تاريخ اليونان في خلال تلك العصور السابقة على حرب طرواده ، وثلاثة أخرى تتناول سائر الشعوب . القسم الثاني يتناول تاريخ الشعوب منذ حرب طرواده حتى وفاة الإسكندر الأكبر ؛ وهذا القسم يحتوي على أحد عشر كتاباً لم يهتم الباحثون إلا على سبعة كتب منها . أما القسم الثالث فهو يتناول أحداث العالم التاريخية منذ وفاة الاسكندر حتى غزو قيصر لبلاد الغال ؛ وهذا القسم يشتمل على ثلاثة وعشرين كتاباً لم يوجد منها سوى ثلاثة كتب فقط .

ومنذ ذلك الحين لم نسمع ولم نقرأ فيما قرأناه ، رأياً يخالف رأى
هذين العالمين فكأنهما بذلك قد قضيا على فكرة التوقف بالنسبة لما كان
معروفاً عن اللغة ، وهذا السبيل للبحث العائى المبني على ملاحظات نفسية
وتجريبية ، فقد وجدنا من بعد ذلك علماء تصدوا للأبحاث اللغوية وأفاضوا
في الكلام عنها ، ولكنهم لم يشيروا ، ولم يفهم عنهم ، ولو من
طريق خفي ، أنهم من دعاة نظرية التوقف أو من القائلين بها ؛ نذكر
من هؤلاء العلماء فارون Farron⁽¹⁾ العالم اللاتيني العزيز المادة والواسع

وتذكر هنا أيضاً ما ذكرناه منذ قليل من أننا لم نقف بأنفسنا على
نص صريح لديودور في توقيف اللغة ولكن الذى ينسب اليه هذا الرأى
إنما هو الاستاذ الرافعى في نفس الكتاب المتقدم ؛ ومع هذا فإن
روحه في التأليف وتفكيره في مواجهة المسائل تجعلنا نطمئن إلى ما نسب
اليه .

(1) كان فارون دائرة معارف عصره ، عرف بالدأب والمثابرة ، واشتهر
بالبحث الواسع والاطلاع الغزير إلى درجة لا يتصور وقد مات بعد اغتيال
شيشرون بسنة عشر عاما كانت الجمهورية الرومانية في طريقها إلى الانقلاب
والحكم الامبراطورى في سبيل التأسيس . ولقد استغل هذا العالم اللاتيني
معارفه الواسعة واطلاعه الكثير خلف وراءه ثروة طائلة من المؤلفات ،
وصلت إلى أربعة وسبعين مؤلفاً ؛ ولسوء الحظ لم يوجد من هذه الثروة
العلمية حتى الآن سوى مؤلفين ؛ أحدهما « عن اللغة اللاتينية » ؛ وحتى
هذا المؤلف قد وصل مبتوراً ؛ إذ لم يكتشف منه غير ستة كتب ، وهى من

الإطلاع . توفي هذا العالم في سنة ٢٧ قبل الميلاد ، وكان بما تركه كتاب
« عن اللغة اللاتينية » قد كتب إهداؤه إلى شيشرون ؛ وفيما كتبه عن اللغة
في هذا الكتاب يفهم منه أن اللغة كائن اجتماعي يتطور بتطور المجتمع ،
ولا دخل لأي قوة خفية في نشأته أو تنميته

ونذكر كذلك من هؤلاء العلماء — كاتيليان — ^(١) *Quintilien*

الذي عاش قطعاً إلى ما بعد سنة ٩٦ بعد الميلاد وامتاز دون معاصريه

— الكتاب الخامس إلى الكتاب العاشر بينما المؤلف كله — كان يحتوي على
خمسة وعشرين كتاباً ؛ والآخر عن « الزراعة » . والذي يعنيننا بالذات هنا
هو مؤلفه الأول ، وعلى الأخص البحث الذي كتبه عن أصل الكلمات
في اللغة اللاتينية ؛ في هذا البحث تناول فارون ما تناول من مفردات
اللغة بطريقة طبيعية معقولة لا دخل لمسألة التوقيف فيها .

^(١) كاتيليان *Quintilien* : هو من الإسبانين الذين امتزجوا بالدولة الرومانية
عقلاً وروحاً ولغة وتفكيراً . ولد في مدينة إسبانية اسمها كالا جوريس
Calagurris فيما بين سنة ٣٠ و ٣٥ بعد الميلاد ؛ ثم جاء إلى روما
شأن كثير من الإسبانين الذين يدرسون في روما ؛ وكانت أهم الدراسة
إذ ذاك هي دراسة اللغة والفلسفة ، بدأ مبكراً في ميدان الحماماء ولكنه
لم يستمر فيها طويلاً فاعتزلها وأنشأ مدرسة لغوية غايتها الكبرى تخرج
الخطيب الكامل ، وقد اتخذ مثله الأعلى شيشرون ، ولهذا فقد بذل عنايته
في تدريس اللغة بما فيها من أساليب وبيانات ، وهو في تدريسه ، وفي
تأليفه يتحدث عن اللغة كظاهرة اجتماعية تخضع لظروف المجتمع إلى حد
بعيد ، ولم يؤثر عنه مطلقاً أن اللغة مصدرها وحى أو توقيف .

بدراساته اللغوية وأبحاثه في أساليبها ، وتعليقه لمظاهر رقيها وقوتها ولما ظهر
ضعفها وانحطاطها ؛ وهو في خلال ذلك كله يفهم اللغة ويصورها كما صورها
من قبله شيشرون وفارون .

وهكذا تغيرت نظرة علماء الغرب إلى اللغة واستمروا يفهمونها كظاهرة
اجتماعية تنشأ مع المجتمع وتشاركه في حياته رقياً وضعفاً ؛ واستمرت هذه
النظرة سائدة خلال العصور الوسطى بالرغم مما اكتسبته اللغة اللاتينية
القديمة على يد الكنيسة المسيحية ورجالها من معنى التماسه ومظاهر الإجلال ،
وإذا ما وصلنا إلى العصور الحديثة فإننا نجد القوى تنصافر في الغرب
وملكات العلماء تتآزر على تحليل اللغة كظاهرة اجتماعية ودراستها عند
الأطفال ، وفي البيئات البدائية ، ثم تحليل نشأتها وتطورها وما يلابس ذلك
كله من ظواهر وتناجح . وسرجهء الكلام قليلاً عن هذه النظرة الحديثة
لكي نلم أولاً بوجهة نظر العلماء الشرقيين بالنسبة لنشأة اللغة .

أما في الشرق فإننا نجد أنفسنا أمام فريقين من العلماء : فريق يوافق
الغرب في وجهة نظره ومنهم أبو علي الفارسي (1) ،

(1) هكذا يذكر الرافي في كتابه (تاريخ أداب اللغة العربية) ج 1
صفحة ٤٦ . ولكن ابن سيده في كتابه المخصص ج 1 صفحة ٤ يذكر أن
أبا علي الحسن ابن أحمد بن عبد الغضار بن سليمان الفارسي النحوي يراها
من عند الله ؛ وكان يحتج بذلك بقوله تعالى «وعلم آدم الاسماء كلها» =

وتلميذه ابن جنى ^(١) وبعض المعتزلة . والفريق الآخر يرى أن اللغة توقيفية من خلق الله ، ولا إرادة للإنسان فيها ، ويستدل هؤلاء على رأيهم بما فهموه من بعض النصوص الدينية . ولعل أصرحها في ذلك قول الله تعالى في سورة البقرة : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

== والفارسي هذا هو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي ؛ يذكر ابن النديم في كتابه - الفهرست صفحة ٩٥ طبعة سنة ١٣٤٨هـ بالمطبعة الرحمانية بمصر ، أن أبا علي الفارس قد توفي قبل السبعين وثلاثمائة ، وأن له من الكتب - كتاب الحجية ، كتاب التذكرة ، كتاب أبيات الاعراب ، كتاب شرح أبيات الايضاح ، كتاب مختصر عوامل الاعراب ، المسائل المصلحة يرويها عن الزجاج وتعرف بالإغفال . ويروى أنه توفي سنة ٣٧٧ . وقد اعتمد هذه الرواية الاستاذ مصطفى الراجحي ج ١ صفحة ٢٢٦

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جنى ؛ كان مولده بالموصل قبل عام ٣٠٠ هـ وهو من أصل رومي ، إذ أن والده كان مملوكا روميا لسليمان بن قنذ بن أحمد الازدي . كان من أشهر تلاميذ أبي علي الفارس ومن أكثرهم مصاحبة له . إذ أنه بقي في صحبته أربعين عاما ؛ ويروى يا قسوت أنه ولي منصب كاتب الإنشاء في عهد الدولة وفي بلاط خلفه ؛ وفي أثناء قيسامه بهذا العمل كان يتنقل ما بين حلب وفارس ، مما سهل عليه التعرف بالمتنبي ومصادقته ؛ ولهذا فقد كان يناظره في النحو ويناقشه في الأدب ؛ ولعل من نتيجة ذلك أيضاً أنه كتب شرحاً لديوان المتنبي . وقد عبر ابن جنى ==

قال يا آدم أبنهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ^(١) .

== طويلاً حتى أشرف على المائة وربما يكون قد تجاوزها ، إذ أن وفاته كانت في سنة ٢٩٢ هـ . واشتهر ابن جني بمعرفة النحو وبكل ما يتعلق بالتصريف حتى أصبح في ذلك حجة وثقة . ولم يعرف لابن جني تلميذ لإحدى المدرستين النحويتين ، مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، شأن غيره من العلماء المعاصرين ، بل على العكس من ذلك كان واضح الشخصية العلمية فكان يتخير لنفسه مذهباً وسطاً بين المدرستين . وأهم مؤلفاته كتابان : أحدهما (سر الصناعة وأسرار البلاغة) والآخر (كتاب الخصائص) في علم أصول العربية . والآخر منهما يعزينا بالذات : إذ انه يلقي ضوءاً على رأى صاحبه في نظرية التوقيف في اللغة . وهو وان لم يبسط رأيه بصراحة في أن اللغة وضعية إلا أن المطلع على ما ذكره في أول الكتاب لا يتردد في فهم موقفه من هذه النظرية فهو يميل بوضوح إلى القول بوضعها . ^(١) إن كتب التفسير لهذه الآية تلاقى ضوءاً على نظرية اللغة التي نحن بصدد ما فهي تذكر المذهبين وتناقش آراء كل فريق ، ولعل أهم هذه الكتب هو تفسير الفخر الرازي . وهاهوذا نص ما يذكره صاحب هذا التفسير ج ١ ص ٢٥٧ وما يليها

((المسألة الأولى : قال الأشعري والجبائي والسيكسي اللغات كلها توقيفية بمعنى أن الله تعالى خلق عليها ضرورياً بتلك الألفاظ وتلك المعاني وبأن تلك الألفاظ موضوعة لتلك المعاني واحتجوا عليه بقوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) والكلام على التمسك بهذه الآية سؤالاً وجواباً ذكرناه في أصول الفقه وقال أبو هاشم إنه لا بد من تقدم لغة اصطلاحية واحتج على ==

== أنه لا بد وأن يكون الوضع مسبقاً بالاصطلاح بأمور (أحدها) أنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع هذه اللفظة لهذا المعنى لكان ذلك العلم إما أن يحصل للعاقل أو لغير العاقل ؛ لا جائز أن يحصل للعاقل لأنه لو حصل العلم الضروري بأنه تعالى وضع ذلك اللفظ لذلك المعنى لصار صفة الله تعالى معلومة بالضرورة مع أن ذاته معلومة بالاستدلال وذلك محال ؛ ولا جائز أن يحصل لغير العاقل لأنه يبعد في العقول أن يحصل العلم بهذه اللغات مع ما فيها من الحكم العجيبة لغير العاقل . فثبت أن القول بالتوقيف فاسد .

(وثانيها) أنه تعالى خاطب الملائكة ؛ وذلك يوجب تقدم لغة علي ذلك التكلم .

(وثالثها) أن قوله « وعلم آدم الأسماء كلها » يقتضى إضافة التعليم ، إلى الأسماء ؛ وذلك يقتضى في تلك الأسماء أنها كانت أسماء قبل ذلك التعليم وإذا كان كذلك كانت اللغات حاصلة قبل ذلك التعليم .

(ورابعها) أن آدم عليه السلام لما تحدى الملائكة بعلم الأسماء ، فلا بد وأن تعلم الملائكة كونه صادقاً في تعيين تلك الأسماء لتلك المسميات ، وإلا لم يحصل العلم بصدقه . وذلك يقتضى أن يكون وضع تلك الأسماء لتلك المسميات متقدماً على ذلك التعليم .

والجواب عن الأول : لم لا يجوز أن يقال يخلق العلم الضروري بأن واضعاً وضع هذه الأسماء لهذه المسميات من غير تعيين أن ذلك الواضع هو الله تعالى أو الناس . وعلى هذا لا يلزم أن تصير الصفة معلومة ==

== بالضرورة حال كون الذات معلومة بالدليل ، سلمنا أنه تعالى ما خلق هذا العلم في العاقل ، فلم لا يجوز أن يقال إنه تعالى خلقه في غير العاقل ، والتعويل على الاستبعاد في هذا المقام مستبعد .

وعن الثاني : لم لا يجوز أن يقال غاطب الملائكة بطريق آخر بالكتابة وغيرها .

وعن الثالث : لا شك أن إرادة الله تعالى وضع تلك الألفاظ لتلك المعاني سابقة على التعليم ، فكيف ذلك في إضافة التعليم إلى الأسماء .

وعن الرابع : ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى - والله تعالى أعلم .

ثم يحضى صاحب هذا التفسير في مناقشة بقية الآراء حتى يقسول : (القول الثاني) وهو المشهور ، أن المراد أسماء كل ما خلق الله من أجناس المحدثات من جميع اللغات المختلفة التي يتكلم بها ولد آدم اليوم من العربية والفارسية والرومية وغيرها . وكان ولد آدم عليه السلام يتكلمون بهذه اللغات ، فلما مات آدم وتفرق ولده في نواحي العالم تكلم كل واحد منهم بلغة معينة من تلك اللغات ، فغلب عليه ذلك اللسان . فلما طالت المدة ، ومات منهم قرن بعد قرن نسوا سائر اللغات . فهذا هو السبب في تغير الألسنة في ولد آدم عليه السلام . قال أهل المعاني قوله « وعلم آدم الأسماء » لا بد فيه من إضمار فيحتمل أن يكون المراد وعلم آدم أسماء المسميات ، ويحتمل أن يكون المراد وعلم آدم مسميات الأسماء . قالوا ليكن الأول أولى لقوله « أنبئوني بأسماء هؤلاء » وقوله « فلما أنبأهم بأسمائهم » ولم يقل أنبئوني هؤلاء ، وأنبأهم بهم . فان قيل فلما علمه الله تعالى أنواع جميع ==

== المسميات ، وكان في المسميات مالا يكون عاقلاً فلم قال عرضهم ؟ ولم يقل عرضها ؟ قلنا لأنه لما كان في جملتها الملائكة والإنس والجن وهم العقلاء ، فذاب الأكل ، لأنه جرت عادة العرب بتغليب الكامل على ناقص كلما غلبوا)) .

لقد حاولنا في نقل هذا النص الطويل بما فيه من فلسفة كلامية ، وجدل علمي أن تقدم للقارئ صورة عن مبلغ ما لدى علماء الإسلام من خلاف في مسألة وضع اللغة ، وتوقيفها ؛ ثم لنرى كيف تشعبت أفكارهم حول مسألة اللغة ، وكيف استمرت فبكرة التوقيف معروفة عندهم ولها أنصارها ومشايعوها حتى أواخر العصور الوسطى ، بل إننا نجد من يميل إليها ويؤيدها ولو من طريق غير مباشر في العصور الحديثة ؛ من ذلك الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ؛ فإنه يعزو في كثير من مواقفه جمال اللغة العربية ، وحسن تركيبها ، وبلاغة تعبيرها ؛ وسمو أساليبها إلى صفات مستمدة من قوة فوق مستوى البشر ؛ إذ أنه لا يعترف بوجود لغة إنسانية أخرى تسمو إلى مكانة اللغة العربية في هذه المزايا ؛ فهي في نظره معجزة اللغات لينزل بأسلوبها القرآن معجز البشر ؛ وليست هذه الفكرة عند الأستاذ الرافعي إلا من تراث القدماء ، ومن كثيرة ما ذكره في ذلك .

وشبهه بصنيع المفسرين ما ذكره السيوطي في كتابه المزهر ؛ فإنه لخص آراء القائلين بتوقيف اللغة ؛ وكذلك آراء القائلين بوضعها ؛ ثم ناقش إلى حد ما هذه الآراء ، ولكنه — شأنه في أغلب المسائل العلمية — لم يتخذ لنفسه موقفاً معيناً .

== وجدير بالذكر هنا ، وقد أتينا على كثير من علماء العربية في نظرية توقيف اللغة ؛ أن نشير بكلمة إلى رأى عالم واسع الاطلاع ؛ وحجة محقق ، ذلك هو ابن النديم صاحب الفهرست الذى يعتبر أجل دائرة معارف عربية قديمة قد وصلت إلينا .

لايتعرض ابن النديم صراحة إلى نظرية التوقيف والوضوح فى اللغة ؛ ولكنه يتناول بالبحث أصل اللغة العربية ؛ فيروى آراء من سبقه من العلماء فى هذه المسألة ويستشهد لذلك بما سمعه أو رآه من آثار ؛ ثم فى أثناء هذا البحث الطريف يذكر كلاماً يطمئن هو نفسه اليه ويفهم القارىء منه أنه يرى أن اللغة وضعية ، وأنها ظاهرة اجتماعية تحيا بحياة المجتمع وتتطور بتطوره وتتشكل بشكل البيئة التى هى فيها ؛ وهو رأى جدير بالنظر حقاً إذا عرف الزمن الذى قيسل فيه ؛ إذ أنه يتفق إلى حد كبير مع أحدث الآراء التى تقال فى اللغة وفى أصلها وفى تطورها . وكل ما يمكن أن يلاحظ على ابن النديم فيما ذكره هو مقاله من أن اللغة العربية قد استمرت فى نموها ورقبها حتى نزل القرآن فوقفت عند هذا الحد ولم تتسع ؛ وها هو نص ابن النديم نضعه أمام أعين القراء ليروا بأنفسهم الى أى حد يتمشى مع المحدثين من علماء اللغات :

يقول ابن النديم فى كتابه الفهرست ص ٧ بعد ذكر كثير من الآراء فى أصل الكتابة العربية : . . . ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضه من بعض ، ويصنعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها فلما اتسع الكلام ظهر الشعر الجيد الفصيح فى العدنانية ، وكثر هذا بعد معد بن عدنان ، ولكل قبيلة من قبائل ==

وأشهر من قال بذلك ابن فارس (١)

= العرب لغة تنفرد بها وتؤخذ عنها وقد اشتركوا في الأصل. قال : وإن

الزيادة في اللغة امتنع العرب منها بعد بعث النبي ﷺ لأجل القرآن ،

وهذه الملاحظة التي أشرنا إليها منذ قليل ، بالنسبة لرأى ابن السديم

في توقف اللغة عن الزيادة بعد بعث النبي ﷺ ، تدل على أن صاحب

الفهرست قد نظر إلى اللغة العربية نظرة ضيقة ؛ إذ أن اللغة لم تتوقف

في حقيقة الأمر إلا من ناحية أنها عملت على جمع القبائل العربية على تلك

اللهجة التي نزل بها القرآن ؛ أما فيما عدا هذا فإننا لا نستطيع أن نسايره

فيما يقول ؛ وكنا يعرف مبلغ ما أصابته اللغة العربية بعد الفتح

الإسلامية من توسع وزيادة في مفرداتها ، وفي تراكيبها ، وفي أفكارها ،

وفي أخيلتها ، وفي صورها ، وفي أساليبها ؛ بل إن نمورها ، بعد أن

اتسعت رقعة البلاد الناطقة بها ، في كل هذه النواحي كان أعمق أثراً ،

وأبعد مدى من نموها قبيل أن يبعث الرسول ﷺ

(١) هو أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب ؛

اشتهر في اللغة وفي النحو ؛ وهو أحد تلاميذ مدرسة الكوفة النحوية ؛

توفي سنة ٣٩٥ هـ . وكان كثير الدأب لا يمل البحث ولا الدرس ؛ يدل

على ذلك كثرة تنقله بين المدن الكبيرة لهذا الغرض ؛ فقد أقام في قزوين ،

وفي مكة ، وفي بغداد ، و في همدان ، وفي الري ؛ وقد ملأت شهرته

اللغوية والخلقية آفاق الدولة الإسلامية فاستدعاه نجر الدولة بن بويه إلى =

والأشعري^(١) ومن تبعه من علماء العرب ؛ ثم نجد صدى ذلك أيضاً عند ابن سيده صاحب الخصاص^(٢)

== الرى ووكل إليه تأديب ولده مجد الدولة أبي طالب .

كان شافعي المذهب ولكنه تحول عنه إلى المالكية أخيراً وكان شديد التعصب للعرب ضد الفرس ؛ وقد بلغ من سمو خلقه ، وكرم طبعه ، وسماحة نفسه أن وهب ما عليه من اللباس إلى الفقراء أكثر من مرة ؛ ومن أشهر تلاميذه بديع الزمان ، والصاحب بن عباد .

ولابن فارس مؤلفات عديدة أهمها بالنسبة لموضوع بحثنا هذا هو كتابه — الصاحي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها — وقد طبع في القاهرة سنة ١٩١٠ م .

^(١) ينقل هذا الرأي عن الأشعري الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه — تاريخ آداب العرب — ج ١ . ص ٤٥ — ٤٦ .

^(٢) يفرض أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده والمتوفى سنة ٤٥٩ هـ نظرية نشأة اللغة وما جاء فيها من خلاف بين أصحاب مذهب التوقيف ، ومذهب الوضع ، ثم يناقش أدلة كل فريق مناقشة هادئة منطقية ؛ وأخيراً يبدي رأيه صريحاً في أنه يؤيد القائلين بالتوقيف :

يقول ابن سيده في ص ٣ وما بعدها من الجزء الأول من كتابه ==

ونحن لو تصورنا موقف هذا الفريق من العباء ؛ وأمعنا النظر في رأيهم ، ثم تركنا جانباً ظواهر الأشياء ، ونفذنا إلى بواطنها ، وحللناها تحليلاً فلسفياً عميقاً ، لوجدنا أنهم لم يدينوا بهذا الرأي ويعتقدوا ذلك المذهب القائل بتوقيف اللغة ، بناء على هذه النصوص الدينية فقط ولكن لأن في نفوسهم ميلاً ونزوعاً إلى فكرة التوقيف بأوسع مظاهرها . ففشت فيهم تبعاً لذلك فكرة الاستسلام ، ونما عندهم مذهب التواكل . وقد استطاعوا بذلك ، أو توهموا أنهم استطاعوا أن يتخلصوا من بعض المسائل العقلية الصعبة ، وأن يحلوا كثيراً من المشاكل الاجتماعية الخطيرة .

المختص بالطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية بيولاق سنة ١٣١٦ هـ :

« وقد اختلفوا في اللغسة أمثواطاً عليها أم ملهم إليها وهذا موضع يحتاج إلى فضل تأمل غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحى ولا توقيف ، إلا أن أبا علي الحسن بن أحمد ابن عبد الغفار بن سليمان الفارسي النحوي قال هي من عند الله واحتج بقوله سبحانه « وعلم آدم الاسماء كلها » وهذا ليس باحتجاج قاطع وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم ... »

عنه يفتى المؤلف في مناقشة هذا الرأي حتى يقول في ص ٦ : « ... »
وانضاف الى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند الله تبارك وتعالى فحوى في أنفسنا اعتقاد كونها توقيفاً من الله تعالى وأنها وحى ،

ونتيجة كل هذا أن وجد في الشرق المذهب الروحي ، ونما عند الشرقيين كل ماله مباس بالمعاني الروحية .

والدارس لتاريخ الشرق ، والمتتبع لأنظمة المجتمع في الشعوب السامية على الخصوص يستطيع أن يلمح فيهم هذه النزعة الروحية ، وذلك الميل إلى الالتجاء إلى القوى الخفية ، إلى السماء ، إلى الآلهة ، في كل ما يعز عليهم إدراكه أو ما يحار العقل في فهمه . فكثير من أخلاقهم ، وعاداتهم ، بل وقوانينهم كان متأثراً إلى حد بعيد بهذه القوى المدبرة ، الخالقة ، وتلك العوالم الخفية المجهولة ؛ وليس نظام التحكم الإلهي بصورة العنيدة إلا أثر من آثار ذلك النزوع الروحي ، والاستسلام العقلي إلى ما تكشفه السماء ، ويصدر عن الآلهة (١) . وقد انتقل هذا النظام من الدولة البابلية إلى الدولة الآشورية وامتدت آثاره إلى سكان شبه الجزيرة العربية ؛ ولا يزال الآن نرى صوراً مختلفة منه في قبائل البدو الضاريين في الصحراء الشرقية من أرض مصر . وتبع ذلك أيضاً ما كان معروفاً عند شعوب الشرق منذ القدم من إلقاء زمام كثير من

(١) لقد فصلنا الكلام عن نظرية التحكم الإلهي في كتابنا - العراق وما توالى عليه من حضارات - الطبعة الأولى ص ١٧ . وانظر أيضاً : قصة الحضارة - تأليف ول ديورانت - وترجمة الأستاذ محمد بدران - الجزء الثاني - الشرق الأدنى - ص ٢٠٧ وما بعدها .

الأُمور في نظام المجتمع إلى المعابد ورجال الدين ؛ فكان منهم الأطباء ،
وكان منهم القضاة ، وكان منهم المشرعون ؛ وكان منهم العلماء ، وكان
منهم المنجمون ؛ ولم يكن يرد لهم في أغلب الأحيان رأى ، بل لقد
وصل من مكانهم في المجتمع أن كانوا يملون إرادتهم على رجال السلطة
الدينيّة ؛ فكانوا هم الذين يولون الملوك . كانت هذه الظواهر الاجتماعيّة
من أهم ما لفت نظر الإغريق عند ما جاءوا يدرسون العلم والحكمة في
الشرق ، ثم يدرسون تاريخه ، وأخلاقه ، وعاداته .

وكلّما تغلغل الإغريق في معرفتهم بالشرق ، وزاد اختلاطهم بالشرقيين ،
كانت تزداد دهشتهم من سمو السلطان الروحي واستنثاره بنفوذ أوسع ،
وبسلطة أكبر إذا ما قورن بالسلطان المادي .

ولعل أقرب صيغة في مصطلحات الشعوب الحديثه لتصوير ذلك عند
المجتمعات القديمه في الشرق هي : الدين مصدر السلطات ؛ كما يقال الآن الأمة
مصدر السلطات ؛ بل إن ذلك الاصطلاح كان يحمل معنى أوسع وأدق
عما يحمله هذا الاصطلاح الحديث .

ولم تنقطع دهشة الإغريق ، بل انتقلت إلى الرومان فأخذوا يدرسون
الشرق على ضوء المعارف الإغريقيّة ؛ ثم اتصلوا مباشرة بالشرقيين
وبدءوا يفهمون ويحللون هذه المظاهر الروحية فكتبوا عن ذلك معجبين

مرة وساخرين أخرى (١) .

سورث الغرب الحديث عن أسلافه من اليونانيين والرومانيين هذه المعارف ، ولاحظ بنفسه وجود أثر المبنى الروحي عند الشرقيين : فبدأ علماءه وباحثوه يفهمون نفسية الشرق ونزعته بالنسبة للأنظمة الاجتماعية ، واحكنهم اتجهوا في تعليمهم لكل ما يقفون عليه وجهة تخالف وجهة علماء اليونان وعلماء الروم .

وقد علل علماء الغرب هذه الظاهرة الاجتماعية في العالم الشرق بأن الشرق أرض الأديان ، ومهبط الوحي ومبعث الرسل والأنبياء .

وإن بيئة هنا شأنها لخلق بها أن تكون مصبوغة بالصيغة الدينية ومتأثرة بالنزعات الدينية ، وقائمة على الأسس الدينية ؛ والذي عهد في كل الأديان ، وثنيها وسماويها ، هو الاهتمام العظيم بتربية الروح ، وغرس بذور الخضوع في صورة الاحترام والتقديس لكل ما هو خفي

(١) لقد تناول الكلام عن الديانة والآلهة وأثر ذلك في الأنظمة الاجتماعية في الشرق وبصفة خاصة في مصر كثير من الكتاب اللاتينيين مثل تاسيتوس ، وفيرجيليوس ، وجوفينال ؛ ولعل أهم من أفاض في ذلك هو شيشرون في مؤلفه — عن طبيعة الآلهة — الكتاب الأول — الفصل السادس عشر والرابع والعشرين ، والسادس والثلاثين .

وبعيد عن العقل البشرى إدراكه .

ومن شأن الاحترام والتقدير في هذه الصورة أن يقيدا العقل إلى حد ما ، ويخلقنا حوله جواً ليس من السهل تجاوز حدوده ؛ ولا اختراق آفاقه بحثاً عما يكون وراءه من أسرار ، وطلباً لفهم ما يمكن أن يوجد من مجهولات . وقد تناول شيشرون قديماً هذا المعنى في كثير من موافقه ؛ ولعل أهم من بحث هذا الموضوع وأفاض فيه من المحدثين هو الأستاذ امدي ديكسنل *Amédée Duquesnel* في كتابه « تاريخ الآداب *Histoire des Lettres* » المطبوع في سنة

١٨٤٥ .

وأظننا الآن لانجد معنى للقول بأن اللغة توقيفية ، فإشاهده بأنفسنا في اللغات المختلفة ، وما نراه من تكيف كل لغة بتكيف الشعب الذي ينطق بها والبيئة التي تنمو فيها لا يترك مجالاً للشك في أن اللغة ظاهرة اجتماعية يخلقها المجتمع الإنساني ، ويتجه بها حينما توحى إليه ظروف البيئة التي يعيش فيها ؛ ومن هنا كانت اللغة يغلب عليها الاتجاه الروحي ، وتسود فيها المعاني الروحية ، وتنتشر فيها الألفاظ التي تعبر عن تلك المعاني ، إذا كانت في بيئة دينية روحانية . ويغلب عليها الاتجاه المادي ، وتنتشر فيها أسماء الآلات والصناعات والمكتشفات إذا كانت في بيئة مادية صناعية . وهكذا إذا تتبعنا اللغات المختلفة في البيئات المختلفة .

والآن بعد أن استعرضنا آراء القدماء شرقاً وغرباً بالنسبة لنشأة اللغة وما قيل فيها من توقف ووضع نحج أن نلم سريعاً برأى المحدثين لكي تتم لدينا صورة واضحة عن طبيعة اللغة وكيف كانت تفهم قديماً؛ وكيف يمكن أن تفهم الآن .

لقد خلطت الدراسة اللغوية في العصور الحديثه خطوات سريعة، وتناولها كثير من العلماء باعتبار أنها أهم مظهر من مظاهر رقي المجتمع وأعظم سجل لتاريخ المجتمعات ؛ ولم يقتصر أمر هذا البحث على علماء النفس والاجتماع ، ولا على رجال اللغة والأدب ، ولكنه تعدى كل هذه الطبقات ، وشغل جزءاً هاماً من علم التشریح فسخر الأطباء جانباً من مجهودهم لتحليل هذه الظاهرة الاجتماعية وإزالة ما علق بها من غموض . ونحن نؤثر بالذكر رأى هذه الطبقة في نشأة اللغة لما لهم من نظرة ثاقبة ، وتجربة دقيقة ، وخبرة تامة بالنفس الانسانية وبوظيفة أعضائها : —

يشير علماء التشریح أن أول ظاهرة من ظواهر اللغة الانسانية إنما هي صراخ الطفل بعد ولادته ؛ إذ أن هذا الصراخ ليس في الواقع سوى نتيجة لإحساسه بشيء يؤلمه ؛ وليس من سبيل لتحديد هذا الإحساس ولا نوع الألم الذي صدر عنه ذلك الإحساس ؛ وكل ما يمكن أن يقال بشأنه إنما هو إحساس عام ؛ والذي يحدث في مثل هذه الحالة هو أن تسرع الأم أو من يشرف على شأن الطفل ببذل شيء لإسكاته ومراضاته إما بالهنسية

تهديها ، أو بأشودة نعتيها ، أو بشدى تقدمه لأرضاعه ، أو بشيء لذيذ تعطيه لإطعامه ، أو بضمة رحيمة إلى صدرها . أو بهزة لطيفة بين يديها ؛ وقد يكون الطفل راغباً عن كل ذلك ، وقد يكون صراخه ناتجاً عن إحساسه بالألم ، وإمكانه سرعان ما يزول عنه مصدر ذلك الإحساس ، ويدرك بحسه لا بعقله أن ذلك الصراخ قد منحه شيئاً حلوا وأعقبته مراضاة لذيذة ؛ ومن ذلك يبدأ الطفل في استعمال الصراخ لا ليخبر به عن ألم يحسه ، ولكن ليشرح به حاجة يطلبها ، ورغبة يتمناها ؛ ومن هنا يكون الصراخ أول مرحلة من مراحل اللغة ، وأسبق تمبير من تعبيراتها . والمرحلة التالية من مراحل اللغة هي الإشارة ؛ حيث يبدأ الطفل في التوفيق بين إشاراته وبين الاصطلاحات الخارجية التي تحيط به ، ثم يأتي بعد ذلك مباشرة دور التوفيق بين هذه الاصطلاحات الخارجية وبين إشاراته هو بالنظر أو بالرأس أو باليد ؛ ومما أثبتته التجارب أن إدراك للطفل لما تنطوى عليه الإشارة باليد أو بالنظر أو الإشارة المتعلقة بالذوق العام أسرع من إدراكه لما تنطوى عليه الإشارة المتعلقة بالسمع . والطفل ، بالرغم من تأخره في إدراك المسموعات ، يأخذ ميكرراً في محاكاة تلك المسموعات فيخرج أصواتاً لا يفهمها الآخرون ولا تؤدي في نظرهم أى معنى ، وإمكانها تعبر عن إدراكات لديه ، ورغبات عنده . وفي أثناء ذلك يتكون الجهاز الصوتى عنده ويبدأ يمارس وظائفه ، فينتقل الطفل بهذا الجهاز إلى مرحلة ثالثة من مراحل

اللغة فيخرج أصواتاً تدل على معاني ولكنه أيضاً لا يستطيع أن يعقد صلة بين هذه الألفاظ وبين موضوعها . وذلك مثل كلمة « بابا » وكلمة « ماما » .

المرحلة الرابعة هي التي يبدأ الطفل فيها فيعقد الصلة بين الألفاظ وبين موضوعاتها ، وهنا يبدو تقدمه في اللغة بواسطة الكمية التي يعبرها من الأسماء ؛ وقد لوحظ في هذه المرحلة أيضاً أن إدراك الأسماء أسبق من إدراك الصفات ، وأن إدراك الصفات المتعلقة بالذوق أسبق من إدراك الصفات المتعلقة بالإحساسات الأخرى . هذا فيما يختص بالأسماء والصفات التي لا صلة لها بالزمن ؛ أما الصيغ المعبرة عن الأحداث والمنصلة بالزمن فلنشأتها وتطورها نظام آخر : لوحظ أن الصيغ الزمنية الأولى التي يلجأ إليها الطفل للتعبير عما يدركه من أحداث إنما هي صيغ الحاضر ، إذ إنه لا يعرف الأمس ولا ما يتعاقب به ، ولا الغد ولا ما سيكون فيه . ثم ينمو إدراكه بالأحداث الزمنية ويتجاوز الحاضر إلى الماضي فيبدأ يذكر ما حصل له ، وما أحس به ، ولكنه يستمر فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر وهو بعيد عن إدراك المستقبل الذي يحتاج إلى شيء غير يسير من الجهد والتفكير إذ أنه من السهل على الطفل أن يقارن بين الصور التي يلمسها ويحسها في الحاضر ، وبين صور أخرى تشبهها قد لمسها وأحس بها في الماضي ؛ أما عالم يكن رآه ولا أحس به عما هو متصل بالمستقبل فإنه يصعب عليه إدراكه وتصوره . وهذه الصعوبة التي تحول

بينه وبين إدراكه للمستقبل تشبه الى حد كبير نفس الصعوبة التي تحول
بينه وبين إدراكه لمعنى - أنا - فهو لا يستطيع بعد أن ينطوى على نفسه ،
ولا أن يوجه إدراكه وإحساسه إليها بدل أن يصرّفها إلى ما يحيط به من
عالم خارجي ؛ ولذا فهو لا يتحدث عن نفسه ؛ وإمكانه يتحدث عن
الغير ؛ وإن يكون في مقدوره إدراك نفسه ، والإلام ببعض آفاقها إلا
بعد أن تتكون لديه مجموعة كبيرة من الصور ، وطائفة غير يسيرة
من المدركات ؛ وحتى في هذه الحالة عندما يبدأ يدرك نفسه لا يتحدث
عنها بصيغة - أنا - وإنما يتحدث عنها بصيغة الشخص الثالث ، أي
بصيغة الغائب ؛ إذ أن حديثه عن الآخرين يدخل ضمن القصص
والوصف ؛ والتعبير الطبيعي لهذين النوعين من الكلام إنما هو التعبير بصيغة
الحاضر والماضي ؛ وقد ظهر فيما مضى أن إدراك صور الماضي والحاضر
أسرع بكثير من إدراك صور المستقبل . أما الحديث عن النفس فانه
يدخل في نطاق الإنشاء ، والإنشاء مرحلة لا تأتي إلا بعد إعداد .

وفي كل هذه المراحل التدريجية التي مر بها الطفل منذ إدراكه لبعض
الصور حتى استطاع أن يعبر عما يدركه بالصيغ الزمنية الرئيسية الثلاث
ينبغي ألا يغيب من حسابنا أن إدراكه للحسوسات أسرع من إدراكه
للمعنويات ، فهو يرى ويسمع قبل أن يتخيل ويفهم .

ولعلّ مما يتصل بموضوع اللغة ونشأتها أيضاً هو ما يذكره علماء

التشريح من أولية الكتابة والقراءة ، فإنهم يقررون أن الكتابة تسبق
القراءة إذ أن الكتابة وليدة الحس بينما القراءة وليدة الإدراك ؛ وكما
أن الإشارة باليد تسبق النطق باللسان فإن الرسم يسبق الكتابة ؛
وإذن فراحل اللغة من ناحية التسجيل ؛ لا من ناحية النطق ، هي :
الرسم ، ثم الكتابة ، ثم القراءة .

ونحن لو استعرضنا تاريخ اللغات الكتابية لوجدنا أنها كانت في أول
أمرها رسوماً ، ثم أنها قد أخذت في التطور حسب مقتضيات الظروف
والأحوال حتى آل أمرها إلى رموز صوتية بدل أن كانت رسوماً
لأمور حسية . وليس لنا الآن أن نفيض في الكلام عن هذا الموضوع
فقد يبعدنا عن بحثنا الأصلي ؛ ولكننا نريد أن نمثل فقط بما هو معروف
من اللغات لتثبت ما أشرنا إليه بصفة إجمالية .

إن اللغة الهيروغليفية مثلاً واللغة المسارية لم يكتونا في أول أمرها
شيئاً آخر سوى رسوم لكائنات محسوسة^(١) : أناس ، حيوانات ،

(١) انظر - وادي الزافدين مهد الحضارة - ص ٣٢ - دراسة
اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ للمير ليونارد وولي وتعريب أحمد
عبد الباقي . طبع دار الكتاب العربي بمصر - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ .
وانظر أيضاً ما جاء في كتب التاريخ عن مصر القديمة من نصوص

طيور ، أسماك ، نباتات ؛ ثم اختصرت هذه الرسوم وتحورت على مر الزمن فأصبح الرسم الواحد يدل على جملة أشياء بدل دلالاته على الكائن الحي نفسه ؛ وأخيراً استحال إلى رموز صوتية قريبة الشبه بما نراه اليوم في الكتابات الحديثة المختلفة كالكتابة العربية ، والكتابات اللاتينية ؛ وها نحن أولاء لانزال نرى صورة من الكتابة الرسمية القديمة عند الشعوب المتحضرة كالفرعنة ، والسومريين ، والبابليين ، والآشوريين ؛ نقول لانزال نرى صورة من تلك الكتابة الرسمية القديمة عند الشعب الصيني .

هذا والطفل في أول عهده ، كما يقرر ذلك أيضاً علماء التشريح ، يلجأ إلى الرسم ويمارسه قبل أن يمارس الكتابة ؛ فهو إن أعطى ورقة وقلماً يبدأ في التخطيط وفي رسم أشياء مما يقع تحت حسه قبل أن يبدأ في الكتابة ؛ ولن يأخذ في الكتابة إلا بعد نمو عقلي وإدراك غير قليل ؛ وحتى في أول عهده بتعلم الكتابة إنما يبدأ المعلم معه بتعليمه نسخ شيء أو نقله ، فهو أيضاً في هذه المرحلة يرسم لا يكتب ، ويقلد لا يخلق ولا يعبر ؛ إذ أن الرسم في مراحله الأولى وفي أشكاله المختلفة وليد الحس ، أما الكتابة بمعناها المتعارف فهي وليدة العقل ؛ وبما أن الحس أسبق في تكوينه من العقل ؛ فإن ما هو وليد الحس أسبق مما هو وليد العقل .

== هيروغليفية ، حيث يوجد صور عدة ومختلفة عن الكتابتين : المسارية والهيريغليفية .

وقد استدل على ذلك علماء التشریح بأدلة منها : إننا نستطيع أن نعلم
لآخرین نسخ شيء أو نقله دون أن نعلم هؤلاء الآخرين قراءة ذلك النسخ
و النقل وذلك مثل ما كان يحدث عند المصريين القدماء وعند السومريين
لذلك ؛ ومن هذه الأدلة أيضاً ما لوحظ بصفة مؤكدة من أننا نفقد القدرة
على القراءة ، ولا نفقد القدرة على الكتابة . (١)

قد يظن القارئ أننا أطلنا الحديث عن نشأة اللغة ، وأننا خرجنا عن
موضوع البحث في اللغة كظاهرة اجتماعية إلى اللغة كيف تنشأ عند الطفل
أما عن النقطة الأولى فإن كل ما ذكرناه لا يتجاوز القدر الضروري
لما نظن ، لعرض اللغة ، والتعريف بها . وأخذ صورة واضحة عنها وعن
راحل تكونها ؛ وخصوصاً إذا عرفت خطوط الأبحاث اللغوية ، ومكانتها
النسبة لسائر الأبحاث الأخرى وأدركت مهمة فهم اللغة ، وطبيعتها تكونها
النسبة لبحثنا عن النحو العربي وتحليله .

وأما عن النقطة الثانية فإننا عرضنا لرأى علماء التشریح في نشأة اللغة

(١) انظر الفصل الثالث من كتاب : « العبقريّة الأدبية »

Paris 1912 le génie littéraire par Dr A. Remond et Paul
Vouvenel;

حيث يوجد عرض كامل لهذا الموضوع عند علماء التشریح

عند الأطفال وبيان المراحل التي تمر بها ، سواء أكانت لغة النطق أم كانت لغة الكتابة ، لأن كلام هؤلاء الأطباء عن اللغة عند الأطفال يرسم لنا في نفس الوقت صورة عن اللغة عند المجتمعات ؛ وهل المجتمعات البدائية سوى أطفال بالنسبة للمجتمعات الراقية ؟ وهل حياة المجتمع ومظاهر تطوره في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي الإدراك ، كما يدرسها ويحللها علماء النفس والاجتماع ، نقول هل حياة المجتمع بالنسبة لهذه النواحي يمكن أن تكون شيئاً آخر سوى صورة من حياة الطفل ، ومظاهر تطوره في اللغة ، وفي الكتابة ، وفي الإدراك ؟

أشهر اللغات

واللغات المشهورة التي شغلت العلماء ، وكانت هدفاً لأبحاثهم ، وموضوعاً لدراساتهم هي اللغات التي تفرعت عن هذين الأصلين : الآري والسامي . فمن الآري تفرعت السنسكريتية ، واليونانية ، واللاتينية . أما السنسكريتية فقد انتشرت في الشرق . وأما اليونانية واللاتينية فقد نما وتفرعتا في الغرب .

ومن الأصل السامي تفرعت اللغات السامية المعروفة وهي : البابلية - الآشورية ، والكنعانية (الفينيقية والعبرية) ، الآرامية ، والبنية ، والحيتية ، والعربية .

ولم يمكن من شأننا ولا من موضوع بحثنا أن ندرس هذه اللغات
العديدة ، وتنوع فروعها الكثيرة المتشعبة ~~فستتركها~~ جانباً ، ونخصص بالكلام
اللغة العربية التي هي موضوع دراستنا الحقيقي .

أسبق اللغات

أما الكلام عن أسبق اللغات ، وأيهما كانت اللغسة الأولى للمجتمع
الإنساني فنظن أنه كلام لا طائل تحته ، إذ لا سبيل لمعرفة ذلك الآن ،
فكل ما لدينا من وثائق التاريخ ووسائل العلم لا يجعلنا نطمئن إلى ما ذكره
القدماء بخصوص هذا ، ولا يجعلنا كذلك نؤمل أن نصل إلى معرفة ذلك
بعد قليل . وكل ما ذكره القدماء في ذلك إنما هو من قبيل التخمين ،
قد أملاه عليهم في أغلب الأحيان نوع من التعصب للجنس أو للدين :
من ذلك ما قيل من أن لسان آدم كان سريانياً أو عبرانياً .

وإليكم ما يذكره صاحب الفهرست ^(١) : « قال تيسادورس المفسر في
تفسيره للسفر الأول من التوراة أن الله تبارك وتعالى خاطب آدم باللسان
النبطي وهو أفصح من اللسان السرياني وبه كان يتكلم أهل بابل فلما بلبل
الله الألسنة تفرقت الأمم إلى الأضقاع والمواضع وبقي لسان أهل بابل

(١) الفهرست ص ١٨ . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ .

على حاله فأما التبتلي الذي يتكلم به أهل القرى فهو سرياني مكسور غير مستقيم اللفظ . وقال غيره اللسان الذي يستعمل في الكتب والقراءة وهو الفصيح فلسان أهل سوريا وحران والحظ السرياني استخرجته العلماء واصطلحوا عليه وكذلك سائر المكتابات وقال آخر إن في أحد الأناجيل أو في غيره من كتب النصارى أن ملكاً يقال له سيمورس علم آدم الكتابة السريانية على ما في أيدي النصارى في وقتنا هذا ، ثم يمضى صاحب الفهرست في بيان أقلام السريانيين .

ونحن نورد هنا على سبيل المثال ما ذكره هيروودوت المؤرخ اليوناني الكبير :

يرى هيروودوت أن أحد الفراعنة من ملوك مصر أراد أن يعرف اللغة الطبيعية الأولى للجنس البشري . ولعله سأل في ذلك العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، فلم يجد لديهم جواباً يطمئن إليه ، وأخيراً فكر في هذه التجربة ونفذها : ذلك أنه أمر أحد خواصه بأن يبحث عن طفلين رضيعين حديثي عهد بالولادة ، ويضعهما بمزل في مكان ناء عن المجتمع بحيث لا تصل إليهما أصوات الناس ، ثم يتعهدهما بالرضاع والإطعام حتى يكبرا دون أن يسمعا أى لفظ كان من أى إنسان كان . وقد أشرف هذا الرجل على تنفيذ إرادة الملك . وفي يوم ما وهو يقدم إليهما الطعام سمع أول لفظة ينطق بها أحد الطفلين وهي (بيكوس) فطار بها الرجل وأبلغها

بالمالك ، ولما لم تكن هذه اللفظة معروفة في اللغة المصرية فقد سأل العلماء
في ذلك ، وأخيراً عرف أن هذه اللفظة إحدى ألفاظ اللغة اليونانية ، وأن
معناها (الخبر) .

وأظننا في غير حاجة لأن نشير إلى الروح التي أملت على هيرودوت
أن يقص هذه القصة ، وفي غير حاجة أيضاً لأن نذكر الهدف الذي
رمى إليه من وراء هذه القصة .

ومما يدخل معنا أيضاً ويتصل بهذا الموضوع ما يقال عن مستقبل بعض
اللغات مثل ما نسمعه من أن لغة القسبر هي السريانية ، أو أن لغة أهل
الجنة هي اللسان العربي ، أو أن الشعوب جميعاً صائرة إلى أن تصبح شعباً
واحداً يتفاهم بلغة واحدة . ومما يشبه ذلك ما قام به العلماء منذ قليل من
ابتكار لغة عالمية تصلح أداة لتفاهم الشعوب جميعاً ، تلك هي لغة الأسبيرانتو .

وبالرغم من مشاركة القائمين على شأن هذه اللغة حتى اليوم ، وبالرغم
من محاولاتهم العديدة لتثبيت أقدامها والعمل على تعميمها ونشرها ، وبالرغم
بما ألقوه في هذا الميدان من كتب ، وما أنشئوه من مكنتات ، وما نشره
من أبحاث فإنها لا تزال في دائرة ضيقة محدودة ، ولا تزال بعيدة عن أن
تصبح لغة تفاهم حتى بين القائمين عليها .

ولقد أردنا أن نخبر هذه اللغة ، وحاولنا أن نبين مدى قبولها للانتشار

فقرأنا بعض ما كتب منها باللغة الفرنسية ، واتصلنا ببعض المشرفين على تعليمها في باريس خلال عامي سنة ١٩٤٧ و سنة ١٩٤٨م ، ولكننا خرجنا من كل ذلك بفكرة هي : أن هذه اللغة صائرة إلى الموت قبل أن تتغادر المهد وأن هذه المحاولات مآلها الفشل بالرغم من صدق المشرفين عليها ، ومن إخلاصهم في العمل . ونستطيع أن نعزو ذلك إلى أسباب نلخصها فيما يلي :—

أولا : أن اللغة لا تفرض على الشعوب فرضا فهي ليست مظهراً خارجياً يمكن تشكيله حسبما تتطلب الظروف وإنما هي عنصر أساسي من عناصر تكوين المجتمع تخرج بروحه منذ طفولته ، وتلازم تطوره العقلي في كل مظهر من مظاهر ذلك التطور ، وليس أدل على ذلك من فشل محاولات بعض الشعوب في فرض لغاتها على بعض المناطق التابعة لدول أخرى ، جرياً وراء أغراض سياسية ، وذلك مثل محاولات فرنسا في إقليم السار التابع لألمانيا ، ومحاولات ألمانيا المتكررة في إقليم الألزاس واللورين التابعين لفرنسا . بل هناك ما هو أبعد من ذلك في الدلالة ، فقد تقوم الدولة السياسية على عنصرين أو أكثر من عناصر الأمة الواحدة ، ومع ذلك يستمر كل عنصر يحافظ على لغته الخاصة ، وأسلوبه في التعبير والأداء ، دون أن يتأثر بمحاولات الدولة من أجل التوحيد في اللغة ، كما تأثر بها في محاولاتها من أجل التوحيد في الأهداف السياسية للوطن وفي كثير من المظاهر الاجتماعية للمواطنين ؛ وأوضح مثال لذلك بلجيكا ، التي تضم بين حدودها عنصرين متباينين في اللغة : عنصر ينطق بلغة هي من أصل

ألماني ، وعنصر ينطق باللغة الفرنسية ؛ وأكثر من ذلك سويسرا التي تضم بين حدودها ثلاثة عناصر مختلفة ؛ عنصر يتحدث بالفرنسية ، وعنصر يتحدث بالإيطالية ، وعنصر يتحدث بالألمانية .

وأما أيضاً من الأمثلة الحية ما رأيناه من فشل محاولات الإنجليز في فرض لغتهم في يوم ما على المصريين ، وعلى الهنود ؛ وكذلك ما رأيناه من فشل محاولات فرنسا في فرض لغتها على شمال أفريقيا ، وعلى سوريا ولبنان . أما ما نراه في كندا أو في الولايات المتحدة أو في غيرها من البلاد الأخرى فإن اللغة فيها لم تفرض على السكان الأصليين . وإنما السكان الجدد هم الذين جاءوا إلى هذه البلاد بلغة جديدة فاستعمروها واستعمروا يتحدثون بلغتهم الأصلية .

ثانياً : أن تعليم لغة جديدة من اللغات لأفراد أو لشعب من الشعوب لهم لغتهم الأصلية يستلزم في كثير من الأحيان شيئاً من المنطق ؛ واللغة كظاهرة طبيعية من مظاهر المجتمع تتناقى مع المنطق ؛ ويكاد يكون مستحيلاً تعليم شعب بأسره مادة من المواد تخضع للمقاييس المنطقية ؛ ولم يكن فشل المحاولات التي أشرنا إليها سابقاً إلا نتيجة لذلك .

ما هي اللغة العربية؟

واللغة العربية التي نحن بصدد الحديث عنها هي تلك اللغة التي كانت ينطق بها أفراد القبائل الضاربة في شبه الجزيرة العربية ، من شمال اليمن حتى ريف العراق وبادية الشام .

وكانت هذه اللغة متنوعة ومتنوعة بتنوع القبائل الناطقة بها ، وذلك ما يعرف باللهجات العربية . ومنذ نهضت قبيلة قريش في أرض الحجاز وبدأت تسود غيرها من القبائل وتزعمها في الدين والسياسة والاقتصاد أخذت لهجتها كذلك تسود اللهجات الأخرى ، وتتغلب عليها . وقد استمرت هذه اللهجة في طريقها من الرقي بواسطة عدة عوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية حتى كادت تهمل في جانبها لهجات القبائل الأخرى ، وهي التي أورثتنا هذه الآثار الدينية والأدبية والعلمية ؛ وهي أيضاً لغة القرآن والحديث والأدب العربي .

وعلماء الشرق مجمعون على أن هذه اللهجة هي لهجة قريش ؛ ولكن من بين الغربيين الآن من بدأ يناقش هذا الرأي قائلاً بأن ما يسميه العلماء لهجة قريش يغلب على الظن أنه غير صحيح ، إذ من الصعب أن نتصور لقريش لهجة خاصة مع ما نعرفه من عدم بقائها في بيئة منعزلة عن القبائل الأخرى . فقد كانت بيئتها مورداً للقبائل العربية يأتون إليها للتجارة والحج والمفاخرة والمنافرة في الأسواق .

وكانت قريش بحكم زعامتها الدينية والاقتصادية دائمة الاتصال تقريباً بهذه القبائل .

وعلى هذا فإن لهجة قريش يمكن أن يقال عنها بأنه لا وجود لها ، وما هي في حقيقة الأمر إلا خليط أو مزيج من لهجات القبائل الأخرى تكون على مر الزمن ، وانتهى به الأمر إلى أن يكون لهجة البيضة الحجازية التي تسكنها قريش .

ونحن بدورنا نقول إن هذا الرأي مع ما له من وجهة ، وفيه من نضوج وعمق تفكير لا يسهل التسليم به : إذ أننا كيف ننفي وجود لهجة قرشية بسبب كثرة الدخيل فيها ؟

من المسلم به أن قريشا كانت على صلة بالقبائل العربية الأخرى ، وأن لهجتها كانت في أغلب الأحيان هدفاً لأن تطعم من اللهجات الأخرى .

ومها كثر الدخيل في تلك اللهجة القرشية فلن يرق فيما نظن إلى أن ينمحي أمامه الأصل ليتأصل ذلك الدخيل . والذي ينبغي أن نتصوره ونطمئن إليه هو أن لقريش لهجة خاصة ممتازة ، وكانت مع ما لها من صلات دائمة باللهجات الأخرى تبتلع وتهضم ما يفد إليها من تلك اللهجات . وليس أدل على ذلك من هذه الفروق في اللهجات الأخرى التي نجدتها في بعض الأمثلة والشواهد التي نقلها إلينا من تصدى لجمع اللغة وتدوينها من القدماء . وحتى لو سلمنا جدلاً بأن اللهجة القرشية الأولى قد انمحت تماماً وحل

محلها هذا الخليط من اللهجات الأخرى فإننا لا نزال نجد أنفسنا أمام لهجة متماسكة ومتميزة عن غيرها من اللهجات الأخرى . ويستوى في ذلك أن نسميها لهجة قريش أو لهجة بيئة الحجاز .

هذه اللهجة القرشية السائدة في بيئة الحجاز والمترجمة تبعاً لمساكنها لجميع اللهجات العربية الأخرى هي التي نزل بها القرآن ، وروى بها الحديث ، وما يستقى من الشعر الجاهلي . ثم هي نفسها الأداة التي دونت بها العلوم والمعارف الإسلامية في مختلف العصور . وسنرى عند الكلام عن النحو العربي أنه أسس على هذه اللهجة القرشية ، ولم يتعرض لغيرها من اللهجات إلا في القليل النادر . وكذلك الحال بالنسبة لمن تصدى لجمع اللغة العربية وتدوينها . وهذا ما جعلنا نحس دائماً بفجوة في معلوماتنا عن اللغة العربية ، وبعجز عن فهم بعض النصوص العربية التي وردت عفواً في ثنايا الكتب ، والتي علما علماء اللغة بما يسمونه الشنوذ ؛ وما كان يملأ هذه الفجوة ولا يوضح تلك الأمثلة الشاذة — كما يسمونها — إلا معرفتنا بتلك اللهجات العربية الأخرى . ومن هنا نلحس كم أتعبتنا هؤلاء العلماء وأضاعوا علينا من الفوائد ، وإن لم يكن ذلك منهم عن قصد واختيار . ولو أنهم نقلوا إلينا (فيما نقلوا) سائر اللهجات العربية الأخرى لأراحوا النحاة وأراحونا معهم من تلك التأويلات البعيدة ؛ وذلك التخريج العجيب ، ولكن سألهم الله وغفر لهم .

على أننا لم نصل بعد إلى درجة اليأس من الوصول إلى معرفة شيء
كثير من تلك اللهجات . فهناك يمكن أن نعثر على بعضها في بطون
كتب اللغة ؛ وفي ثانياً كتب النحو ؛ وفي خلال التصور الأدبية ؛
وخصوصاً في القراءات العديدة التي قرئت بها آيات القرآن . نعمقد أننا
لو قرأنا ذلك كله قراءة الممحص المدقق ؛ واستخرجنا من تلك الكتب
جميعاً ما يدخل في هذه الدائرة من البحث ؛ ثم جمعنا هذه العناصر المبعثرة ؛
والفنا بين هذا الشتات لتتكون لدينا ثروة لا تشك في أنها تصلح لأن
تكون موضوعاً لهذا الدرس .

إن تعدد اللهجات من طبيعة اللغات ، سواء في ذلك قديمها وحديثها ؛
وكثيراً ما كان الحرص على معرفة اللهجات المختلفة معيناً على فهم أساليب
اللغة وما فيها من أسرار بلاغية ؛ ووسيلة لإدراك الفروق بين الشعراء
والكتاب الناشئين في بلدات مختلفة اللهجات ، وكثيراً ما كان الحرص على
جمع اللهجات المختلفة للغة من اللغات أساساً لدراسة تلك اللغة . ومعرفة
الظروف التي نشأت فيها . ثم تطورت حتى أخذت لها مظهراً موحداً ؛
وأسلوباً عاماً .

ونظرة بسيطة إلى تاريخ اللغة اليونانية . وآثارها الأدبية . ثم مقارنة
هذه الآثار بعضها ببعض . بالنسبة للألفاظ ومعانيها والجمل وتركيبها ؛
والأفكار وطرق عرضها ؛ نقول إن نظرة بسيطة إلى ذلك تلقى ضوءاً على

قيمة معرفة الدارسين باللغات المختلفة في اللغة الواحدة . ولقد ترسم علماء اللغة اليونانية وآدابها هذه الخطوات فاهتموا إلى نتائج هامة بالنسبة لفهم اللغة وآدابها . ولعل أهم تلك النتائج من الناحية العملية بالنسبة للغة ، ومن الناحية العلمية بالنسبة للدارسين هو ما وجدوه من ثروة طائلة في وسائل التعبير عن الفكرة الواحدة .

ولقد ساءت اللغة اللاتينية بعد اليونانية نفس الخطوات . وكان اهتمام الباحثين فيها وفي آدابها مماثلا لاهتمام الباحثين في اللغة اليونانية . ثم إن النتائج المادية والعلمية لجمع اللهجات ودراساتها وتحليل أساليبها بعد أن اتخذت سبيلها إلى التوحيد تشبه في جملتها نفس النتائج التي وصلت إليها دراسات اللغة اليونانية وآدابها .

هذا وقد أخذ العلماء في دراسة اللغات الحديثة وآثارها بنفس الطريقة التي درست بها اللغات القديمة . واستطاعوا ملاحظة كثير من الفوارق بين الأدباء المختلفين باختلاف بيئاتهم ولهجاتهم . وذلك مثل ما حدث في اللغة الفرنسية ، فإن ما يمتاز به الآن من ثروة في المفردات ، وسهولة في التعبير ، ودقة في الأداء . إنما يرجعه إلى تعدد لهجاتها ، وتباين أساليبها ، ثم إبقائها على الكثير من مزايا هذه الأساليب وتلك اللهجات .

ومن هنا يتبين لنا إلى أي حد ينبغي أن نوجه عنايتنا بدراسة اللهجات في اللغة العربية ، وألا يكون صنيعنا حياها صنيع رجال اللغة والنحو من

القدماء . وللوصول إلى هذه الغاية ينبغي ألا نستصغر شأن ما لدينا من أمثلة وشواهد لتلك اللهجات ، فإن إهمال القدماء لها وعدم اهتمامهم بجمعها وإبداء رأيهم بصرح العبارة فيها من أنها ضعيفة أو شاذة ، أو غير مشهورة كل ذلك قد حط من شأن قيمة معرفة هذه اللهجات ، وزهد من سبقونا في دراستها ؛ ويقابل هذا الإهمال تشجيع متعمد من ناحية أخرى بالنسبة للهجة قريش ، فقد رفعوا من شأنها على حساب اللهجات الأخرى ، بل إنهم زادوا في احترامها ، وأسبغوا عليها صفات هي أقرب إلى صفات القداسة .

وعلينا الآن ، بعد أن اطلعنا على مناهج البحث الحديث ورأينا النتائج التي وصل إليها علماء هذه المناهج ، أن نواجه نظرية اللهجات في اللغة العربية بفسكرة جديدة ، وفهم واسع ، ونجمع أولاً ما يمكننا جمعه منها مما قل ؛ فمن الخيوط البسيطة الواهية يتكون الجبل القوي المتين . وهل كانت أوائل العلوم الواسعة سوى بعض المسائل البسيطة الهينة ؛ ولعل منشأ قصور الدارسين حتى اليوم هو أنهم لم يوسعوا دائرة اطلاعهم ، ولم يستوعبوا كل ذلك التراث العلبى الواسع ، والأدبي الغزير . وحتى من اطلع منهم على الكثير منه لم يقرأه وهو يقصد ذلك الهدف ، أو يرمي إلى تلك الغاية التي أشرنا إليها .

ولما لم يكن من طبيعة هذا البحث أن يتعرض في شيء من التوسع لذكر هذه اللهجات العربية المختلفة ، وذكر بيئاتها ، والتعريف بمميزاتهما ،

وجمع ما يمكن جمعه من أمثلتها وشواهدا ، فإننا نترك ذلك كله لدرس مستقل ؛ فهو ميدان بكر وخصب معا يستحق من الدارسين المختصين عناية عظيمة وجهداً كبيراً .

ولكننا مع ذلك لا نود أن نتركه دون أن نشير إلى تلك الفكرة الخاطئة التي سادت فيما بيننا زمناً طويلاً والتي كان من شأنها أن فهم الباحثون قلة الموروث من تلك اللهجات ، وعدم الغناء في جمعها ، وإحيائها ؛ وكان من شأنها كذلك أن دب اليأس في نفوس الدارسين فانصرفوا عن الاهتمام بها أجيالاً عديدة ، وأصبحوا لا يذكرونها إلا في معرض التذليل على ضعفها ، وفي سبيل الاستشهاد على قاعدة نحوية غريبة أو شاذة .

هذه الفكرة هي القائلة بضعف هذه اللهجات ، وبعدم مساواتها للهجة قریش في الفصاحة والبيان ، وقد ألمعنا فيما مضى إلى فسادها ؛ وليس أدل على ذلك من نزول بعض آيات القرآن بها ، وإجماع علماء الإسلام على صحة قراءة المشهورين من القراء بأساليبها ، وموقف الرسول ﷺ من تصويب القراءات المختلفة بالنسبة للنص القرآني الواحد .

كل هذا يدعونا إلى نبذ تلك الفكرة ، وإلى أن نكسر جزءاً من مجهودنا إلى جمع اللهجات العربية ودراسها . ولسنا نميل إلى مشايعة القائلين بقلّة الموروث من هذه اللهجات ؛ بل إننا نستطيع أن نزعم بأن ما يوجد منها في ثنابا الكتب والآثار يصلح لأن يكون موضوعاً كافياً للدراس ؛

رقد أشرنا فيما مضى إلى مظان وجود تلك اللهجات ، وإلى المصادر التي
نبغى أن نعتمد عليها لتجميع منها المادة الأولى ؛ ونضيف إلى ما تقدم كتب
لتاريخ وكتب السير ، والنصوص الأدبية حتى نهاية العصر الأموي . وإن نظرة عامة
لي ما جاء في كتاب سيرويه وحده من أمثلة للهجات القبائل العربية المختلفة
تمنعنا بصدق ما نزعم ، وتكفيها مستونة الاستقصاء لتدعيم الدليل .

والآن بعد هذا العرض العام بخصوص اللغة ونشأتها ورأى العلماء ، قديماً
حديثاً في ذلك ، ثم بخصوص أهم اللغات ، والأسس التي قامت عليها
إسهام هذه اللغات ؛ نقول بعد هذا العرض العام لهذه المسائل ، محاولين
أهمسكن أن نظهر هدفنا الخاص من وراء ذلك ، وهو موضوع اللغة
ربية : الذي هو مدار بحثنا ، ننتقل إلى موضوع آخر أخص من الأول
هو الصلة بين اللغة والنحو .



اللغة والنحو

اللغة العربية - النحو :

صلته باللغة - نشأته

لقد كان موضوع حديثنا فيما مضى بمثابة تمهيد لا بد منه للحديث عن النحو ، وقد انتهينا منها إلى بيان كيف كانت اللغة العربية متعددة اللهجات ومنشرة في كل القبائل الضاربة في شبه الجزيرة العربية تقريبا ، ثم كيف تضاعفت هذه اللهجات وانحصرت في لهجة قريش فقط ، وذلك بواسطة صنيع الرواة والعلماء ، ومن تصدى لجمع اللغة ، وتدوين ملاحظات عليها .

نحن إذن أمام اللغة العربية بمشكلة في لهجة قريش فقط التي ورثنا بها نصوص القرآن ومتن الحديث والتراث الأدبي القديم .

ونحن إذ نقرر ذلك إنما نسائر الفكرة الشائعة التي أوضحنها في الفصل السابق ، ولكننا حيث نجرد أنفسنا من تلك الفكرة ومن مثيلاتها الفكرية ، التي أخذناها عن القدماء بطريقة هي أقرب إلى التلقين ، حين نواجه النصوص الدينية ، والأدبية ، واللغوية مواجهة صريحة نجد أن كثيرا من اللهجات القبائل العربية الأخرى ممثلا في هذا التراث اللغوي الواسع ، غ

أن ذلك التمثيل لم يكن كافياً في نظر القدماء لكي يدخلوه في حسابهم ويتناولوه بالدرس ، أو يسلموه لنا على الأقل مجرداً من تلك الاعتبارات الواهية التي ألقوها به . والأحكام الشبيهة بالخاصة التي أصدروها عنه ؛ فكان لذلك أثر سيء في نفس من جاء بعدهم بالنسبة لتقدير هذا التراث .

ولإن صور الخلاف بين اللهجات التي نقلها إلينا النحاة في ثنايا كتبهم لتشهد بما كان لبعض اللهجات من قوة تكاد تساوى بها قوة لهجة قريش ؛ فكل من درس النحو يدرك مبلغ النفوذ الذي كانت تتمتع به لهجة تميم ، ويحرف ما أثبتته النحاة في قواعدهم ، وفي مؤلفاتهم من خلاف بين « ما » الحجازية و « ما » التيمية . وإذا كان النحاة لم يذكروا من صور الخلاف بين لهجة قريش ، ولهجات القبائل العربية الأخرى ، وتعمدوا فيما نظن أن بغضوا عن كثير منها ، إلا أننا نستطيع أن ندرك في سهولة صورا أخرى كثيرة ، وقوية ومنتشرة بين سكان الجزيرة العربية فيما كان يحدث بين القبائل من مفاخرة ، ومنافرة ومهاجاة ؛ إذ أنه ليس من السهل أن نتصور خضوع شعراء القبائل جميعها للهجة قريش في كل ما يثشدونه من قصائد في مجتمعاتهم ، وفي أسواقهم الأدبية ؛ وليس من السهل أن نتصور كذلك أن الحكم بين الشعراء من قبائل مختلفه كان يدخل في حسابه ، حين يصدر حكمه على قيمة الشعر ، ما كان من خلاف في اللهجة بين شعراء هذه القبائل المتباينة .

والنحو بالنسبة للغة هو عبارة عن مجموع الملاحظات والفواعد التي
تلتزمها أساليب اللغة في طرق أدائها اللغوي . فالالتزام الرفع في كل من
يصدو عنه الفعل أو الحدث ، والالتزام النصب في كل من يقع عليه الحدث ،
والالتزام الجر في كل حالة من حالات الإضافة وفي كل اسم مسبق
بحرف من حروف الجر ، والالتزام الجزم في الفعل المضارع إذا أسند إلى
نون النسوة أو سبق بحرف من حروف الجزم ؛ نقول إن التزام حالة من
حالات الإعراب المختلفة لكل حالة من حالات الكلمة بالنسبة لموضعها من
الجملة إن هو إلا طريق من طرق الأداء في اللغة العربية . أما ملاحظة
ذلك للسير على نهجه فهو من النحو .

ومن هنا نأخذ نقطة هامة وهي أن النحو لا ينشأ مع نشأة اللغة ،
وإنما هو مرحلة من مراحل نموها ، ومظهر من مظاهر رقيها ؛ إذ هو بهذا
الاعتبار وليد العقل ، واللغة في نشأتها الأولى وليدة الحس .
وليس من شك في أن العقل متأخر في الوجود عن الإحساس . وليس
أدل على ذلك من أن النحو لا يوجد إلا في اللغات الراقية ذات الآثار
الأدبية والعلمية الواسعة .

وقد ساءت اللغة العربية في هذا الطريق سير غيرها من اللغات الأخرى
كاللغة اللاتينية واليونانية مثلا . وإذا لم يكن لدينا من الوثائق التاريخية ،
ولا من الأدلة العلمية اليقينية ما يسهل علينا مهمة إثبات ذلك بالنسبة للغة

العربية ، فإن ما نجده في مثيلاتها من اللغات الأخرى يجعلنا نطمئن إلى هذا الحكم ، ونضرب صفحاً عن رأى بعض علماء العرب القائلين بأن النحو العربي قديم النشأة ، بل إنه توقيفي . كما أن اللغة في نظرهم توقيفية أيضاً . ومن هؤلاء العلماء ابن فارس ^(١) ، وسنعرض بالتفصيل لوجهة نظره عند الكلام على نشأة النحو العربي .

من الثابت أن كلاً من اللغة اليونانية واللاتينية قد نشأت بسيطة في ألفاظها وفي تراكيها ، محدودة في أساليبها ، وفي طرق أدائها للمعاني . غير أنها لم تلبث أن اتسعت دائرتها ، وتعددت أساليبها ، وتلا ذلك طبعاً ما يشبه التعقيد المعنوي ، فبدأت تلتزم طرقاً خاصة لتأدية المعاني ، وتميز بعض التراكيب عن بعض . إذ أن اللغة في حياتها تخضع لحياة المجتمع وطبيعته ؛ فكلما اتسع المجتمع ، وتعددت مشاكله ، وتعقدت أموره كان في حاجة إلى أن تتسع لغته ، وتعدد تراكيها ، وتشكل أساليبها وفق ما يستلزمه النمو العقلي في المجتمع . ولعل أول مظهر من مظاهر رقيها هو ما وجد فيها من الأغاني الشعبية التي تكون جزءاً مما يعرف عند الغربيين بالفولكلور *Folk-lore* . ولما كانت زمام هذه الأغاني الشعبية لا يزال منوطاً بيد الحس ، ولا دخل للعقل فيه إلا عن بعد ، فإن الملاحظات النحوية والالتزامات الدقيقة المنظمة لا ترى ولا تحس إلا قليلاً ؛ ولنا فيما نراه

(١) التعريف بابن فارس تقدم في ص ٢٢

من الأغاني الشعبية شاهد على ذلك ،

وإيكن عندما يدخل العقل في دور العمل ويتسلم زمام اللغة ، ويبدأ في تصريفها وترتيبها بحيث يسهل أن يؤدي بها كل ما يتصور من المعاني ، وماتدعو إليه الحياة الاجتماعية ؛ نجد اللغة تبعاً لذلك تدخل بدورها في التزام طرق الأداء بخصوصة ، وأساليب في التعبير متباينة تباين المعاني والتراكيب .

فلمة الشعوب البدائية بعيدة كل البعد عن ذلك التشقيق وتلك الطرق المتباينة في الأداء ؛ بل إن مجموعة بسيطة من المفردات وبقية يسيرة من التراكيب ، وطائفة قليلة من الأساليب التقليدية تكفي للتعبير عن حاجيات هذه الشعوب ، ولشرح أغراضها ، ولكي تنصر ذلك في وضوح فما علينا إلا أن نرجع بأذهاننا إلى الوراثة لننظر في تاريخ الكتابة الهيروغليفية أو السومرية ؛ فإن عدداً بسيطاً من الرسوم كان كافياً لأداء ما يراد أدائه ، وللتعبير عما يراد تسجيله ؛ وبقدر ما كان يظهر من الفكر العقلي في المجتمع كانت تتطور وتعدد تلك الرسوم ؛ ولكن حينما ضاقت هذه الرسوم عن كل ما يدور في أفق المجتمع ، وكل ما يقع تحت حسه الباطني أخذت الصورة الواحدة تدل على كثير من المعاني ، فأصبحت الكتابة بذلك وسطاً بين الرمز والتصوير ؛ وفي المرحلة النهائية للكتابة تنتقل إلى الرمزية الخالصة حيث تعجز الرسوم تماماً عن شرح وأداء ما يراد . وتاريخ الكتابة التصويرية يعتبر إلى حد كبير مرآة لتاريخ اللغة نفسها ؛ وكل من اللغة

والكتابة يمثل النمو العقلي في المجتمع بعد مرحلة الحس الخالص . وحينها نصل اللغة إلى الدرجة التي نستطيع أن تسير بها المجتمع في إحساسه ، تصوره ، وحياله ، وإدراكه للأمور فإنها تكون قد استكملت إلى حد كبير ثروتها في التراكميب والأساليب كما استكملت ثروتها في المفردات . حينئذ نجد أن هذه الطرق ، وتلك الأساليب هي التي تمهد للملاحظات نحوية ، وللاستنباط القواعد والأحكام التي هي من عمل النحاة .

هذا ولو استعرضنا تاريخ حياة اللغة على ضوء هذه الاعتبارات السريعة وجدناها تمر بأطوار أساسية ثلاثة : طور الطفولة ؛ وطور الشباب ؛ وطور النضوج . على أن المدة التي تقضيها اللغة في كل طور من هذه الأطوار تلتف باختلاف الظروف والملايسات ، فقد تبقى اللغة في طفولتها لاتنتقل ، طور آخر مادام الشعب في حياته البدائية الأولى كلغات الشعوب في ريفيا الوسطى ؛ وقد تنتقل طفرة إلى طور النضوج إذا أتيح لها من رص ما يؤهلها لأن تأخذ مكانتها بين اللغات المسندة الراقية . وهكذا نجد ، باعتبارها ظاهرة اجتماعية ، تتأثر بما يتأثر به سائر الظواهر الاجتماعية 'أخرى ؛ وهذه الأطوار الثلاثة التي تكلمنا عنها إنما هي المراحل الرئيسية لث التي مرت بها كل من اللغية اللاتينية واليونانية . ونعتقد أنها هي ما التي مرت بها اللغة العربية . وما يقال غير ذلك فليس بمقبول ؛ إذ اللغة العربية لم تكن بدعاً ولا منفردة في نشأتها عن اللغات الأخرى .

... وينبغي ألا يحول جهلنا بتاريخ هذه اللغة بيننا وبين الاطمئنان إلى هذا الافتراض ، كما ينبغي ألا يمنعنا ذلك الجهل أيضاً من تطبيق ما حصل في اللغات الأخرى على اللغة العربية من حيث النشأة والتطور ، إذ أن القوانين الطبيعية واحدة في ماهيتها وإن اختلفت في الشكل والمظهر ، هذا وما وجد حتى الآن من النصوص العربية القديمة ، سواء ما كان منها منقوشاً على بعض المقابر أم ما كان مدفوناً في بعض الأماكن ، يعتبر بداية طيبة لدرس تاريخ هذه اللغة ، ويذكر بأن وراء هذه النصوص نصوصاً أخرى سيكشف عنها البحث ، وستلقي ضوءاً على نشأتها ، وتطورها . ولقد كانت أمثال هذه النصوص على قلمها وبساطتها في اللغة اللاتينية أساساً لمعرفة أوليتها ، ودرس تاريخها ؛ وما حدث في اللغة اللاتينية يشبه إلى حد بعيد ما حدث في اللغة الفرنسية . وليس من هدفنا في هذا البحث أن نعرض لتاريخ هذه اللغات ، قديمها وحديثها ، ولا أن نبين في وضوح جهود انتقالها مع ذكر المميزات لكل عهد ؛ ولكننا قد قصدنا بما تقدم بيان القوانين العامة ، والأسس الطبيعية التي تخضع لها اللغات ؛ ومنها يتضح موقفنا من اللغة العربية ؛ ونستطيع أن نحدد أهدافنا من درسها ؛ ونبدي بعض الملاحظات على ما خفي من أمرها .

وإذن فمن هذا العرض السريع يمكننا أن نستخلص الحقائق الآتية :

أولاً : اللغة العربية التي نحن بصدد الكلام عنها لم توجد في أول عهدها

كاملة ناضجة ؛ فذلك يناقض القوانين الطبيعية العامة ؛ وإنما سارت على سنن غيرها من اللغات الأخرى ومررت بالمراحل الثلاث التي مرت بها سائر اللغات : طفولة ، شباب ، نضوج .

ثانياً : اللغة العربية كما نراها ونقرؤها تشمل المرحلة الثالثة ، التي هي عبارة عن مجهود زمن طويل ، وربما أجيال عديدة ، في سبيل تنوعها واتساعها وبلوغها إلى درجة من الدقة والرقى تستطيع معها أن تعبر عما تستلزمه حياة صاخبة في مجتمع عظيم .

ثالثاً : لم تلازم اللغة العربية طرق الأداء الخاصة ، والنظام الدقيق في ملاحظته علامات الإعراب من حركات وحروف إلا في هذه المرحلة الأخيرة . أما ما سبقها من مراحل أخرى فليس من المعقول أن تكون كذلك من هذه الدقة والانضباط .

ومن هنا يظهر لنا فساد الرأي عند القائلين بأن اللغة العربية توقيفية في قواعدها كما هي في نظيرهم توقيفية في مفرداتها . وكذلك يظهر فساد رأي من قال بأن اللغة العربية لم تعرف اللحن مطلقاً ، أو أن العربي لا ينطق باللحن وليس من طبيعته أن يلحن . ليس هنا مجال عرض آراء هؤلاء العلماء ، ولا مناقشته هذه الآراء ، والرد عليها ؛ فسيكون لنا معهم بعد قليل موقف آخر ، نسألهم ، ونحلل آراءهم ، ونبين مدى مخالفتهم لطبائع الأشياء . ويغلب على الظن أن ما نجدناه الآن في بطون

الكتيب القديمة ، وفي ثنايا النصوص من أمثلة نحوية وشواهد أدبية خارجة عن تلك القواعد التي وضعها النحاة ، ثم اتسوا لها تخريجات من تخريجاتهم حتى يتخلصوا منها وينسجموا مع قواعدهم ، فعالموا طوراً بالسماع ، وطوراً آخر بالثبوت . نقول يغلب على الظن أن ما نجد من هذا القبيل إن هو إلا بقايا من اللغة العربية في مراحلها الأولى يوم أن كانت لا تلتزم هذه الطرق المعروفة في الأداء ، ولا تتبع بالضبط هذه العلامات من الإعراب . وقد يتساءل القراء عن بقاء سبب هذه الآثار القديمة وعدم تطورها بتطور اللغة نفسها ، وإمكاننا نجيب عن ذلك بأن تعليل استمرار هذه البقايا على ألسنة العرب ، وفي استعمال العربية حتى أيام نهضتها ، وبالوفاة درجة الكمال ، سهل ميسور . فالمسألة لا تعدو في نظرنا أحد أمرين :

١ - إما أن تكون هذه البقايا من الأمثلة النادرة أو الشاذة قد جاءت على ألسنة بعض القبائل العربية الأخرى غير قبيلة قريش. وحينئذ يمكن أن تظل هذه الأمثلة بأن تلك اللهجات العربية الأخرى التي لم تصل إلى ما وصلت إليه لهجة قريش من النضوج والكمال ، قد استمرت تتمثل فيها العهود الأولى للغة حيث لا يلتزم فيها باطراد نظام مخصوص للأداء ، ولا قواعد مضبوطة للتعبير ، كما هو الشأن في اللغات الأخرى . وحيث كانت القبائل العربية منفصلة متباعدة . لا تجتمع إلا في ظروف ضيقة ؛ وحتى في هذه الظروف لا يجتمع إلا بعض أفراد منها ككروساء

القبائل ، والقائمين بشئون التجارة ، مما لا يـكفي معه أن تتأثر لهجة قبيلة
بلهجة قبيلة أخرى ؛ فاستمرت العزلة ، وساعد على استمرارها ظروف
الحياة في شبه الجزيرة العربية حتى بعد نهضة قبيلة قريش ، ومحاولة الإسلام
الكبرى بتوحيد القبائل ، وجمعها على لهجة واحدة . وذلك عكس ما لوحظ
في شبه جزيرة اليونان ، وفي شبه جزيرة إيطاليا بالنسبة لما كان هناك
من لهجات متباينة ، ثم من صلات متبادلة ، وتوحيد في اللهجة سريع .

ولقد كان من نتيجة هذه الحياة ونظمها الاجتماعية في شبه الجزيرة
العربية أن أصبحنا نجد هذه الفوارق في طرق الأداء ، ونحو ما كانت
تحدثه من خلاف واضطراب عند رجال النحر واللغة حينما تصدوا لجمعها
ودراستها ، وتدوين ملاحظاتهم عليها . وإليكم بعض الشواهد مما يلقي ضوءاً
على ذلك ؛ وقد حاولنا جمع هذه الشواهد في طوائف . كل طائفة منها
خاصة بقاعدة نحوية ؛ فما يختص بقاعدة أفراد الفعل منع تقدمه
على الفاعل المثني أو الجمع نجد :

جاءوني بنو فلان ، وأكلوني البراعيث

وقول الشاعر

رأى الغواني الشيب لاح بعارضى * فأعرضن عنى بالحدود النواضر

وقول الآخر

تبع الربيع محاسنا « ألحقها غير السحاب (١)

ومنها أيضاً قول أمية بن أبي الصلت :

يلومونني في اشتراء النخيل أهل فكلمهم أوم

وقول ابن قيس الرقيات :

تولى قتال المارقين بسيفه « وقد أسلاه مبعد وجهم

وقول الفرزدق ضمن قصيدة يهجو بها ابن سفيان الضبي :

ولم يكن ديانى أبوه وأمه « بحوران يعصرون السليط أقاربه (٢)

وقد جاء القرآن بأمثلة من هذه اللهجة فقال تعالى : « وأسروا النجوى

الذين ظلموا » وقال : « ثم عموا وصبوا كثير منهم » . ومن ذلك

أيضاً ما روى : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

(١) انظر فقه اللغة للشعالي — القسم الثاني ؛ سر العربية ص ٤٨٨

(٢) هذه الأبيات الثلاثة قد ذكرها الحافظ جلال الدين عبيد الرحمن

السيوطي في كتابه « همع الهوامع على جمع الجوامع » بمناسبة الكلام على القاعدة

النحوية التي ذكرناها ؛ ثم شرحها وعلق عليها الأستاذ أحمد بن الأمين

الشنقيطي في كتابه — الدرر اللوامع — على همع الهوامع شرح جمع الجوامع —

ج ١ ص ١٤١-١٤٢ . وقد ذكر بعض النحاة أن هذه الشواهد قد جاءت

بلهجة طيء ، وقال بعضهم إنها لهجة أزد شنوءه ، الذين يأتون بالألف في

الفعل مع المثني ، وبالواو مع الجمع للذكر وبالنون مع الجمع للنون .

هذه الأمثلة لجمع الفعل مع تقدمه مع الفاعل الجمع تيسر لنا سبيل قول بأنه من المرجح أن تكون هذه الطريقة في التعبير أسبق من إعادة العامة المعروفة الآن وهي أفراد الفعل عندما يتقدم الفاعل الجمع ، لمقول أن يجمع الفعل مع الجمع ، ويفرد مع المفرد . وقد أحس بهذا عالي وأشار إليه (١) حين اعترف بأصالة هذا التعبير ؛ والشعالي هو أولئك العلماء الذين امتازوا بقوة الإدراك ، ودقة الحس بالنسبة لحقيقة لغة العربية ، وأساليها ؛ وله في كتابه « فقه اللغة » مواقف عدة تؤيد هذا القول ؛ فكثيراً ما ثار على النحاة وانتقدتم في طريقة فهمهم لأساليب لغة ، ونبهه إلى أن اللغة ينبغي أن تدرك بالذوق والحس قبل أن تدرك لمنطق والعقل .

ومن العجيب أن نجد النحاة يقررون عكس هذا المبدأ ، فيسمون الة أفراد الفعل مع تشيئة الفاعل أو جمعه قياساً ؛ ويحكون العكس ن ، وهو تشيئة الفعل مع الفاعل المثني ، وإفراده مع الفاعل المفرد ، وجمعه مع الفاعل الجمع ، خروجاً عن القياس . (٢)

(١) فقه اللغة ص ٢٨٨

(٢) انظر الدرر اللوامع للشنقيطي ج ١ ص ١٤١

ومن القواعد النحوية أيضاً ، التي اهتم بها النحاة وأكثروا فيها من الأمثلة والشواهد الخارجة على قواعدهم المقررة ، والمشييرة إلى لهجات قبائل أخرى غير طليحة قريش ، قاعدة إعراب الأسماء الخمسة .

ومن ذلك أيضاً ما نجده في كثير من أبيات الشعر لشعراء قبائل مختلفة قد اهتم بها النحاة ، وأوردوها في جملة من أبواب النحو مثل الأسماء الخمسة ، والثنى ، وجمع المذكر السالم وملاحظات ، وجمع المؤنث السالم ، وما لا ينصرف . . . الخ

ونذكر من ذلك على سبيل المثال فقط لا على سبيل الاستقصاء قول

أبي النجم العجلي ، وهو من بني عجل من بكر وائل :

واها لريا ثم واها واها * هي المتى لو أننا نلناها

يا ليت عيذها لنا وفاها * بضمن نرضى به أباه

إن أباه وأبا أباه * قد بلغا في المجد غايتاهما

وهنا نلاحظ قصر الأبي من الأسماء الخمسة على الألف ، وكذلك

قصر المتى على الألف في (غايتاهما) . ومن قصر المتى أيضاً قول

الشاعر .^(١)

تزود منا بين أذناه ضربة * دعتني إلى هابي التراب عقيم

(١) شرح همع الهوامع ج ١ ص ١٤ . هابي التراب = ما اختلط منه بالرماد ،

عقيم = لا يلد .

نلاحظ « أذناه » بدل « أذنيه »
وقول عمرو بن العاص ، في رواية ، حين حمله معاوية على مبارزة علي
ابن أبي طالب : مكره أخاك لا بطل .

ومن ذلك أيضاً ما جاء على لسان رجز من ضبة كما يقول المفضل ^(١)

إن لسلي عندنا ديوانا * يخزي فلانا وابنه فلانا

كانت عجوزاً عمرت زمانا * وهي ترى سيئها إحسانا

أعرف منها الأنف والعينانا * ومنسخرين أشبهها ظييانا

نلاحظ « عينانا » و « ظييانا » مع « منسخرين » .

ثم نلاحظ كذلك التزام فتح نون المثني في تلك اللمجة ، ويقال إنها
لغة بني الحارث بن كعب ، إذ أنهم يقبلون الياء الساكنة إذا انفتح ما
قبلها ألفاً فيقولون : أخذت الدرهمان ، واشتريت ثوبان ، والسلام عليكم .
قال ذلك أبو حاتم والآخر ^(٢) .

ومن العرب أيضاً من يلزم المثني الألف ، ويعربه بالحركات على
النون ، من ذلك هذا البيت الوارد في كتاب المواقيت منسوبا إلى أبي
عمر الزاهد :

يا أبنا أرقى القذان * قالنوم لا تطعمه العينان ^(٣)

(١) شرح معجم الهوامع ج ١ ص ٢١

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢١

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٢ . القذان = جمع قذة : البراغيث

ومما خرج عن قاعدة إعراب جمع التصحيح وما ألحق به ما روى عن جرير أنه قال أباينا يخاطب بها فضالة العربي منها :

عرفنا جعفرأ وبنى أبينه . وأبكرنا زعانف آخرين

حيث روى بكسر النون في « آخرين » وقد قرر فريق من النحاة أنها لغة في الجمع . (١)

ومنها ما نقله الشنقيطي عن السيوطي : إلا الخلائف من بعد النبيين (٢) بكسر النون أيضاً في « النبيين » .

ومن الملاحظ بجمع المذكر السالم ماورد بلغة بعض بني تميم وبني عامر حيث يلزمونه الياء ويجعلون إعرابه على النون ؛ وذلك مثل بيت جرير الذي قاله ضمن قصيدة يهجوها الفرزدق :

رأت مر السنين أخذن مني « كما أخذ السرار من الهلال

حيث كسرت النون بالإضافة إلى (مر) .

وبيت آخر يروي لشاعر من نخاعة أو من جرهم . (٣)

ألم نسق الجحيج سلى معدأ « سفيننا ما تعدد حسابا

حيث لزمت الياء أيضاً في « سفيننا » ونصبت النون .

(١) انظر: الدرر اللوامع للشنقيطي ج ١ ص ٢١ .

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢ .

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٠ .

وهكذا نستطيع أن نمضي في ذكر أمثلة من جمع المؤنث السالم ،
اسم المنوع من الصرف قد شذت عن القواعد النحوية التي قررها
ويون لها ؛ وليكننا نحيل القارىء إلى عدين البابين في مكتب النحو
سعة كشرح ابن عقيل وشرح الأشعري على ألفية ابن مالك ؛ وكتاب
عل للزمخشري ، وعلى رأس هذه المكتب جيماً كتاب سيديويه .

هذه الشواهد التي ذكرها النحاة في مؤلفاتهم وعلى رأسهم سيديويه ، وحاولوا
دعم فهمها فيها منطقياً وتعليل خروجها عن قواعدهم المقررة تعتبر في
قع بعيدة الدلالة ؛ فهي لا تقف عند إثبات لهجة من اللهجات كما
يون ، وليكنها تلقى ضوءاً على كثير من المسائل الحساسة في اللغة
بية ؛ إذ أنها تبين إلى حد بعيد طرق الأداء المختلفة عند القبائل ؛
لات الإعراب في اللهجات ، وطبيعة اللغة في العصر الجاهلي ومدى ما
هناك من خلاف في الأساليب مع توافق في المعنى .

والذي يزيدنا اهتماماً بهذه الأمثلة وتشبثاً بدراستها دراسة عميقة ، وفهمها
جديداً هو ما نجد من شبيه لها في النصوص القديمة من اللغات
ية كالإيونانية واللاتينية ، فقد كانت هذه الأمثلة في هاتين اللغتين بمثابة
س انبني عليه كثير من المسائل لفهم تاريخ اللغة ، وتطور الإعراب
وما دامت اللغات في مجموعها خاضعة لنواميس طبيعية واحدة فإن

مقارنة اللغة العربية بغيرها من اللغات القديمة المعربة يعتبر عظيم الجسدي
لفهم ما غمض من مسائلها ، وما أعمل من موضوعات الدرس فيها . ولقد
كان من نتائج هذه الدراسات المقارنة أن تنبه لها كثير من العلماء فتوسعوا
فيها حتى شملت كثيراً من العلوم كالآداب المقارن ، والنحو المقارن ، والقانون
المقارن ؛ وأكثر من ذلك لأنها فتحت آفاقاً جديدة لفهم بعض الأمور في
كل ميدان على حدة من ميسادين المعرفة الإنسانية ، بل لقد تخطى بعض
العلماء هذه الميادين جميعها وأدخلها في الأديان يقارنها ببعضها ، ويبين مدى
ما يمكن أن يكون بينها من تشابه واختلاف ، ومدى ما يمكن أن
يكون بعضها قد استمد مبادئه وتعاليمه من البعض الآخر . لهذه الاعتبارات
قد اعتمدنا في بحثنا اعتماداً كبيراً على مقارنة اللغة العربية ونحوها بغيرها
من اللغات الأخرى وما يتصل بها من دراسات ؛ وسيرى القارئ صوراً
عدة من هذه المقارنة كلما امتدت به القراءة في هذا البحث .

عرضنا منذ قليل لبعض الشواهد الأدبية من لهجات القبائل المختلفة
التي لا تتفق مع قواعد النحو المقررة ، وعرضنا لبيان وجهة النظر عند
النحاة في فهمها ، ثم بينا وجهة نظرنا نحن إذا ما وجدناها وحاولنا دراستها .
وأما ما نجد من ذلك في القرآن أو في الحديث ، أو ما جاء عن لسان
بعض القرشيين فيمكن أن يعلل بتعليل آخر :-

ذلك أن يكون القرآن أو الحديث قد التجأ إلى هذه الطرق من التعبير

لفرض خاص استلزمه أمر بلاغى أو ظرف اجتماعى ، فأحياناً يلجأ البليغ إلى التعبير بأساليب قديمة ؛ إما لأن موضوع الحديث يستدعى ذلك ، وإما لأن المتحدث إليه تجمعهم بذلك القديم صلة وثيقة ؛ وإما لاستحضار صورة من ذلك القديم لأغراض أخرى .

كفرض التأثير ، أو الإيقاظ ، أو التبجيل ، أو الذكرى ؛ فإن مجرد الإشارة فى كل هذا يعنى عن عبارة ؛ وقد اتخذ علماء البلاغة من هذا ميداناً لدرسهم وتكفلوا بدياته ، وذكر الآثار النفسية والأدبية ، التى تحدثها هذه الطرق فى الأداء . ولم يكن ذلك بدءاً فى اللغة العربية ولا فى أساليبها ، فإننا نجد كبار الكتاب اليونانيين والرومانيين يصنعون ذلك فى أساليبهم لأغراض بلاغية كالأغراض التى ذكرناها من قبل ، فتكون هذه التعابير القديمة ، سواء أكانت خاصة باللغة أم بالقواعد النحوية ، فى ثنايا الأساليب الحديثة بمثابة حلية تزينها ، أو لحة تكسيها قوة .

ومن أشهر من عرف بذلك شو فيرجيل ، أكبر شعراء اللاتينية فى ملاحظته « الإيفياده » وتيتوس ليفوس من أكبر مؤرخيها أيضاً فى تاريخه الرومانى .

ثم أننا نجد صدق ذلك كله واضحاً تمام الوضوح فى صنيع المؤلفين

المسرحيين ، قديمهم وحديثهم على السواء . كأرسطوفان ^(١) *Aristophane* ،
أوريبيد ^(٢) *Euripide* من اليونانيين ، وبلوت ^(٣) *Plaute* ، تيرانس ^(٤) ،
Terance من اللاتين ، وشكسبير ^(٥) *Shakespeare* من الإنجليز ؛

(١) أرسطوفان *Aristophane* عاش في القرن الخامس قبل المسيح .
اشتهر بشعره المسرحي في أثينا وله أحد عشر مسرحية انتقد فيها الأدب
والسياسة في عصره .

(٢) أوريبيد *Euripide* ولد نحو سنة ٤٨٠ ق.م ومات سنة ٤٠٦
أو ٤٠٥ ق.م شاعر مسرحي أيضاً وله عدد كبير من المسرحيات يصف
فيها نزعات الحب ، ويعالج الناحية العاطفية معالجة دقيقة .

(٣) بلوت *Plaute* ولد نحو سنة ٢٥٠ ق.م ، مات نحو سنة

١٨٤ ق.م
شاعر مسرحي روماني وقد استطاع أن يصور في مسرحياته نزعات
عصره وأخلاق المجتمع .

(٤) تيرانس *Terance* شاعر مسرحي روماني ولد في قرطاجنة سنة ١٩٤
ق.م ومات ١٥٩ ق.م وهو من العبيد المحررين وله عدد كبير من
المسرحيات قلدها فيها المسارح اليونانية .

(٥) شكسبير *Shakespeare* ولد سنة ١٥٦٤ ومات ١٦١٦ م
أكبر شاعر مسرحي إنجليزي وله عدد كبير من المسرحيات المشهورة ،
وقد استطاع أن يصور بصدق كل الإحساسات وكل نزعات الحب .

وكورنى *Cornelle* ^(١) ، ومولير *Molière* ^(٢) ، وراسين *Racine* ^(٣) من الفرنسيين . هؤلاء جميعاً قد لاحظوا في مسرحياتهم هذه الاعتبارات ملاحظة دقيقة ؛ إذ أنهم في حاجة إلى تصوير شخصياتهم ووصف مناظرهم تصويراً ووصفاً حقيقيين أو شبهين بالحقيقة حتى يكون المنظر على نفس الناظر أعظم وقعاً ، وأبعد أثراً ؛ فإن كانت أشخاص المنظر من القدماء استحضروهم بهياتهم وأجروا على ألسنتهم نفس لهجاتهم وأساليبهم وألفاظهم وتركوا منطقتهم يعبر عن تفكيرهم ، ويشرح مبلغ ما لديهم من ثقافة ومعرفة ؛ وإن كانت أشخاص المنظر من المحدثين لاحظوا في تمثيلهم وتصويرهم كل ما يتصل

(١) كورنى *Cornelle* ولد سنة ١٦٠٦ ومات ١٦٨٤ وهو أبو التراجيديات الفرنسية كما يقول رجال الأدب في فرنسا . وله عدد كبير من المسرحيات يصور فيها أخلاق عصره .

(٢) مولير *Molière* ولد سنة ١٦٢٢ مات ١٦٧٣ م وهو شاعر مسرحى وممثل ومدير لمسرح في آن واحد . وقد تجول في ميدان المسرحيات منذ أبسطها حتى أسماها . وقد خدم بمسرحياته لغة الأدب وله عدد كبير من المسرحيات .

(٣) راسين *Racine* ولد سنة ١٦٣٩ مات ١٦٩٩ م وقد قلد القدماء في مسرحياتهم وأساليبهم التي تدور حول تصوير العواطف والإحساسات . وله عدد عظيم من المسرحيات .

بظروفهم الاجتماعية ، والثقافية ، والأخلاقية ، وحاولوا إبراز هذا كله في هياتهم وفي لغتهم ، وأساليبهم ؛ وكذلك كان نجاح المؤلف المسرحي عظيماً في هذه الأمور ، كانت مكانته في التأليف أكبر ، وشهرته أوسع . وإذن فعلى ضوء هذا المبدأ البلاغي الذي يكاد يكون مبنياً على إحساس فطري يمكن أن يفهم ما جاء في القرآن والحديث موافقاً للهجاء القبائل العربية الأخرى غير قبيلة قريش .

ومن أمثلة ذلك في القرآن ما تجده في قوله تعالى :

وأسروا النجوى الذين ظلموا .

ثم عموا وصبوا كثير منهم .

واتبعوا ما تتلوا الشياطين .

وفي الحديث :

يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .

وكل ذلك خاص بجمع الفعل مع تقدمه على الفاعل الجمع .

ولعل من هذا القبيل أيضاً ما تجده في القرآن من مخاطبة الواحد بلفظ

الاثنين كقوله تعالى مخاطباً مالكا خازن النار : « ألقيا في جهنم كل كفار

عنيده » .

ومن ذلك أيضاً ما يلجأ إليه القرآن من تأنيث بعض الأسماء مرة

وتذكيرها أخرى دون أن يلتزم طريقة واحدة في هذه الأسماء ومنها :

« وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً » ثم يقول بعد ذلك « إذا رأتهم من مكان بعيد . » فمرة ذكر السعير ومرة أنه .

« إذا السماء انشقت . » « السماء تنظف به . »

فمرة ذكر لفظ السماء ومرة أنه .

ومن هذا القبيل أيضاً ما نجد في القرآن من التزام المثنى الألف

في حالة النصب والرفع مثال ذلك قوله تعالى :

« إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما . »

ومن ذلك أيضاً ما ورد عن السيدة فاطمة رضي الله عنها أنها قالت :

(يا حسنان يا حسنيان .)

إن ما أوردناه من الأمثلة وما هو موجود في كثير غيرها يمكن

بسهولة أن يعمل بما ذكرنا ، ثم إنه فوق ذلك يلقي ضوءاً قويا أمام

الباحثين بالنسبة لمن يدرس اللغة العربية وتطورها ، والنحو العربي ونشأته ،

إذ أننا لو استعرضنا كل ذلك مع ملاحظة تطبيق هذين المبدئين المنطقيين :

البسيط يسبق المركب ، وما يدركه الحس يسبق ما يدركه العقل ؛ نقول لو

استعرضنا هذا الخليط من الشواهد العربية مع ملاحظة هذين المبدئين لحمل

أمامنا كثير من المشاكل التي لم يتنبه لها نحاة العرب ، ولاستتار طريق

وضع تاريخ لتطور قواعد النحو من وجهة النظر الفنية لا العلمية ؛ فنذكر

مثلاً أن التزام قاعدة الإعراب بواسطة الحركات كانت أسبق إلى

الانضباط منها إلى الإعراب بواسطة الحروف ؛ ونذكر كذلك أن

الألفاظ الدالة على المحسوسات كانت أسبق في الوجود من الألفاظ الدالة على الأمور المعنوية ؛ وأن الألفاظ المكونة من مقطع واحد - أي من حرف متحرك وآخر ساكن - أسبق من الألفاظ المكونة من مقطعين أو ثلاثة .

وهذا ما سار عليه الأب انستاسي ماري الكرملي في كتابه « نشوء اللغة العربية ونموها واكتهاظها » وما سنسير عليه عند الكلام على النحو العربي ونشأته .

إن ما أوردناه من أمثلة حتى الآن ، وما حاولناه من تعليل لوجود هذه الشواهد في القرآن وفي الحديث ، وفي كلام بعض القرشيين إنما هو من قبيل العرض ، والوصف لما هو كائن ؛ والتعليل لبقائه واستمراره حتى سادت لهجة قريش وعمت أساليبها ؛ أما تعليل نشأته فإننا لم نتعرض لذلك بالتفصيل . وينبغي ألا نختتم بحثنا في اللغة العربية ، وألا ننتقل إلى البحث في النحو قبل أن نبين السبب في نشأة هذه الطرق المختلفة في التعبير التي كانت من جرائها هذا التمايز في اللهجات ، وذلك الاضطراب في الأساليب ؛ إننا نرجح أن مصدر هذا الخلاف في تذكير بعض الأسماء وتأنيثها على السواء ، وفي إعرابها مرة بالحروف ، ومرة بالحركات ، وفي دلالتها طوراً على معنى ، وطوراً آخر على معنى يخالف المعنى الأول ؛ نقول إن مصدر كل هذا يمكن أن يرجع بصفة إجمالية إلى تعدد اللهجات ؛ فبعضها

كان يستعمل ألفاظا على أنها مؤنثة ، والبعض الآخر كان يستعملها على أنها مذكرة ؛ وبعضها كان يستعملها بمعنى ، والبعض الآخر كان يستعملها بمعنى آخر .

وليس من السهل أن يكون الأمر كما وصفنا إلاحينا كانت القبائل العربية منفصلة تماماً ؛ وكل قبيلة تخلق من الألفاظ وتكون من التراكيب ما يتلاءم مع بيئتها ، وظروفها الطبيعية والاجتماعية .

وما نحن أولاء لانزال نجد صورة حية من ذلك بين قبائل البدو المختلفة الضاربة في صحراء مصر الشرقية ؛ فلقد جمعنا منذ سنتين مجلس مع أحد البدو المقيمين في الصحراء قريباً من مدينة حلوان ؛ وسار بنا الحديث حتى تكلمنا عن لهجات القبائل البدوية المختلفة ، ومكث يقص علينا أوجهاً من الخلاف في الألفاظ وفي المعاني ، وإن هذه القبيلة مثلاً تعبر عن نفس المعنى بلفظ كذا ، وتلك القبيلة تعبر عن نفس المعنى بلفظ آخر ؛ ثم ذكر حادثة كان هو شاهد عيان فيها قال : اجتمع أحد البدو بشيوخ قبيلة تقيم بناحية الفيوم ، وفي أثناء الحديث انتسب البدوي إلى قبيلة معروفة من القبائل الضاربة في الصحراء الشرقية ما بين مدينتي حلوان والصف ؛ ولكن شيوخ القبيلة قد لاحظوا عليه لساناً غريبة ولهجة لا تتفق مع لهجة القبيلة التي انتسب إليها ؛ فتصدى له أحدهم ، ووجه إليه بضعة أسئلة يلجأ إليها البدو عادة في مثل هذه الظروف لكي يميزوا أفراد قبيلة من أفراد قبيلة أخرى ؛ ذلك أن

ذكر له جملة أسماء لمسميات ، ثم طلب منه أن يذكر أسماءها في القبيلة التي انتسب إليها ؛ فراح ذلك البسوي يذكر أسماءها كما يعرف ؛ ولم يمضِ طويل حتى كشف أمره وعرف كذبه ، وتبينوا أنه أجنبي عن تلك القبيلة جاء من قبيلة أخرى متنكراً يريد بأحد الأفراد شراً .

هذه الحادثة هي بلا شك ، صورة لما كانت عليه لهجات القبائل العربية في العصور الجاهلية الأولى ، ولما كانت تمتاز به لهجة قبيلة عن لهجة قبيلة أخرى ؛ ولكن حينما بدأت هذه القبائل تتصل ببعضها ، وأخذت لهجاتها يحكم هذا الاتصال تقارب ، نشأ فيما نعتقد ، ما يشبه أن يكون لغة عامة يشترك جميع القبائل في التفاهم بها وإن انفردت كل قبيلة بلهجتها الخاصة ؛ هذه اللهجة أو هذه اللغة كانت ممثلة في لهجة قريش التي سادت شبه الجزيرة العربية بمكانتها الدينية ، والاقتصادية ، والاجتماعية .

هذه اللهجة الموحدة لم تنضج ولم تتسع إلا على حساب اللهجات الأخرى ، أى أنها أخذت من اللهجات العربية ما تستحسنه من الألفاظ والتراكيب ، وطرق الأداء ؛ ثم مزجت ذلك كله ، وأبرزته في صورة لغة موحدة .

وإذن فإننا نزعم أن أكثر ما في اللغة العربية على الأقل من مترادفات ، ومن طرق متنوعة لبيان معنى الواحد ، ومن أساليب إعرابية متعددة لنفس التركيب الواحد ، إن هو إلا أثر من آثار تلك اللهجات العربية التي أخذته لهجة قريش وأضافته إلى ما كان فيها من

ألفاظ وأساليب .

وإن نظرة إلى النص القرآني ، وما فيه من مفردات كانت تختص
بقبائل أخرى غير قبيلة قريش لسيرنا إلى أي حد كانت تستمد ألفاظاً من
اللهجات الأخرى ، وإلى أي حد كانت لغة القرآن صدى للهجات العرب
جميعاً . وقد لفتت هذه الظاهرة في نص القرآن نظر علماء الإسلام
فكتب بعضهم في هذا وحاول أن يشير إلى ما في القرآن من
ألفاظ غير قرشية ، ثم عزا كل لفظ من هذه الألفاظ إلى القبيلة التي هو
مأخوذ منها . (١)

(١) انظر كتاب اللغات في القرآن أخبر به اسماعيل بن عمرو المقرئ
عن عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ بإسناده إلى ابن عباس

تحقيق ونشر صلاح الدين المنجد

وقد ذكر صاحب هذا الكتاب مجموعة من الألفاظ الخاصة بالقبائل العربية
ونسب كل لفظ إلى القبيلة التي تنطق به ؛ ثم إنه قد ذكر الألفاظ الواردة
في القرآن والخاصة بقبيلة قريش دون أن يشركها فيها غيرها .
والألفاظ المذكورة في هذا الكتاب تدل على مبلغ ما جاء في القرآن
من لهجات القبائل المختلفة لا فرق بين شمال شبه الجزيرة العربية وجنوبها
ولا بين شرقيها وغربيها وإليك أسماء القبائل التي أخذ القرآن من ألفاظها :
قريش ، هذيل ، كنانة ، حمير ، جرهم ، تميم ، قيس عيلان ،
جشم ، أزد شنوءه ، أهل عمان ، طيء ، مذحج ، مدين ، غسان ،
بنو حنيفة ، حضرموت ، أشعر ، أنمار ، خزاعة ، بني عامر ، لحم ، =

كندة ، سبأ ، أهل العامه ، مزينة ، ثقيف ، سدوس ، سعد
العشيرة ، العالقة ، عذرة ، الأزرد ، تغلب ، الأوس ، همدان .
ونجد في الصفحات الأولى من هذا الكتاب جدولاً يذكر اسم هذه
القبائل ويشير إلى عدد الألفاظ التي أخذت من كل قبيلة :

عدد الألفاظ	اسم القبيلة
١٠٤	قريش
٤٥	همداني
٢٦	كنانة
٢٣	حضير
٢١	جرهم
١٣	تميم ، قيس عيلان
٦	أهل عمان ، أزدشنوءه ، خثعم
٥	طلي ، مذحج ، مدين ، غسان
٤	بنو حنيفة ، حضرموت ، أشعر
٣	أهمار
٢	خزاعة ، بنو غامر لحم كندة
	سبأ ، أهل العامه ، مزينة ، ثقيف ، العالقة ، سدوس ، سعد العشيره

ويؤكد هذا الفرض الذي افترضناه بالنسبة للغة العرب ما حدث بالنسبة للغة اليونانية ، ولغة اللاتينيين ، ثم للغة الفرنسيين من حيث وجود مفردات متعددة لمعنى واحد بعد أن توحد لهجاتها في لغة واحدة ، ومن حيث وجود التردد في التذكير والتأنيث لبعض الالفاظ ومن حيث وجود الطرق المختلفة للتعبير عن الفكرة الواحدة . ولدينا أمثلة عديدة لكل هذا في كل من هذه اللغات الثلاث ؛ ولولا أن ذلك يغدنا عن بحثنا ، ويطيل ما لجسأنا إليه مضطرين من استطراد لا يتنا على الكثير منها .

والآن بعد كلامنا على اللغة وما يتصل بها نوجه همنا إلى الكلام على النحو وما يتصل به .



نشأة النحو العربي

لستنا نبغى من وراء هذا البحث أن نتناول النحو العربي كما تفاهم عليه العلماء أو كما نجد مدوناً في كتبهم وإنما سنذهب إلى الوراثة البعيدة ، ونتناول النحو تناولاً لم يعهد حتى الآن ؛ فنبين حقيقة ؛ ونذكر موضعه من اللغة ؛ ونشرح الصلة بينهما على ضوء نشأة كل منهما وإذن فما لاشك فيه أن النحو العربي كغيره من سائر العلوم الأخرى ؛ قد نشأ فناً قبل أن يكون علماً ؛ أي أن هذه الطرق الخاصة للأداء في اللغة العربية قد التزمت باطراد في تراكيبها وأصاليها وصارت عليها أسنة العرب وتمكنت من طبائعهم قبل أن توضع لها القواعد النحوية المجردة وضعاً علمياً وتدرس دراسة مستقلة لتعرف وتحتذى .

وإذن فنحن أمام نحويين إن صح هذا التعبير ؛ نحو فنى ؛ ونحو علمي . أما النحو الفنى فهو جزء من اللغة وعنصر أساسى من عناصر تكوينها كأمة مهذبة راقية ؛ وهو فى نشأته فى اللغة يكاد يكون فطرياً وإن كان الأساس فى وجوده هو المجهود العقلى . فإن اللغة بعد أن تتجاوز مرحلة الطفولة ؛ ويبدأ العقل يتصرف فيها من حيث الاشتقاق ، والنحت ؛ والتصريف ، ثم من حيث التراكيب ووضع الضوابط المميزة بين هذه

التراكيب بالنسبة لأدائها اللغوي : نجد نفسها مضطرة بحكم مسيرتها لظروف المجتمع إلى التزام بعض الضوابط لتمييز بعض التراكيب عن بعض ، وللمعرفة وظيفة كل لفظ بالنسبة لموقعه من الجملة . هذه الضوابط في صورتها الأولى هي عبارة عن النحو الفني .

وهو كسائر الفنون يسبق النحو العلمي ؛ ففن الهندسة أو الهندسة العملية وجدت قبل أن يوجد علم الهندسة ؛ وفن النحت وجد قبل أن توجد النظريات العلمية له . وفن الموسيقى وجد قبل أن تسجل نظرياتها العلمية . ولا يزال نرى في التطبيقات العامة من الشعوب فنانيين قبل أن يدرسوا هذه الفنون أو يتلقوا نظرياتها عن أساتذة أو في معاهد خاصة . فهناك الموسيقيون وهم لا يعرفون شيئاً عن علم الموسيقى ، وهناك البنائون وهم لا يعرفون شيئاً عن النظريات العلمية في العمارة . وهناك الزارعون وهم لا يدرسون شيئاً عن مسائل الزراعة ، بل وهناك الأطباء وهم لا يؤدون شيئاً عن علم التشريح . وهكذا لو استعرضنا تاريخ الشعوب وتاريخ حضاراتهم لوجدنا أنهم كانوا في كل شيء فنانيين قبل أن يكونوا علماء ، وأن مظاهر الفن قد سبقت نظريات العلم . وعلى هذا فإن اللغة كما ذكرنا منذ قليل حينما تدخل في دور النمو في الألفاظ والتوسع في التعبير يبدأ العقل الاجتماعي في وضع ضوابط يمكن بها تمييز المعاني بعضها عن بعض ، ويسهل بواسطتها فهم الأساليب العديدة المتنوعة ، والنحو الفني وإن لم يصاحب اللغة من يوم نشأتها

إلا أنه يلازمها من يوم نموها ولا ينفصل عنها مادامت هي في سبيل الحياة
ومن هنا كان ذلك النحو واحداً في كل اللغات لا يختلف في لغة عنه في لغة
أخرى إلا بمقدار ما تختلف لغة عن لغة أخرى في أفعالها ودلالاتها وخواص
تراكيبها .

ومن هنا أيضاً كانت نشأة ذلك النحو طبيعية في كل لغة قدر لها أن
تكون لغة أدب وعلم وفن .

ولعل القراء يتساءلون الآن عن تاريخ ذلك النحو الفني ، وعن الحالة
التي كان عليها في عهده الأول ، وعن الظاهرة الأولى التي بدت لتكون بمثابة اللبنة في
بناء تلك الضوابط النحوية العملية ؛ ونحن نقرر أنه ليس من السهل أن نجيب
عن هذه الأسئلة ، إذ الفرق بعيد جداً بين تأريخ الفنون وتأريخ العلوم
فالن جزء من الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صدى للإحساسات ؛
والإحساسات قديمة النشأة في الإنسان ، دقيقة التكوين فيه . أما العلم
فهو تجريد أو وصف لما تمتاز به الماهية ، وهو إلى حد بعيد يعتبر صدى
للعقل ؛ والنقل يحىء بعد مرحلة تكوين الإحساس .

ومن هنا كان تأريخ الفن تأريخاً حقيقياً من المسائل الشعبة بل من
المشكلات ؛ أما تأريخ العلم فسهل ميسور متى عرفت ظروفه وجمعت وثائقه . وإن من
يدعى تأريخ الفن بهذا الاعتبار الدقيق كمن يدعى معرفة أول بيت بني على
الأرض ، وأول نبت نبت فيها ؛ وذلك وهم وخيال .
وإذن فكل محاولة لتأريخ النحو بمعناه الفني تعتبر محاولة عابثة ؛ غير

نستطيع أن ننظر في تلك الضوابط النحوية التي تميز تراكييب اللغة ،
طابع أن نستعرضها في مجموعها لنقارن بين ظواهرها المختلفة في الكلام ،
ألفاظ تلزم حالة واحدة في النطق مما تغير موضعها في الجملة كالمبنيات ،
ألفاظ تتغير بتغير التراكييب كالمعربات ؛ ثم من هذه الألفاظ المتغيرة
تغير بالحركات فقط كالرفع ، والنصب ، والجرم ، والجر ، ومنها ما يكون
التغير فيها بواسطة الحروف كالألف ، والواو ، والياء ، والنون ،
وعلى ضوء ذلك النظر ، وهذه المقارنة نستطيع أن نقرر ولو على
مل الإقراض أن بعض هذه الظواهر كان أسبق من بعضها الآخر ،
بعضها قد تطور من حالة إلى أخرى بينما التزم البعض الآخر نفس
التي أتت عرف بها منذ القدم .

وقبل أن ندخل في تفصيل الكلام عن هذه الظواهر الفنية في تراكييب
اللغة العربية نحب أن نذكر أولاً أننا نستبعد تماماً أن تكون اللغة العربية
وجدت أول ما وجدت وفيها تلك الظواهر الفنية ، أو أن تكون
عرفت أول ما عرفت وهي متميزة بضوابط الإعراب المختلفة . وليس
بأن نمضي في الاستدلال على صحة ما ذهبنا إليه ، ففساد العكس
يدعي ؛ وسيكون لنا في هذا الموضوع كلام آخر .

وعلى هذا فإننا نتناول الآن بعض ما يبدو لنا من ملاحظات على
بيعة هذه الظواهر ، وما يمكن أن يصل إليه من نتائج .

كما أن حالة الإفراد في اللمعة ، على ضوء ما تقدم من ملاحظات
تسبب حالة الجمع ، لتتبع أن تقول ونحن مطمئنون أن حالة الإعراب
بواسطة الحركات من رفع ونصب وجر قد سبقت حالة الإعراب بالحروف
من ألف وواو وياء ونون ؛ وليس أدل على ذلك من الإبقاء على الإعراب
بتلك الحركات مع وجود هذه الحروف وذلك في بعض اللمجات كأن
يقال مثلاً :

جاء الزيدان ، ورأيت الزيدان ، وصررت بالزيدان .

رفع النون في الأول ، ونصبها في الثاني ، وجرها في الثالث ؛ وعلى هذه
المهجة ورد البيت الذي تقدمت الإشارة إليه منذ قليل :

يا أبنيا أرقى القندان هـ فالنوم لا تطممه الصينان

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الإمام الشنقيطي عن الشيباني من ورود هذا
المثال : هما خليلان ، بالتزام ألف التثنية وضم النون .^(١) ومن هذا
الباب أيضاً ما سمع من السيدة فاطمة رضي الله عنها — يا حسنان
ويا حسيدان — ؛ وقد قيل إن ضم النون في هذه الأمثلة وما شابهها لغة
عن بعض القبائل .

ومن ذلك أيضاً ما ورد من الإعراب بالحركات في الجمع وملحقاته مع

(١) — الدرر اللوامع على جمع الهوامع للشنقيطي ج ٦ ص ٢٢

وجود الحروف وهي لهجة لبعض بني ثميم وبني عامر ؛ إذ كانوا يلزمون الياء للجمع ويبتقون على الإعراب بالحركات مثل بيت الشعر لجري ، الذي ذكرناه فيما مضى من قصيدة يهجو بها الفرزدق :

أرى من السنين أخذن مني * كما أخذ السرار من الهلال ⁽¹⁾
ومثل هذا البيت وهو فيما يظهر لشاعر من خزاعة أو من جرهم كما تقدمت الإشارة إلى ذلك .

ألم نسق الحجاج سلبى معدا * سنيناً ما تعد لنا حساباً ⁽²⁾
ومثل هذا البيت أيضاً :

رب حى عزندس نى طلال * لا يزالون ضاربين القباب ⁽³⁾
ويمكن الاستدلال على صحة هذه النظرية (الإعراب بالحركات ووجد قبل أن يوجد الإعراب بالحروف) بما يأتي :

أولاً :- البسيط يسبق المركب ، والإعراب بالحركات بمثابة البسيط والإعراب بالحروف بمثابة المركب .

ثانياً :- الإعراب بالحروف وجد في ألفاظ لا يمكن أن تكون قد وجدت واللغة في حالتها الأولى ، فالمثنى والجمع وجداً حتماً بعد الألفاظ المفردة ، ووجودهما يدل على تطور في اللغة ، ويتبع ذلك أن علامات إعرابها قد وجدت بعد علامات إعراب المفردات .

ثالثاً :- ما جاء في بعض اللهجات من شواهد وأمثلة فيها علامات

(1) انظر شرح همع الهوامع ج ١ ص ٢٠٤

(2) المصدر السابق . عزندس = شديد ، طلال = الحالة الحسنة ، ضاربين ضاربين ضاربي القباب

الإعراب بالحركات مع وجود الحروف ، وقد تقدمت طائفة كبيرة من تلك الشواهد ، ويمكن العثور على مئات منها مبعثراً في كتب اللغة والنحو .

رابعاً : - النسبية فيما نجده في اللغة معسراً بالحروف بحساب ما هو معرب بالحركات ، فلقد جمع النحاة ما هو معرب بالحروف فيما يأتي : -

الأفعال الخمسة : يفعلون ، وتفعلون ، ويفعلان ، وتفعلان ، وتفعلين .

والأسماء الستة : أبوك ، وأخوك ، وحموك ، وقوك ، وهنوك ، وذو مال .

ثم المثني ؛ والجمع للمذكر السالم ، وما ألحق بهما .

وهذه الأنواع الأربعة يمكن أن ترجع إلى نوعين اثنين هما المثني والجمع .

أما الأفعال الخمسة فيمكن أن تلحق بالمثني والجمع إذ أنها صور منها . وكذلك الأسماء الستة فهي إما أن تكون حروفها امتداداً لحركات الإعراب الحقيقية الموجودة على الحروف السابقة ؛ وإما أن تكون مضافة ، أي مركبة ؛ فتلحق بالمثني أو بالجمع من حيث إضافة شيء جديد إلى الاسم في حالته الأولى ، وهي إذا قطعت عن الإضافة رجعت إلى الإعراب بالحركات كالمثني والجمع إذا رجعت كل منها إلى حالة الأفراد .

وعلى هذا فإلزامه تبدو واضحة ؛ إذ أننا لا نجد ما يعرب بالحروف على هذا الاعتبار سوى المثني والجمع وما بقي فهو ملحق بهما ، ولنا في صنيع النحاة وفي اصطلاحهم تأييد لما ذهبنا إليه ، فقد قالوا إن هذه الحروف في تلك الأنواع التي تعرب بها ليست إلا نياحة عن حركات الإعراب .

وهناك ملاحظة أخرى تتصل بهذه الحروف التي نابت عن الحركات في الإعراب ؛ ذلك أننا نرجح أن الإعراب بهذه الحروف من واو ونون ، ومن ياء ونون ، ومن ألف ونون لم يوجد كذلك مرة واحدة ، ولم تلزم طرق الأداء به من أول الأمر بهذه الصورة التي نراها الآن ، وإنما يوجد الحرف الأول وهو الألف أو الواو أو الياء ، وسارت اللغة على ذلك مدة من الزمن ، ثم التزمت النون بعد ذلك .

ولنا على هذا ما نجد مثلاً في اللغة اللاتينية ، قبيل أن تستقر فيها علامات الإعراب وتلزم طريقة خاصة ؛ فقد كانت بعض العلامات الإعرابية المكونة من حرفين فأكثر غير مستقرة على نظام ، وغير كاملة العدد بالنسبة للحروف التي نراها مكونة لعلامات الإعراب بعد أن شمل اللغة نظام واحد من الإعراب ، وينكاد يكون هذا طبيعياً في تطور اللغة ، فالسكال مسبوق بنقصان ، وستعرض بعد قليل لكثير من الأمثلة في اللغة اللاتينية يتضح منها حالة تلك العلامات الإعرابية قبل أن تأخذ وضعها النهائي .

وعما يمكن الاستدلال به على هذا في اللغة العربية هو ما نراه في بعض اللهجات من أمثلة وشواهد ، وحاول النحاة أن يوجدوا لها تخریجاً أو تعلیلاً كدأبهم في كل ما يتناقى مع قواعدهم أو يشذ عنها .
وهذه بعض الأمثلة كما نراها في كتب النحو واللغة :-

ها خطنا إما إسارٍ ومنةٍ ، وإما دمٍ والقتل بالحر أجدر

وقد ورد هذا البيت ضمن أبيات في حياصة أبي تمام ، وقد استشهد به النحاة على أن النون في «خطتان» قد حذفت للإضافة المقبرة ، وراحوا يتأولون هذا المضاف المحذوف ، ورأى فريق منهم أن المضاف إليه هو إسمار . وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه بـ إما .

وأما ابن جنى فإنه يرى رفع «إسمار» ويستجوده .^(١)

ومعنى هذا أنه يقصر حذف النون من المثني مع عدم الإضافة إلى كلمة «إسمار» ، وأصرح من هذا ما ذكره البغدادي من أن هذا الشاهد وأمثاله قد جاء بلغة من يحذف نون التثنية من القبائل دون أن يكون هناك ما يستدعي حذفها كالإضافة .

وقد ذكر من ذلك أمثلة شعرية وأخرى ثرية تؤيد وجود هذه اللغة عند العرب . ومن ذلك أيضاً هذا البيت :-

خليلي ما إن أتتبا الصادقا هوي « إذا خفتما فيه عدولا وواشيا

وقد علل النحاة حذف النون من «الصادقان» للاقتصار ، ولم يشيروا مطلقاً إلى احتمال أن تكون هذه هي الحالة الأولى لطريقة الأداء في التعبير بالمثني أو الجمع ، وذلك بالرغم من تعليلهم أحياناً ما يروونه من شذوذ على القواعد النحوية بأنه قد جاء على لغة قبيلة كذا ، أو بلهجة قبيلة كذا

(١) - شرح مجمع الزوامع ج (٢٢ ص ٢٢)

وكأنهم بهذا يفهمون أن اللغة وجدت كاملة ناضجة لم تتعثر في طريق تكوينها ، وأن النحو وطرق الأداء كما يتصورونها قد نشأت تامة شاملة ، وفي دفعة واحدة ، وظاهر جداً أن عدم تروى النحاة في المسألة ، أو عدم تنبيههم إلى تلك المراحل الطويلة التي مرت بها اللغة والنحو ، وهما في طريق التكوين ، قد جعلهم يتفنون في التعديلات ، ويمعنون في التخريج ، حتى ولو كان ذلك على حساب المعنى في الجمل والتراكيب ، بل إنهم قد يتغاضون عن المعنى أحياناً ؛ ويلجئون إلى تأويلات قد تضره أو تفسده .

ولهم في ذلك مواقف عدة يظهر منها ~~تمسكهم~~ الشديد بحرفية القواعد التي وضعوها أو تلقوها ؛ من هذه المواقف ما نجده في بعض الشواهد الأدبية وطريقة تحكيمهم في فهمها ، وفي بعض الآيات القرآنية ومحاولتهم فرض قواعدهم على قراءتها ، وتحفظه القراء إن هم أخلوا بتلك القواعد ، على أنه ينبغي أن نختار في هذا الحكم بالنسبة للنحاة فلا نتهمهم جميعاً بهذا الجور في التفكير ، والصلابة في تطبيق القواعد ، إذ أن منهم وهم أوائل النحاة ، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد وسيبويه والقراء من كانت درايته باللغة واسعة ، وذوقه في إدراكها سليم .

وكتاب سيبويه يشتمل على أمثلة عدة تبين إلى أي حد كان مؤلفه يحتمل إلى اللغة لا إلى القواعد النحوية ، وينفذ إلى طبيعتها وطبيعة الناطقين بها وظروف المعاني التي قصد بها التعبير عنها ، دون أن يتقف عند شكلها الظاهري

وملاحظتها المنطقية ، التي كثيرا ما تتنافى مع طبيعتها نشأتها وتطورها ، من ذلك ما نجده له عندما يجانب النحو وضوابطه ويتكلم عن اللغة من حيث أداؤها المعاني ، فيناقش الحماة مناقشة المدرس لأسرارها البلاغية ، ولتقتضيات ظروفها وأحوال الناطق بها .

ومن ذلك أيضاً ما نراه عندما يناقش مسألة نصب بعض الأسماء دون أن يكون في الكلام فعل ظاهري يعمل فيه ، فإنه يفهم النصب على أنه من طبيعة الاستعمال العربي ، لا على أن الضوابط النحوية هي التي أدت إلى هذا .

يقول سيبويه^(١) في هذا : ((وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام ؛ ولعلم المخاطب أنه محمول على أمر ؛ ونظير ذلك قولك : انته يا فلان أمراً قاصداً ، إنما أردت انته وآت أمراً قاصداً ، إلا أن هذا يجوز لك فيه إظهار الفعل ، ومثل ذلك قول القمامي :

فسكرت تبتغيه فوافقته • على دمه ومصرعه السباعا

ومثله قول ابن الرقيات :

إن تراها ولو تأملت إلا • ولها في مفارق الرأس طيبا

وإنما نصب هذا لأنه حين قال ووافقته وقال إن تراها فقد علم أن الطيب والسباع قد دخلا في الرؤية والموافقة وأنها قد اشتملا على ما بعدها

(١) - سيبويه - الكتاب ج ١ ص ١٤٣

في المعنى ، ومثل ذلك قول ابن قسيمة :

تذكرت أرضاً بها أهلها = أخوالها فيها وأعمالها

لأن الأخوال والأعمال قد دخلوا في التذكير . ومثل ذلك فيما زعم

الخليل :

إذا تغنى الحمام الورق هيمني * ولو تغربت عنها أم عمار

قال الخليل : لما قال هيمني عرف أنه قد كان ثم تذكر لتذكرة الحمام
وتسببه فالتى ذلك الذي قد عرف منه على أم عمار كأنه قال : هيمني فذكرني
أم عمار ((. إن طريقه هذين العالمين الجليلين في تحليل هذه الشواهد ،
ومناقشتها وفهمها تدل على مبلغ تحررها من القواعد الجسافة ، التي ألفنا
وجودها عند من جاء بعد ذلك من النحاة وتربنا من ناحية أخرى أن أهم
العوامل في علامات الإعراب المختلفة إنما هو المعنى الذي يريد العرabi أن
يعبر عنه . وبجانب سيبويه وأستاذه الخليل نجد الفراء يسلك نفس السبيل
في فهم الأساليب العربية ؛ سواء ما كان منها في الأدب أم في القرآن .

وموافقه في ذلك عديدة ومشهوره في كتابه - معاني القرآن - الذي لا
يزال مخطوطاً حتى الآن . وإن من يطلع على هذا المخطوط يستطيع أن
يلاحظ بوجه عام أن الفراء في تحليله للأساليب ، وفي تعليقه للضوابط الإعرابية
يركز إلى طبيعة العرabi ، وحسه في استعمال اللغة ثم إلى حسه هو في فهمها ؛ فهو تحليل
يتلاءم مع أولى المراحل العلمية في اللغة يوم أن كانت قريبة جداً من النقاء ولا دخل

للصنعة المنطقية فيها ، ومن أمثلة ذلك تحليله للفرق في المعنى بين إضافة اسم
الفاعل إلى مفعوله ، ونصبه له ، فهو يقول إن الإضافة تفيد معنى المضي في
الحدث ، والنصب يفيد معنى الحالى . وذلك عند شرحه لقوله تعالى : هل
عن كاشفات خبره ،^(١) .

ولقد تنبه إلى هذا الأمر أيضا بعض من تصدى لدراسة اللغة وآثارها
من غير النحاة الخالص ، وخصم مداركه فهم كمها وآثارها على المبرد الذى لم
يكن شديد الثقة بالنحاة ، ولم يحسب يتخرج من تخطئهم ، والتصريح بعدم
مقدرتهم على فهم أسرار التراكيب ، إذ أنهم كانوا شريدى الحرص على
ظاهر التركيب ، وحرافية القواعد .

من ذلك قوله : من الآيات التى ربما يفلط فى مجازها التحويون قول الله
تعالى : فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، والشهر لا يغيب عنه ، ومجاز الآية :
فمن كان منكم شاهداً ببلدة فى الشهر فليصمه ، والمؤيد : فمن كان شاهداً فى
شهر رمضان فليصمه ، ونصب الشهر للظرف لا نصب المفعول^(٢) . ويضاف
إلى ذلك أيضاً ما تراه من موقف الألوسى فى تفسيره^(٣) .

وفى المقرب للمطري ، أن النحاة زعموا أن العرب أماتت ماضى (يدع)

(١) - أنظر ص ١٦ من المخطوط سطر ١٢ .

(٢) فقه اللغة للثعالبي ج ٢ = ٥٤٦ طبعة مصطفى محمد ١٩٣٣

(٣) ١٥٦ / ٣٠ / روح المعاني - حموده ص ١٤٤

والذي صلى الله عليه وسلم أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام « لينتهين
أقوام عن ودعهم الجماعات » . وقرأ صلى الله عليه وسلم « ما ودعك »
بالتخفيف .

وقال أبو الأسود الدؤلي :

لبت شعري من خليلي ما الذي « غاله في الحب حتى ودعه

وهو دليل على استعمال ودع بمعنى ترك .

وفي الحديث « اتركوا الترك ما تركوكم ودعوا الحبشة ما ودعوكم » (١)

والعل أوضح ما يستشهد به على ذلك هو تأويلاتهم الغربية في بابي

الاشتغال والتنازع ، فإنهم هنا كثيراً ، ما يضربون صفحاً عن سر التراكيب

اللغوية لكي يقوموا بقواعدهم التي وضعوها ، ويتمشوا مع مبادئهم التي

افترضوها ، من وجوب وجود العامل لكل معمول يبدو ظاهراً في الكلام

وامتناع أن يعمل العامل الظاهر في ذلك المعمول بحجة أنه شغل عنه بالعمل

(١) ثم يمضي الأستاذ حموده في سرد شواهد أخرى وأدلة أخرى على مفالة

النحاة وتقديسهم لقواعدهم مع عدم بصرهم بالعربية كما يجب ص ١٤٤ - ص ١٤٩ ؛

وقد يبدو في كثير من المواقف أن المؤلف متحامل على النحاة ولكن تحامله

لا يلبث إلا أن يكون تعبيراً عن الواقع حينما نرى آراء النحاة بالنسبة لقراءات

القرآن وتخطئهم للقراء كلما لمسوا فيهم مجافاة لقواعد النحو التي هي من صنيعهم

دون أن ينظروا إلى كل اللهجات العربية نظرة دقيقة شاملة .

في الضمير ، وكان المسألة في نظرهم عملية حسابية ، أو نظرية قياسية منطقية ، دون أن يكون للمعنى الذي في نفس المتكلم أثر في التعبير . وكتب النحو في هذين البابين تذكر أمثلة عدة من هذه التأويلات ؛ منها ما هو مأخوذ من الشواهد الأدبية ، ومنها ما هو مأخوذ من النصوص الديلية ؛ وليس لنا أن نتناول جميع ما ذكره من شواهد لتناقضهم فيها وبين وجهة نظرنا بالنسبة لأرائهم ، وإسكتنا نكتي بآية قرآنية واحدة نستعرض فيها وجهة نظرهم ، ثم نشرح وجهة نظرنا لكي يتبين للقراء مدى تصور النحاة لأساليب اللغة ، ومبلغ تمسكهم بحرفية مقاييسهم ولو كان ذلك على حساب المعنى وبلاغة التركيب . هذه الآية هي قوله تعالى « والأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ » ؛ ورأى النحاة فيها واضح معروف ، فهم يقررون أن الأَنْعَامَ مفعول لفعل مخلوف يفسره المذكور ، وهو خلق ؛ ولا يصح أن يعمل هذا الفعل المذكور في الأَنْعَامَ لأنه شغل بالعمل في ضمير الأَنْعَامَ ؛ وإذن فلا بد من تقدير عامل آخر لكي يبرر العمل في لفظ الأَنْعَامَ ، وهذا العامل في تقديرهم هو من لفظ « خلق » المذكور .

هذه هي وجهة نظرهم ، ونحن لو سايرناهم في هذا لكان تركيب الآية هو « وخلق الأَنْعَامَ خلقها لكم . . . » ، ونحن نترك الركة اللفظية مؤقتاً ولا نعرض بها عليهم لأنهم يستطيعون الدفاع عنها بأن الفعل واجب الاستمرار فلا يمكن أن يظهر ، وبالتالي لا تظهر الركة اللفظية ونحاول أن نناقش الآية من ناحية المعنى بالنسبة لتقديرهم ؛ إن الآية في اعتبارهم تؤدي إلى تأكيد الخلق فيكون اهتمامها الأول موجهاً إلى هذه العملية وهي خلق الأَنْعَامَ ، بينما الأَنْعَامَ نفسها وهي نتيجة عملية الخلق تصبح في الدرجة

الثانية من العناية والاهتمام . ونحن لا نظن أن القرآن في هذا التركيب قد
قصد إلى ذلك ، ويستبعد أن يكون اهتمامه موجهاً إلى الخلق لا إلى الأنعام .
ثم كيف يمكن أن يفهم التأكيد لعملية الخلق واللفظ لم يذكر صراحة
في صدر التركيب ؟ وكيف يمكن أن يفهم ذلك أيضاً والآية كلها تؤكد
وتلمح في التأكيد بالنسبة للأنعام ؟ وهذا التأكيد يبدو واضحاً في تصدرها
وفي عود ضمائر أربعة عليها : الأول في « خلقها » ، والثاني في « فيها »
والثالث في « ومنها » ، والرابع في « ولكم فيها جمال » ، وفي شحن الآية
بصفات من خواصها : « ذفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين
تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا
بشيء الأنفس » .

من كل ذلك يظهر جلياً أن الآية شديدة الاهتمام بالأنعام لا بعملية
الخلق فيها ؛ ولكن العناية - سبحانه الله - قد جازت المعنى وبلاغته التركيبية
وتسكوا بحرفية قواعدهم ، وبمطابق مقاييسهم فجاءت تأويلاتهم ك نرى
في هذه الآية .

وعلى ضوء هذا نقرر أننا لا نمانع ولا نجد غموضاً في أن يكون لفظ
الأنعام مفعولاً متقدماً للفظ خلق المذكور ، وأن تقديمه على الفعل قد جاء
لغرض بلاغي كما تقدم ؛ ولا نجد غموضاً أيضاً في أن يكون الضمير
المتصل بخلق ؛ والذي أوجد الإشكال في نظر العناية فمنعهم من نصيب

الإتمام بلفظ خالق المشغول بالضمير ، نقول إننا لا نجد غضاظة أيضاً في أن يكون هذا الضمير تأكيداً للفظ الإتمام ؛ إذ المسألة لا تخرج بهذا عن دائرة بعض التعبيرات اللغوية مثل : جاء زيد هو . ولهذا التركيب نظائر في اللغات الأخرى كاللاتينية والفرنسية ؛ ففي اللاتينية نجد الضمير *ipse - idem* يذكران في الجملة أو يذكر أحدهما ، ويقصد منهما التأكيد إن كان المؤكد مذكوراً في الكلام ، ويتبعانه في حالة الأعراب ، والعامل في الشكل واحد ؛ ويحذفان محله إن لم يكن مذكوراً في الكلام .

وتعود بعد هذا إلى ما نحن بصدده فنقول : إنه مما يمكن الاستشهاد به أيضاً على حذف النون من المثني والإبقاء على الألف فقط قول الأخطل من قصيدة يفتخر فيها بقومه وهجر جريراً^(١) .

أبني كليب إن عبي اللذان * قتلوا الملوك وفككا الأغلالا

فقد حذف النون من « اللذان » وأبقى على الألف فقط .

وقوله أيضاً :

هما اللتان لو ولدت تميم * لقليل فتمس لهم صميم

فقد حذف النون كذلك من « اللتان » واقتصرت على الألف .

١ - شرح همع الهوامع ج ١ ص ٢٣ . يقصد الأخطل بعصيه عمراً ومرة ابني ككثوم ، فإن عمراً قتل عمرو بن هند ملك العرب ، ومرة قتل المنذر بن النعمان ابن المنذر .

وهي ذى أيضاً لبعض الأمثلة للجمع الذي حذف منه النون واكتفى
بالحرف السابق لها سواء أكان ذلك الحرف واوا أم ياء :
فقال الواوي ما دحكتره عمرو بن امرئ القيس الخزرجي ، وهو جده
عند الله بن رواحة ، وقد مات قبل الإسلام :

والحافظون عورة العشيبة لا ، يأتيهم من ورائنا ويكتشف (١)
فقد روى بفتح عورة على أنها مفعول لاسم الفاعل قبلها ، وحذفت
النون من « الحافظون » وهذا البيت وإن كان قد روى بكسر « عورة »
أحياناً لتجويد حذف النون للإضافة ، إلا أنه يكتفينا للدلالة على ما
نحن بصدده أن يكتفون قد روى أيضاً بضم « عورة » دون أن
تخطأ هذه الرواية .

ومن ذلك أيضاً :

عشوم حين ينقذ مستفاد « وخير الطالبي النزة العشوم (٢)
وهذا البيت كالبيت السابق ، غير أن البيت الأول كان لفظ الجمع
في حالة الرفع ، فاستبقى الواو ، والبيت الثاني لفظ الجمع فيه في حالة الجر
فاستبقى الياء وحذف النون .

ومن ذلك أيضاً حذف النون في الاسم الموصول للجمع في بيت للأشهب
بن رميلة (٣)

إن الذي حانت بفلج دماؤهم « هم القوم كل القوم يا أم خالد

(١) - الوكيف : العيب والإثم .

(٢) جمع الهوامح للسيوطي ص ٤٩ - شرح معجم الهوامح للشنقيطي ج ١ ص ٢٤

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٤ الفلج = اسم موضع

ربما يبدو للمساريء منا أيضاً إنما أطلنا في ذكر الأمثلة والشواهد ، وفي تحليلها والتعليق عليها ، واجمعنا قصدنا إلى ذلك قصد المرى صراحة واضحة عن مظهر الإعراب بالحروف عند العرب ، ومبلغ ما كان هناك من اضطراب في هذه المظهر ، ولكي نثبت من وراء ذلك ما ذهبنا إليه من ملاحظات .

وقبل أن نترك هذا الميدان نجب كذلك أن نعرض موقف النحاة من هذه الشواهد وأمثالها حتى تبين روحهم في فهم الأساليب العربية القديمة ، وكيف كانوا خاضعين لقواعدهم بالنسبة لتلك الشواهد . وإليكم مثلاً من أمثلة تعليقات النحاة يوضح موقفنا منهم ، ويزيدنا ثقة من أنهم لم ينظروا إلى اللغة العربية ككائن حي ينشأ صغيراً غير واضح المعالم ، ولا يفصل الأجزاء ، ثم ينمو وتبين أجزاؤه ، وأخيراً يكبر مع الزمن ، ويصل إلى درجة الكمال .

لاحظ النحاة أن البصريين والكوفيين متفقون على جواز حذف النون من الأسماء الموصولة ، سواء أكان ذلك في حالة التثنية أم في حالة الجمع ، وقد اختلفوا بعد ذلك في تعليل هذا الحذف فذهب البصريون إلى أنها تحذف لاستطالة الأسماء الموصولة بالصلة بعدها . ورأى الكوفيون أنها تحذف مطلقاً سواء أطالت الصلة أم قصرت ، إذ أن حذفها عندهم بناء عن

لغة فيها ، وهذا صحيح . فإن بنى المسارث بن كعب وبعض بنى ربيعة كانوا يحذفون النون من الأسماء الموصولة في حالتى التثنية والجمع^(١) . وحينما جاء هذا على لسان بعض الشعراء في غير الأسماء الموصولة من الأمثلة التى تقدم ذكرها حاول النحاة أن يعللوا هذا الحذف الذى خرج عن قواعدهم النحوية : فقالوا إن النون قد حذفت فى الأمثلة المتقدمة تشبيهاً لها بالأمثلة الموصولة . إذ أنها صفات وصلت « بأل » الموصولة . ونحن قال بذلك صراحة ابن جنى^(٢) . ولكن حينما وجدوا هذا الحذف وارداً أيضاً فى ألفاظ لا صلة لها بالمتة بالأسماء الموصولة مثل :

أقول لصاحبي لما بدالى معالم منهما وهما نجيبا

بدل « نجيبان » ومثل :

لو كنتم منجدي حين استعنتكم لم تعدموا ساعداً منى ولا عضداً

نقول إنهم حينما وجدوا الحذف هنا لم يجدوا مخلصاً لهم سوى أن يلجئوا إلى ضرورات الشعر . ومع ذلك فماذا عساهم يقولون حينما نورد لهم هذا المثال العربى القديم فيما حكاه العرب عن لسان الحجة نخاطب القلابة :

بيضك ثلثنا وبيضى مائتا

أى بيضك ثلثان وبيضى مائتان^(٣)

(١) ، (٢) شرح شعاع الهوامع للشهقيطى ج ١ ص ٢٢-٢٣

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٢٢

فلم يكن ذلك من الأسماء الموصولة . ولم يكن كذلك بما يشبه الأسماء الموصولة . ولم يكن أيضاً في الشعر حتى يمكن التعلل بالضرورة . ومن ذلك الضرب أيضاً ما أثر عن العرب من حذف نون التثنية في حالة النقي مثل :

لاغلامي لك ، ولا يدي لزيد ، وقيص لا كمي له (١)

ومن ذلك أيضاً ما نجده في بعض نصوص القرآن والحديث ، فمن القرآن قوله تعالى : (تظاهرا)

بتخفيف الظاء ، وهي قراءة فيها

وكذلك الحديث الذي خرج مسلم في قتلى بدر حين قام عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم فناداهم ، فسمع عمر قوله ، فقال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنى يجيبوا . وإذا كنا بصدد الدليل على أن هذه الأمثلة ، التي أوردناها ، لها صلة بالقديم وأنها استمرار لاستعمال اللغة منذ كانت غير ناضجة ، ولا مستقرة على نظام واحد ، نقول إذا كنا بصدد الدليل على هذا ، وبصدد نقد النحاة في موقعهم من اللغة ومن فهم أساليبها فأننا نجد أيضاً دليلاً لنا فيما اعترفوا هم به ، ذلك أنهم أقروا مبدأ الترخيم في المتأخر ، واعترفوا بوجود لهجة من لهجات القبائل العربية تحذف آخر الكلمة مثل « ياأبا الحك » بدلا من « ياأبا الحكم » (٢) . ونحن نظن أن الترخيم ليس إلا ذكرى من ماضي اللغة . وأثراً من آثارها

(١) فقه اللغة للثعالبي ج٢ . ص ٥٠٧

(٢) هذه اللهجة عرفت بها قبيلة طيء وقد اصطاح العلماء على تسمية تلك اللهجة - قطعة طيء - بضم القاف ؛ وكان ذلك عاما عندهم في كل الكلمات .

مقدمة ولم يكن الأمر فيه كما فهمه النحاة من أنه استغناء عن الحرف
لأخيراً في الاسم بادامت الحروف الباقية تدل عليه .

وكذلك الشأن فيما يختص بلهجة طيء ، التي لا تزال نجد آثارها في بعض
لهجات بمصر (١) . ولنا بعد هذا أن نقول :

الواقع أن النحاة لم يكن من شأنهم أن يمعنوا النظر في اللغة ، ولا في تكويناها ،
أن النحاة في سائر اللغات الأخرى ؛ ولم ينظروا إلى النحو نظرة فاحصة مدققة ،
دركوا أن هذه الطرق في الأداء ، والأنظمة المتبعة في التراكيب لم تنشأ كاملة من
الأمم وإنما مرت بأدوار من الرقي حتى وصلت إلى المرحلة النهائية التي بنى النحاة
نيتها قواعدهم . ومن أجل ذلك وقعوا فيها ووقعوا فيه من تعاملات وإشكالات .

وصوروا اللغة لمن جاؤا بعدهم تصويراً يبعدها عن طبيعتها ، ويحمل
نها وبين ماضيها فجوة واسعة يجد الدارس كثيراً من العناء إذا ما حاول
، يملأها . وقد أحسننا نحن بهذه الفجوة وبذلك العناء حينما بدأنا دراسة
ه اللغة العربية ، لا كما كان يعالجه القدماء ، بل وفقاً للنهج الحديث عند
تربيين في دراسة هذا العلم . فقد كنا في سبيل البحث عن تاريخ بعض
فردات ، وتاريخ استعمالها الحسي والمعنوي في مختلف العصور ، ومعرفته
غير الذي طرأ على بذيتها ومؤداها في مراحلها التطورية ، نقول أننا كنا في
بيل ذلك كمن يتحسس الطريق بغير مرشد . كنا لا نجد أمامنا سوى معاجم
تة ، وهي خليط هائل من المعاني ، وكتب الأئدب والنحو وهي غير

(١) في بعض جهات من مديرية بني سويف يحذف الناس المقطع الأخير من
كلمة فيقولون مثلاً : حم ، حسي ، حمو ، بدلا من محمد ، حسين ، محمود .

محددة الأهداف بالنسبة لما نريد التعرف عليه ، فنخوض هنا وهناك ، ونفعل
الفكر في الافتراضات حتى ننتهي إلى خيط بسيط نستمسك به ونجمع حوله
من الخيوط الأخرى ؛ ومع هذا فمكننا نتجح طموراً في عمل نسيج متماسك
من تلك الخيوط ، ونفشل طموراً آخر فنهمل ما جمعناه ، ونتركه نهياً للنسيان
كأن هذا ، ولا يزال دأبنا في دراسة فقه اللغة ؛ وها نحن أولاء نقضى
نحو من أربع سنوات في دراسة سورة المطففين دراسة تتفق مع منهج فقه
اللغة الحديث ؛ وبالرغم من ذلك كله ، وبالرغم من النتائج الهامة التي
اهتدينا إليها في فهم آياتها وإدراك بعض أسرارها البلاغية من ناحية
الألفاظ ، والمعاني ، والأسلوب ، فإننا لا نزال غير مطمئنين لوضع
الأسس العامة لهذا العلم بالنسبة للغة العرب ، ولأننا نخرج بحث ناضج فيه .

والآن بعد مناقشة هاتين النظريتين الخاصتين بمظاهر النحو الفني ؛
ومناقشة النحاة في فهمهم ؛ وتعليقهم لوجود تلك المظاهر ؛ ثم الاستدلال
على صحة ما ذهبنا إليه خاصة بتلك النظريتين ؛ نستطيع أن نثبت
باختصار النتائج العملية من وراء ذلك ؛ وهي تنحصر في هذه الملاحظات:

أولاً : - التأكد من أن كل ما سماه النحاة شاذاً أو خارجاً على
القواعد النحوية أو سماعياً يعتبر أثراً قديماً قد بقي في اللغة بمثابة الرواسب ؛
التي تبقى في بعض فروع النهر بعد أن تجف ؛ وتتحول جميعاً إلى مجرى واحد
ثانياً : - ينبغي أن نسقط كل هذه الأمثلة من حسابنا إذا أردنا أن نضع النحو

وضما جديداً ، فلا ندع قواعده تتمش بسببها وذلك كصنيع النحاة في سائر اللغات
العربية ، حيث تركوا جانباً بقايا اللهجات القديمة ووجهوا همهم إلى التهجئة
القوية الموحدة .

ثالثاً : - هذا يمهّد لنا السبيل لمعرفة تاريخ اللغة أو فترة من تاريخها على الأقل ، ثم
إنه يريتنا نوعاً من أنواع التطور اللغوي ، وبهذا نستطيع أن نضع الأساس لدراسة
فقه اللغة على المنهج الغربي الحديث ، الذي اشرنا إليه وإلى بعض رسائله واتجاهاته
منذ قليل .

رابعاً : - إن هذه العلامات التي سبها النحاة علامات أعراب لم تكن أولاً
باتفاق الجميع ، ولم توضع في أول الأمر بناء عن فكرة مجردة عن معنى كل علامة من
هذه العلامات ، ولم يكن الحكم في وضعها معنى الجملة والتراكيب وإنما هو اتفاق
الناطقين باللغة على هذه الطريقة أو تلك من الأداء ، فالمسألة اتفاقية لا منطقية أو
قياسية ، وبمعنى أوضح أنهم لم يفكروا في رفع الفاعل قبل أن ينطقوا به مرفوعاً ولا
في نصب المفعول قبل أن ينطقوا به منصوباً ولا في جر المضاف إليه قبل أن ينطقوا
به مجروراً وذلك عكس طريقة النحاة في فهمهم لهذه العلامات الاعرابية وتحليلهم
لها ، ولو كان الأمر كما ذهب النحاة لاستلزم أن يكون النضوج العقلي عند العرب
قد سبق النضوج اللغوي بمراحل طويلة وهذا ما لا يمكن أن نتصوره بحال من الأحوال
والمسألة في نظرنا لا تعدو أن يكون الناطقون باللغة قد اتفقوا ، بأي طريق كان ،
على رفع فصيحة من الاسماء لها اعتبار خاص في تركيب الجملة ، ونصب فصيحة أخرى

منها لا اعتبار آخر وجر فصيحة لا اعتبار يغير الاعتبارين السابقين حتى يمكن بذلك
التفرقة أو التمييز بين هذه الاعتبارات المختلفة .

وعما يدل بوضوح على أن المسألة في علامات الاعراب هي كما صورناها أننا نجد
في بعض الأحياء قبيلتين عربيتين قد اختلفتا في علامة الاعراب بالنسبة للاسم
الواحد ، ومكانته من الجملة هي ، واعتباره في نفس الجملة هو هو ، مثل المسألة
« الزنبورية »^(١) ، التي اختلف فيها سيديويه ، عالم البصرة ، والكسائي ، عالم الكوفة ، وهذه

(١) يمكن تلخيص هذه المسألة وظروفها فيما يأتي : يقال أن سيديويه ، وهو عالم
البصرة إذ ذاك ، قدم إلى بغداد ، وكان فيها الكسائي يعلم الأيمن وفد سيديويه على يحيى
بن خالد البرمكي وولديه جعفر والفضل ، وأبدي لهم رغبته في مناظرة الكسائي ،
وهو أعلم أهل الكوفة إذ ذاك فعمل يحيى وولده على توصيله إلى الرشيد وإقامة
المناظرة وكان مما وجهه الكسائي من أسئلة إلى سيديويه قوله : كيف تقول : ظننت
أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هي ، أو : إياها ... ؟

فقال سيديويه : فإذا هو هي ، وخالفه الكسائي فأجاز القولين ، الرفع والنصب
في الخبر وذلك لأن نصب الخبر المعرفه بعد « إذا » يجزه الكوفيون ويمنعه البصريون
ثم قال الكسائي : كيف تقول يا بصري : خرجت فإذا زيد قائم أو قائما ؟ فقال سيديويه
أقول : قائم ولا يجوز النصب . فقال الكسائي أقول : قائم وقائماً .

فقال الرشيد : قد اختلفتما وأنتما رئيساً ببلديكما ، فن يحكم بينكما ؟ فقال له
الكسائي : هذه العرب بيابك ، قد سمع منهم أهل البلدين ، فيحضرون ويسألون .
ولما جاءوا بالأعراب الذين كانوا يومئذ بالباب . وهم أبو فقمس ، وأبو دثار ، وأبو
الجراح ، وأبو ثروان ، وعرضوا عليهم مسائل الخلاف بين سيديويه والكسائي ،
وظلبوا حكمهم في هذا ، وافقوا الكسائي فيما ذكر .

المسألة مشهورة عند النحويين ، ورواها كثير من المؤلفين ، وكانت مشار الخلاف بين الرواة ، فمنهم من ينسبها إلى سيبويه والكسائي ، ومنهم من ينسبها إلى سيبويه والفراء ومنهم من يقرر أنها كانت بحضرة الخليفة هارون الرشيد ومنهم من ينفي ذلك ، ويدعى أنها كانت بحضرة يحيى بن خالد البرمكي . ونحن لا يعنيننا الخلاف بين أسماء النحاة ، ولا بين من كان في حضرته هذا الخلاف ، بقدر ما تعنيننا المسألة في ذاتها ، فسواء لدينا أكان الخلاف بين سيبويه والكسائي أم بينه وبين الفراء ، والمهم أن نقرر أن الخبر المعرفة بعد - إذا - يمكن أن يكون مرفوعاً كما يمكن أن يكون منصوباً .

ومن هذا القبيل أيضاً مسألة المستثنى في الكلام الناقص بين التميميين والحجازيين .

ومثالها : ليس الطيب إلا المسك^(١) .

(١) — يذكر أبو علي القسالي في كتابه الأمامي ٣ : ٣٩ حدثنا أبو حاتم قال سمعت الأصمعي يقول : جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو « ما شيء بلغني عنك تجيزه ؟ » قال وما هو ؟ قال « بلغني عنك أنك تجيز : ليس الطيب إلا المسك » بالرفع « فقال أبو عمرو « نعمت يا أبا عمرو وأدخ الناس ، ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع » ، ثم قال أبو عمرو : « قم يا يحيى يعني اليزيدي - وأنت يا خلف - يعني الأحمر - فاذهبا إلى أبي المهدي فإنه لا يرفع ؛ واذهبا إلى المنتجع ولقناه النصب فإنه لا ينصب » .

فالحجازيون يأنصبون والتميميون يرفعون . وعلى هذا الخلاف في الرفع
والنصب بين الحجازيين والتميمين جاءت القراءة في قوله تعالى :

« ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك (١) »

== قال فذهبا فأتيا أبا المهدي فإذا هو يصلي : وكان به عارض ؛ وإذا هو
يقول : « لقد أحساناه عنى » ثم قضى صلاته والتفت إلينا وقال : ما نخطبكما
قلنا : « جئناك نسألك عن شيء » قال : « هاتيا » فقلنا : « كيف تقبول
ليس الطيب إلا المسك - بالرفع - ؟ فقال « أتأمراني بالكذب على كبرة
سنى ؟ فأين الجادى وأين كذا ؟ وأين بنته الأبل الصادرة ؟ » فقال له خلف
« ليس الشراب إلا العسل - بالرفع - فقال « فما يصنع سودان هجر ؟ ما لهم
شراب غير هذا التمر » قال الزيدى : فلما رأيت ذلك منه قلت له : ليس
ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها فقال « هذا كلام لا دخل فيه ، ليس
ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها » . فقال الزيدى : ليس ملك
الأمر إلا طاعة الله والعمل بها » فقال : ليس هذا لحنى ولا لحن قومى
فيكتبنا ما سمعناه منه . ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلا يعقل فقال له خلف
« ليس الطيب إلا المسك » فلقناه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا
الرفع فأتينا أبا عمرو فأخبرناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح ؛ فأخرج عيسى
بن عمر خاتمه من يده وقال : ولك الخاتم بهذا والله فقت الناس .

(١) سورة هود : ٨١

فالحجازيون ينصبون وعليه أكثر القراء ، والتميميون يرفعون وعليه اثنان

من القراء (١).

ومن هذا الوادى أيضاً ما نجد من خلاف بين الحجازيين والتميمين

في عمل - ما - وإهياها مثال ذلك قوله تعالى :

« ما هن أهياتهم » (٢)

فالنصب على لغة الحجازيين والرفع على لغة التميميين ، الأولى قرأ بها الجمهور

والثانية قرأ بها المفضل عن عاصم . وما ذكرناه من الأمثلة إنما هو

بعض ذكره النحاة في بابي الاستثناء ؛ وما التي تعمل عمل ليس ، ومن

ذلك يتضح في جلاء أن الأعراب ؛ أو الضوابط النحوية وضعية ، وأنها

لم تكن على أساس منطقي واحد بين جميع القبائل العربية .

خامساً :- إن النحو بمعناه الفنى ، أى طرق الأداء فى اللغات المهذبة الراقية ،

يوجد مبكراً فى اللغة قبل أن يوجد النحو العلمى ، وأن تطوره ونضوجه يلازم تطور

اللغة ونضوجها ، إذ أنه يعتبر جزءاً منها ملازماً لها ؛ وإن يقف نموه إلا إذا وقف

(١) الاثنان هما : ابن كثير وأبو عمرو (انظر الاتحاف ١ : ٢٥٩ ،

ابراز المعاني ٣٥١ ، البحر المحيط ٥ : ٢٤٩ - القراءات واللهجات لعبد الوهاب

حمودة ص ٧٩ ، ص ١٢٢

(٢) المجادلة : ٢

تتم اللغة نفسها ، فهو يكاد يكون خاضعاً لطبيعة اللغة لا لأسباب خارجة عنها أو مؤثرة فيها . وذلك عكس ما نلاحظه في النحو العلمي الذي يبدأ حيث ينتهي النحو الفني ؛ ويأخذ طريقه نحو التوضيح والكمال تبعاً لظروف اجتماعية طارئة على اللغة ، وتحت مؤثرات عقلية أو علمية قد لا يكون للغة عهد بها من قبل .

وبعد ، فنحن إذ نصدر هذا الحكم لا يغيب عنا ما قد يحصل في بعض الأحيان من أثر فعال يصدر عن النحاة في تكوين اللغة وتنميتها وتهذيبها بوضع أسسها وضبط قواعدها ؛ وحذف ما لا ينطبق على القواعد العامة فيها وذلك كما حدث في خلال القرن الثاني قبل الميلاد بالنسبة للغة اللاتينية ، حيث نهض بعض الشعراء والكتاب من اللاتينيين أنفسهم لخدمة اللغة ، والعمل على ضبطها بتسجيل بعض القواعد النحوية ، وتوحيد طريقة النطق والاداء بها ، واستبعاد ما يمكن أن يكون محل شبهة . من هؤلاء الشعراء إينيوس *Ennius* ، وأكسيوس *Accius* ومن الكتاب *Varron* ، وقصر *Cæsar* . ويمكن مع هذا ينبغي أن نلاحظ أن اللغة العربية التي نحن بصدد الكلام عنها وعن نحوها لم تتوفر لها ذلك ، أو على الأقل لم يعرف من تاريخها تلك المرحلة التي يمكن أن يكون بعض أصحابها المتمكنين منها قد قاموا بهذا الدور ، وأدوا لها هذه المهمة في عصورها القديمة في الجاهلية . إذ أننا حتى الآن نكاد نجعل تماماً ما كان يعمل في العصور الجاهلية

من ضبط اللغة العربية ، وطرق التحرى والاختيار بالنسبة للتعبير والآداء
إذ أن كل ما وصل إلينا عليه خاصاً بحياة اللغة العربية في العصور الجاهلية
الاولى لا يعدو أن يكون مبادئ عامة ، ونظريات مجملة كالكلام عن اللهجات
المختلفة في القبائل العربية ، والكلام على نهضة قريش وتغلّبها على سائر اللهجات
بسبب ما توفر لها من أسباب اجتماعية عديدة . أما حقيقة كل لهجة ، ومعرفة
عوامل التطور الداخلى فيها وإدراك الشكل العام لآساليبها وضوابطها ، فكل
ذلك يكاد يكون خافياً علينا وليس لدينا منه إلا بعض أمثلة مبعثرة في ثنايا الآثار
القديمة ، قد جمعت لأغراض أخرى لا نستطيع أن نكون منها وحده ولا أن نبني
عليها أسساً علمية مؤكدة . ولهذا فإننا في محاولتنا هذه نعتد كثيراً على
الافتراض مستعينين بدراستنا لتاريخ بعض اللغات القديمة . هذا هو شأن اللغة
العربية ، وشأن رجال النحو فيها ، أما هؤلاء الذين قاموا بهذا المجهود في
اللغة اللاتينية فهم أصحابها المتمكنون منها والقادرون على تصريفها .

ومن هنا يتضح جلياً الفرق بين النحو الفنى والنحو العلمى من ناحية ،
وبين اللغة العربية واللاتينية من ناحية أخرى . ويتضح كذلك السبب الأساسى
الذى من أجله وقع نحاة اللغة العربية في هذه الخلافات التى لا حصر لها ؛
وفى تلك الاشكالات التى أخرجتهم فى بعض الأحيان عن طبيعة أبحاثهم ،
وجعلتهم يحملون اللغة أكثر مما تحتمل .

فبينما نجد جمهرة النحاة فى اللغات الأخرى ، من أصحاب هذه اللغات

المتكئين فيها ؛ القادرين على تصريفها ، الذين لا يجدون حرجاً في أن يخطئوا في بعض الاحيان بعض الناطقين بهذه اللغات ؛ إذ بنا نجد العكس في اللغة العربية ، فجمهرة أساتذة النحو فيها دخلوا عليها ، فمنهم اليهود مثل هارون بن الحائل^(١) ، ومنهم الفرس كسيبويه ، والكسائي ، والأخفش ؛ والسيرافي والقراء وقتلنا نجد العربي الخالص ، بل أننا رأينا الروح عند العرب تستكشف دراسة النحو ، ثم يضاف إلى هذا أنهم افترضوا صحة كل ما ثبت أنه جاء على لسان العرب الخالص ، ولم يحاولوا مواجهة الفكرة في أن هذه الضوابط المتبعة في الأداء قد سلكت طريقاً طبيعياً في التكوين ؛ كما تسلك اللغة نفسها هذا الطريق . فكانت في أول الأمر بسيطة غير مطردة ؛ ولعلها مع الزمن قد نمت ، وعمت ، والتزمت .

وإذا كنا لا نستطيع الوقوف على طبيعة تطور هذه الضوابط في اللغة العربية ؛ ولا على طريقة ذلك التطور ؛ لجهلنا بتاريخ اللغة نفسها ؛ ولقلة ما اكتشف حتى الآن من آثار قديمة تقدم لنا صورة عن حالة اللغة يوم أن كانت مضطربة في الفاظها ، وفي معانيها وفي أساليبها ، وفي ضوابطها ، نقول : إذا كنا نجمل كل ذلك ، وإذا لم يكن لدينا من الأدلة المادية ما يساعدنا على معرفته فإننا نلجأ مرة أخرى إلى اللغة اللاتينية لنرى فيها بعض مظاهر ذلك التطور ، لنذكر بعض الشيء مما يمكن أن تكون اللغة العربية قد مرت به

(١) - الفهرست لابن النديم ص ١١١ - ١١٢ .

أو ما يمكن أن يكون على الأقل صورة لتطبيعة هذا التطور في ضوابط اللغة ومناهج الأداء فيها .

والأمر في ذلك ميسور بالنسبة للغة اللاتينية . فهي لغة معروفة التاريخ لم يطل بها العهد في أدوار حياتها الأولى حتى يتسرب إلى أوضاعها وأنظمتها النسيان . ولم يمر طور من أطوار حياتها دون أن يترك فيه أثر كتابي يلقى ضوءاً على حالتها العامة وعلى ما تتميز به أساليبها وطرق الأداء فيها من خواص . ومن حسن الحظ لهذه اللغة ، ولئن تصدى للبحث فيها أن اكتشف كثير من هذه الآثار ، ما بين قبور وجدر وصحائف وألواح وأدوات ؛ وعليها من النقوش الكتابية الواضحة ما مهد السبيل للعلماء ، وقدم لهم مادة غزيرة للبحث والتحليل .

وسنحاول أن نعرض في عجالة بسيطة أطوار هذه اللغة ذاكرين بعض الأمثلة في عصورها المختلفة لكي يتبين لنا كيف تخضع حركات الإعراب لنظام النشوء والارتقاء وكيف تتغير من عصر إلى عصر حتى تكم وتتكامل ثم تثبت على حال واحدة .

في الفترة السابقة للقرن الثالث قبل الميلاد لم تكن اللغة اللاتينية سوى لهجة بسيطة يتخاطب بها فريق محدود من سكان إيطاليا وكان هذا الفريق عملاً في الأسر والحشائر اللاتينية التي تقيم في المنطقة المعروفة قديماً باسم « لاتيوم *Latium* » في وسط إيطاليا تقريباً ، والممتدة حول مصب نهر

التيير شمالاً وجنوباً ، وحتى في هذه المنطقة المحدودة لم تكن اللغة اللاتينية موحدة في اللهجة التي قدر لها أن تصبح فيما بعد لغة العلم والفن والقانون والأدب ، ولكن كان هناك عدد من اللهجات يصارع بعضها البعض الآخر في مدن تلك المنطقة ، وأهم تلك اللهجات هي لهجة مدينة رومه *Rome* ؛ ولهجة مدينة *Préneste* ثم لهجة مدينة توسكولوم *Tusculum* ⁽¹⁾

أخذت لهجة مدينة رومه تنمو وتنتشر على حساب اللهجات الأخرى . وقد توفر لسكان مدينة رومه من الأسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية ما جعلهم يتزعمون سكان المدن الأخرى من تلك المنطقة ، وسادت تبعاً لهم - لهجتهم على سائر اللهجات اللاتينية الأخرى ، ويكاد هذا يشبه تماماً ما حدث في شبه الجزيرة العربية من صراع لغوي بين لهجة قبيلة قريش التي كانت تقطن حول مكة ولهجات القبائل الأخرى التي كانت تضرب في نواحي شبه الجزيرة .

إن أهم أثر يوضح لنا حالة اللغة اللاتينية في الفترة السابقة على القرن الثالث قبل الميلاد هو مشبك من ذهب ؛ وجد في مدينة *Préneste* يرجع تاريخ صنعه إلى القرن السادس قبل الميلاد وقد كتبت عليه هذه العبارة *Manios med fhefhaked Numasioi* وهذه العبارة لو كتبت بالطريقة التي استقر عليها نظام اللغة اللاتينية

Histoire illustrée de la littérature latine par J. Humbert

p. 1-6 -1

أخيراً لأصبحت *Manius me fecit Numerio* ومعنى هذه العبارة هو :
قد صنعني مانوس من أجل نوميريوس .

والذي يعنيننا أن نلاحظه في هذه العبارة هو التغيير الذي طرأ عليها
بالنسبة لعلامات الإعراب ، فالعلامة « *os* » في الاسم « *Manios* » كانت
علامة للرفع قديماً لبعض الأسماء في حالة الإفراد ، وقد أصبحت في اللاتينية
أخيراً علامة للنصب لطائفة من الأسماء في حالة الجمع ، أما علامة الرفع
لهذه الطائفة من الأسماء في حالة الإفراد فقد أصبحت « *us* » .

وكذلك ضمير المتكلم المفرد في حالة النصب كان قديماً « *med* » ولكنه
صار أخيراً « *mo* » . وعلامة الفعل الماضي في حالة الإفراد للشخص الغائب
التي كانت قديماً « *ed* » قد أصبحت « *it* » وأخيراً فإن علامة الإعراب
في الاسم من نفس الطائفة من الأسماء التي أشرنا إليها آنفاً ؛ في حالة المفعول
غير المباشر كانت قديماً « *oi* » ولكنها أصبحت كما نراها « *o* » .

ومن هذا يتضح مبلغ التطور الذي تعرضت له اللغة اللاتينية بالنسبة
لعلامات الإعراب .

وفي خلال القرن الثالث قبل الميلاد يدخل الصراع بين لهجة روما
وغيرها من لهجات المدن الأخرى في دور حاسم ؛ ولا يأتي آخر هذا القرن
حتى يكتب لهجة روما التغلب التام ، ولا تقف سيادتها على منطقة
« *Latium* » فقط وإنما تتسرب إلى الجهات الأخرى ، وتأخذ

في صراع أوسع مع ما كان في شبه الجزيرة الإيطالية من لغات كاللغة الإيتروسكية *l'etrusque* ، التي كان يتخاطب بها في البلاد الواقعة شمال رومه والمحصورة بين نهر التيبر شرقاً وسواحل إيطاليا غرباً ، وكاللغة الأومبرية *l'ombrien* ، التي كانت لغة التخاطب في البلاد الواقعة شرق نهر التيبر والممتدة حتى سواحل بحر الأدرياتيك ، وكاللغة الأوسكية *l'osque* التي كانت لغة البلاد الواقعة في الجنوب وفي الشرق من منطقة لاتيوم .

ومع أن هذا الصراع اللغوي قد استمر أثناء القرن الثالث والثاني وفترة طويصلة من القرن الأول قبل الميلاد فإن اللغة اللاتينية نفسها لم تكن قد فرغت نهائياً من تنظيم أساليبها والتزام حالات الإعراب في تراكيها ، فقد بقيت في خلال هذه الفترة الطويلة في شبه اضطراب من هذه الناحية حيث لم تطرد فيها قواعد الإعراب بعد ، ولم توحد فيها أشكال الصيغ ، ولذا فإننا نستطيع أن نسمى هذه الفترة من حياة اللغة اللاتينية بالمرحلة الثانية . ومن أمثلة هذا الاضطراب في الصيغ وفي حالات الإعراب ما يأتي :

المصدر من « قال » في اللاتينية هو « *dicere* » ، وإذا جرى بصيغة المبني للمجهول من هذا المصدر يقال « *dici* » وهذه هي الصيغة التي بقيت في اللغة بعد أن استقر نظامها واطردت قواعدهما ، ولكننا نجد بجانب هذه الصيغة صيغة أخرى كانت تستعمل في أثناء فترة الاضطراب التي نحن بصدد الكلام عنها هي « *diere* » .

مثال آخر : كلمة « *Dominus* » بمعنى السيد ، قد بقيت بهذه الصيغة
حالة الرفع ، ولكنها في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب
بما « *Dominos* » .

مثال ثالث : يتجلى فيه بوضوح مظهر الاضطراب كلمة « *facies* »
عناها « الوجه » هي إحدى الكلمات التي تخضع لنظام التصريف الخامس
الاسماء ؛ ومن خواص هذا التصريف أن تكون نهاية هذه الاسماء
حالة المفعول لأجله أو المفعول غير المباشر هي « *ei* » . ولكن هذه
لغة في نفس الحالة من الإعراب كانت تكتب وتنطق بهذه الصيغة :
faciēi, faciit, faciōi, fac بل وبصيغ أخرى غير ذلك .

هذا جانب من مظاهر الاضطراب في تكوين قواعد النحو ، وخصوع
ة لقوانين عامة وثابتة أثناء هذه الفترات التي سميناها فيما مضى بالمرحلة
نية من تطور اللغة اللاتينية . وقد بقي هذا الاضطراب مائلاً حتى القرن
ول قبل الميلاد ، ولكنه كان آخذاً في النقص ، وذلك بفضل الجهود
ظيم الذي كان يبذله رجال النحو والأدب في تصفية اللغة من الغريب ،
لبيت قواعدها ، وطرق الأداء فيها .

أما المرحلة الثالثة فتبدأ من حوالي منتصف القرن الأول قبل الميلاد ،
ت وصلت اللغة إلى القمة من ناحية النقاء والاستقرار ؛ وكان ذلك
عصر شيشرون وقيصير . ولكنها مع ذلك قد احتفظت بكثير من الآثار

القديمة التي تبدو مخالفة لما استقر نهائياً من قواعد الإعراب ، ولم يستطع
أدباء اللاتينية ولا نحاتها أن يتخلصوا من تلك الآثار ؛ فبقيت ماثلة حتى
انقراض اللغة اللاتينية ، وإن كان بعضها قد توارى وهجره الاستعمال .

وهذه الرواسب القديمة التي بقيت في تراكيب اللغة وأساليبها ، واعترف
بها النحاة ، ولجأ إليها الشعراء والكتاب في بعض الأحيان ، هي التي تعيننا
بالذات ، إذ أنها توضح إلى حد ما ، ما نجد في اللغة العربية
وفي شواهدها الأدبية من خروج على القواعد العامة التي وضعها النحاة ،
وذهبوا في تطبيقها كل مذهب .

ولقد حاول نحاة العرب جهدهم أن يخضعوا هذه الشواهد لقواعدهم ،
ولما استعصى عليهم الأمر حكموا عليها بالشذوذ مرة ؛ أو خرجوها تخريباً
نائباً أفسد على اللغة طبيعتها مرة أخرى . وقد رأينا صورة من
تخرجاتهم منذ قليل .

لم يفكر واحد منهم أن هذه الشواهد يمكن أن تكون رواسب قديمة ،
وتراثاً للغة العرب يوم أن كانت مضطربة وفي شبه فوضى ، لم توحد
لهجاتها ولم تستقر وتطردهم ضوابطها . ولكنهم فهموا أو اعتبروا على الأقل
أن اللغة العربية وجدت كاملة ناضجة ، وأن العربي معصوم لا يخطيء .

وها نحن أولاء نذكر بعض الأمثلة من اللغة اللاتينية لتلك الرواسب
التي بقيت فيها بعد أن توحدت وكملت :

لقد عرفنا بما درسناه أن علامة الإعراب في صيغة الفعل الماضي التام إذا أسند لضمير الغائبين هي « *erunt* » ولكننا نجد عوضاً عنها هذه لعلامة « *ere* »

فيقال مثلاً : « *amaverunt* » بدل « *amavere* » بمعنى أحبوا ،
« *laudaverunt* » بدل « *laudavere* » بمعنى مدحوا أو تغنوا ،
وكذلك نجد في دائرة الأفعال أيضاً هذه الصيغ :

« *amavisti* » بدل « *amasti* » بمعنى أحببت .

« *audieram* » بدل « *audioeram* » بمعنى كنت سمعت .

ولو تركنا دائرة الأفعال وانتقلنا إلى ميدان الأسماء لوجدنا فيها ما يأتي :
معروف أن علامة النصب في حالة الجمع للتصريف الثالث من الأسماء هي « *es* » ولكننا نجدها في بعض الأحيان « *is* » وعلى هذا فبدل أن يقال :
« *cives amo* » أحب المدنيين ، يمكن أن يقال « *civis amo* » .

وكذلك في صيغة المضاف إليه في حالة الجمع للتصريف الثاني من الأسماء بدل علامة الإعراب « *orum* » ولكنها قد تستبدل أحياناً بالصيغة القديمة هذه الطائفة من الأسماء وهي « *um* » فيقال مثلاً : « *terra a deum est* »

بدل « *terra a deorum est* » = إن الأرض من صنع الآلهة .

بل إن بعض الصيغ القديمة قد احتفظت بكيانها في بعض الأسماء ، ولم تستبدل بالصيغة العامة الجديدة . ومن هذه الأسماء « *Parentes* » ومنها

الأقرباء ، « senos » ومعناها الكهول . هذان الاسمان يقدمان طائفة
من الأسماء علامة إعرابها في سادة المضاف إليه الجمع هي « iam » ولكنها
احتفظا بصيغة أخرى هي « am » فيقال مثلا :

filios parentum tuorum amas

بـ

filios parentium tuorum amas

أى (تحب أبناء أقربانك)

وكذلك يقال :

Consilia senum saepe est bona

ولا يقال :

Consilia senium saepe est bona

أى (إن نصيحة الشيوخ غالبا ما تكون طيبة)

كلمة « manus » ومعناها « اليد » تعتبر من الأسماء التي تخضع لقاعدة
التصريف الرابع ؛ وعلامة الإعراب لهذه الأسماء في حالة الإفراد وفي حالة
المفعول غير المباشر هي « ni » فيقال مثلا :

rosam manui portabat

ومعناها (كان يحمل الورد على يده)

ولكننا قد نجد هذه الكلمة في مثل هذا التركيب بحركة أخرى

للإعراب هي « u » فقط ، فيقال *Rosam manu portabat*

ومعناها (كان يحمل الورد على يده)

وكذلك كلمة « Rosa » = « وردة » ، تعتبر من العائقة التي تخضع
عدة التصريف الأول . وعلامة الإعراب لهذه الأسماء في حالة الأفراد
المضاف إليه هي « a » فيقال مثلا :

Color rosae bonus est

أي « لون الوردة جميل »

وقد تكتب في مثل هذا التركيب بصيغة إعرابها القديم . وهي « ai » فيقال

Color rosai bonus est

وأوضح من هذا كله كلمة « deus » = « الله »

وكلمة « Domus » = « البيت » ؛

أما اللفظ الأول فهو من الأسماء التي تخضع لقاعدة التصريف الثاني ،
أنه في حالة الرفع بصيغة الجمع يصبح « dei » ولكننا بجانب هذه
صيغة نجده مكتوبا بصيغتين أخريين هما « dii » أو « di » فيقال مثلا :

dei iusti sunt = الآلهة عادلون

ويمكن أن يقال كذلك :

dii iusti sunt

أو *di iusti sunt*

وكذلك في حالة المفعول غير المباشر ، أو الجرور بحرف الجر في صيغة

مع ، نجد « dis » بجانب « deis » فيقال مثلا :

Rosae factae a dis sunt = الورد مخلوقة بواسطة الآلهة

يمكن أن يقال أيضاً :

وأما اللفظ الثاني وهو « *domus* » فهو من الأسماء الخاضعة للتصريف الرابع . وها هي نى حركات الإعراب فى الأحوال المختلفة بالنسبة لما هو من قبيل « *domus* » فى الأسماء .

ولنأخذ لذلك كلمة « *manus* » = « يد » التى تقدمت منذ قليل :

فى حالة الإسناد أو الرفع وكذلك فى حالة النداء يقال : *manus*

وفى حالة النصب يقال : *manus*

وفى حالة المضاف إليه يقال : *manus*

وفى حالة المفعول غير المباشر أو لأجله يقال : *manui*

وفى حالة الجر بحرف الجر يقال : *manu*

كل ذلك فى الأفراد . وفى الجمع على حسب ترتيب الحالات السابقة يقال :

فى الرفع والنداء والنصب *manus*

وفى المضاف إليه *manuum*

وفى حالة المفعول غير المباشر أو لأجله وفى حالة المجرور بحرف الجر *manibus* .

ولو كانت كلمة « *domus* » خاضعة للقاعدة العامة التى اطرقت فى هذه الطائفة من الأسماء لتصرفت بالضبط كما تتصرف كلمة « *manus* » ولكنها قد احتفظت بشيء من التراث القديم بالنسبة لحركات الإعراب ، فأصبحنا نراها فى حالة المجرور بحرف الجر مفردة « *domo* » بدل « *domu* » .

وفي حالة النصب جمعاً « domos » بجانب الصيغة العامة « domus »
وفي حالة المضاف إليه جمعاً « domorum » بجانب الصيغة العامة « domuum »
ونستطيع أن نمضي إلى أبعد من هذا في ذكر أمثلة من هذه الألفاظ
كالتراكيب ، التي استمرت محافظة على بعض التراث القديم وشاهدت
في اللغة اللاتينية من ناحية الضوابط وحركات الإعراب ؛ ولكن
بينا هذا القدر ، إذ العبرة في ذلك بالكيف لا بالكم . ومع أن هذه
اسب قد بقيت في اللاتينية بعد استقرارها ، ومع أن الأدباء والشعراء
استخدموها في أساليبهم وفي إنتاجهم الأدبي لأغراض بلاغية كما سبق
شارة إلى ذلك ؛ فإنه لما يعيننا جداً ملاحظته هو أن هذه الأشياء
تسكن غيبة أمام النحاة حينما بدأوا يضعون قواعد اللغة ، فإنهم
وا في طريقهم متبعين الظواهر العامة والضوابط الغالبة ؛ ضاربين صفحاً
هذه البقايا دون أن يدخلوا لها حساباً في قواعدهم .

من هذه المقارنة نستطيع أن نسجل هذه الملاحظات كنتيجة لها :

١ - معرفته بعض الحقائق التي نشأت ونمت وكملت تحت تأثير عوامل
باعية وربما كان يظن في بعض الأحيان أن وجودها لم يكن إلا عن
ق المصادفات ، أو أن هناك أسراراً خفية تعاونت على خلقها ؛
نت تفسر هذه الأسرار تارة بالوحي والتوقيف ، وتارة
ى بالمعجزات .

٢ - ملاحظة وجه الشبه اليهودي الذي بين ما حدث في اللغة اللاتينية في رومها ، واللغة العربية في بيئة الحجاز من ناحية الصراع بين اللهجات المختلفة ، وتوفر الأسباب السياسية والاقتصادية والدينية لتغلب واحدة منها على اللهجات الأخرى . ولو أن الفرصة أتت وامتد بنا ميدان المقارنة باللغة اليونانية لوجدنا نفس الظروف ونفس النتائج بالنسبة للهجات اللغة اليونانية أيضاً ؛ ولم كان للدور الذي لعبته أئينا في ذلك الصراع اللغوي من أثر ملحوظ .

٣ - إننا نلصق في وضوح مبلغ المجهود العنيف الذي بذله علماء النحو العربي في تدوين قواعدهم ، ووضع مقاييسهم وتطبيقها . فقد عرف لهم الشرق هذا المجهود في تلك المؤلفات العديدة الضخمة التي أنتجوها في النحو وعلى رأس هذه المؤلفات جميعاً كتاب سيميويه ، الذي كان يقول عنه المبرد . حينما يجد إنساناً يريد أن يقرأه معه ركبت البحر (١) تعظيماً له واستمظاناً لما فيه . ولقد اعترف العرب بهذا المجهود أيضاً لنجاح الشرق ، بل أن علماءه قد استمكثوه عليهم فأخذوا يتلمسون الأسباب لعمق أبحاثه ، وشمولها ، ولسرعه نضوجه . غير أننا نظن أن هذا المجهود إنما كان في كثير من الأحيان على غير أساس صحيح . ومصدر ذلك أنهم افترضوا أن كل ما سمعوه عن العرب الخالص إنما يمثل مرحلة النضوج والكمال

(١) انظر الفهرست ص ٧٧

في اللغة العربية ، وفاتهم أن اللغة لا بد أن تكون قد مرت بمراحل أخرى من الاضطراب وعدم الاستقرار . وفاتهم كذلك أن بجانب لهجة قريش التي اتبعوها ، ووضعوا قواعدهم على أساسها ؛ وآثروها بالترفضيل في كل موقف تتعارض فيه مع لهجة عربية أخرى ، نقول : لأنه فاتهم كذلك أنه بجانب لهجة قريش كانت هناك لهجات عربية أخرى لها من القوة والذووع ما يجعلها جديرة بالنظر ، وذلك مثل لهجة تميم . وكل من درس النحو العربي قد أحس من غير شك بقوة هذه اللهجة أو بمبلغ ما بينها وبين لهجة قريش من خلاف ، ثم بالدرجة التي كان يذهب إليها النحاة في تفضيل لهجة قريش على غيرها من اللهجات (١) .

ونحن لا نلوم النحاة لتفضيلهم لهجة على لهجة أخرى ؛ ولكن الذي يؤخذ عليهم هو إشارتهم لهجة واحدة لوضع قواعدهم النحوية ، في حين أنهم أهملوا ، سواء أكان هذا الإهمال عن قصد أم عن غير قصد ، سائر اللهجات الأخرى ، ولهذا فإنهم عند ما يصح في نظرهم نص أدبي أو بيت من الشعر العربي القديم دون أن يوافق قواعدهم المؤسسه على لهجة قريش تراهم يتعسفون في فهمه ، وفي تأويله ؛ وفي تخريجهم . ومن العجيب أن صدى لهجات العرب الأخرى نجده ممثلاً في القرآن ؛ وفي الحديث ؛ وفي كلام

(١) انظر على الخصوص بابي الاستثناء ، والحروف التي تعمل عمل ليس .

الصحابه من القرشيين بالنسبه للفظ والاسلوب (١)

وعلى هذا الاساس فقد تمادى النحاة كثيراً في صحة كل ما ورد عن العرب من ناحيه ، وفي وجوب تطبيق مقاييسهم من ناحيه أخرى . ونتيجه وجهته النظر الأولى أنهم وقعوا في كثير من الخلافات والمناقشات في سبيل تصحيح كل ما ثبتت عربيته من شواهدهم .

أما نتيجه وجهه النظر الثانيه فإنهم تجرموا على تخطئه بعض القراء الذين يخالفون قواعدهم ، وهؤلاء القراء — كما نعتقد — أولى بالصحة منهم . إذ أنهم يعتمدون في قراءاتهم على السماع ، وهم فيه ثقة ، ويسايرون فيها المعنى أكثر من مسابرتهم للضوابط اللفظيه كما كان النحاة .

ولو أنهم افترضوا مراحل اللغه الأولى ، ثم وجود رواسب من هذه المراحل فيما يروى عن العرب في عصر الجاهليه أو عصر الإسلام لأراحوا أنفسهم ، وأراحوا النحو نفسه ، وأراحونا معهم من كل هذا العناء ، وتلك الخلافات . بل ولما فتحوا أمام بعض المستشرقين هذه الثغرة الخطيرة التي

(١) تقدم الكلام على ذلك في شيء من التفصيل ص ٩٧ ، ٩٨ ونذكر منها الآن قوله تعالى — وأسروا النجوى ، إن هذان لساحران ؛ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم — يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار — أو قول عمر رضى الله عنه — يا رسول الله أنى يسمعوا وكيف يجيبوا — وقول عمرو بن العاص — مكره أخاك لا يبطل .

نفذوا منها ووجدوا مجالاً لمناقشة النصوص القرآنية مناقشة قاسية تخرجها عن دائرة التنزيل وتصورها بصورة كلام البشر الذي صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن استقى أخباره عن أساطير الأولين ؛ أو عن الكتب السماوية الأخرى .

ولقد كان هذا فيما نعتقد، الحافز الأول الذي جعل الأستاذ عبد الوهاب حموده يكرس جزءاً من جهده فيما كتبه عن اللهجات والقراءات في القرآن إذ أنه جمع ما أمكنه جمعه من آراء المستشرقين وحججهم ، ثم عارض النحاة في كثير من مواقفهم وأيد القراء إلى حد بعيد .^(١)

أما نحاة العرب فلم يكن لهم مثل هذا الموقف ولو أنهم صنعوا مثل ما صنع نحاة اللغة اللاتينية لأراحوا أنفسهم من ذلك الجهد الفكري العظيم الذي بذلوه في خلافاتهم وفي تخريجاتهم ؛ ولأراحوا النحو كذلك من هذا الاضطراب ، ومن ذلك التشبث . ولعل من الإنصاف أن نلتمس لنحاة العرب بعض العذر ، فإن مكاتبتهم من اللغة ومقدماتهم على فهمها وتصريف أساليبها ليست كمكاتبته النحاة اللاتينيين ، فهم في أغلب الأحيان دخلوا عليها وكانوا يتصيدون بعض شواهدهم من أفواه الأعراب ، وما وجدوه مروياً من الآثار الأدبية قديمها وحديثها ، بل إن العرب أنفسهم كانوا

(١) انظر كتاب - القراءات واللهجات - للأستاذ عبد الوهاب حموده

يستصغرون شأن هذه الأبحاث النحوية ، ولا يعيرونها شيئاً من اهتمامهم ،
ويقررون أنها من شأن الموالى ومن عملهم . وقد أشار إلى ذلك المبرد في
كتابه الكامل ، وروى الأستاذ مصطفي صادق الرافعي في كتابه هذا الخبر^(٣)
دون أن يسنده وهو أن الشعبي سمير الخليفة عبد الملك بن مروان ، مر بقوم
من الموالى يتذاكرون النحو فيما بينهم . فقال :

« ائن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده »

ويضاف إلى ذلك جهلهم بتاريخ اللغة ومراحل تطورها ، ولم تكن
لديهم آثار كتابية يستطيعون بواسطتها التمييز بين حالة اللغة في عصر
دون غيره ، ثم يربطون هذه العصور بعضها ببعض ليدركوا منها مظاهر
التطور في الضوابط الإعرابية ، كما كان ذلك مهدياً سهلاً للنحاة اللاتنيين .

ولقد سار النحو العربي في نفس الطريق الذي رسمه له أوائل النحاة من
اعتبار كل ما أثر عن العرب صحيحاً ، وبالتالي فكل ما صح لديهم
من كلام العرب ينبغي أن يكون مطابقاً لهذه القواعد العامة التي
لم تكن في الواقع سوى ظواهر وضوابط لهجة قبيلة عربية واحدة ، هي
لهجة قريش بعد أن توفر لها من عوامل الرقي ما يجعلها تتغلب وتسود
لهجات القبائل الأخرى .

(٣) تاريخ آداب العربي للرافعي ج ١ ص ٢٤٥

ولم يتلبه هؤلاء النحاة إلى ما يمكن أن يكون هناك من أثر للمهجات الأخرى ، رلا إلى ما يمكن كذلك أن يكون هناك من أثر بالنسبة لتطور تلك اللهجات ، ومنها لهجة قريش نفسها ، حتى استقرارها على طريقة واحدة في النطق والأداء . بل ذهبوا في اعتبارهم هذه اللغة إلى درجة أنهم منحروها صفة القداسة وأعمالوها معنى إلهياً لمنزلة القرآن منها . ولم نجد من بين أولئك النحاة ، بالرغم من هذه العصور الطويلة التي مرت بها دراسة النحو ، من حاول أن يضع نصب عينيه هذه الاعتبارات . فيفهم اللغة على حقيقتها ، ويخلصها من ذلك الجرد الذي منيت به ، ومن تلك الشبه التي عاقت بها .

ولعل أول من تلبه لذلك قديماً هو ابن السديم صاحب الفهرست (١) حينما تحدث عن اللغة العربية ونشأتها وانسكن حديثه عن ذلك لم يكن واضحاً ولا مستوفياً . وحديثاً : هو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، إذ أدرك بحسه أن اللغة العربية كسائر اللغات الأخرى من حيث التطور من حالة البساطة إلى حالات الرقي والكمال . يقول الأستاذ ما نصه : (وعلى ذلك يتعين أن تتسكون لغتهم أيضاً « يتصد العرب » قد ملكت التاريخ ولم يملكها ؛ وهي لا بد أن تتكون قد تقلبت معهم على وجوه من

(١) الفهرست ص ٧

الإصلاح ، وجمرت على مناح من التهذيب (١)

ولكن يعارض تصريحه هذا ما نجده له من مواقف أخرى في نفس الكتاب يرقى باللغة العربية فيها إلى درجة من التقدير تجعلها سيده اللغات على الإطلاق ، وتكسيبها من صفات القداسة ما يوحى إلى القارئ بأنها توقيفية إلى حد ما . (٢)

ومع ذلك فإننا نلخص هنا ما ذكره بالنسبة لحياة اللغة العربية وما طرأ عليها من تطور أثناء عمرها الطويل . ونحن وإن كنا لا نجد من الآثار المادية ما نعتد عليه في إثبات ذلك ، إلا أننا نطمئن إلى هذا الافتراض ونرى فيه موافقة لما تستلزمه طبيعة اللغة أيا كان الشعب الذي ينطق بها . وعلى هذا الافتراض فإن اللغة العربية قد مرت بأطوار ثلاثة . (٣)

الطور الأول : هو ما كانت عليه هذه اللغة أيام إسماعيل ، الذي يعتبره العلماء أصل العربية المصرية ، من البساطة ؛ ثم أخذت فيه من توسع بواسطة ما كانت تستمد من لغة جرهم من مفردات وتعبيرات . وكان ذلك في أرض الحجاز فقط ، حينما كان الأصل العربي محصوراً في إسماعيل وفي أولاده ، على حسب ما يصوره العلماء والمؤرخون . وذلك حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

(١) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٧٩

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٨٣ ، ٩١ ، ١٧٨ ، ٢٢٣

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٩٧ إلى ٩٠

الطور الثاني : يبدأ عندما يزداد عدد العرب ، وتضيق بهم بيئة الحجاز
فيتركونها ليستقروا في جهات مختلفة من الجزيرة العربية . وهناك تتكون
القبائل ، وتأخذ كل قبيلة في إصلاح لهجتها حسبما تؤهلها ظروفها الطبيعية
والاجتماعية .

الطور الثالث : وهو طور الكمال ، فهو عبارة عن الدور العظيم الذي
قامت به قريش من الإصلاح ، حيث كانت تلتفح بلغات الأمم الأخرى ،
التي تتصل بها عن طريق التجارة ، وتأخذ عن لهجات القبائل العربية ما
تستحسنه ويزيد في ثروة لهجتها الخاصة .

والذي يدهشنا أكثر هو أن الأستاذ الرافعي يرى ويعتقد أن اللغة
العربية تحتوي على بقايا أثرية من المفردات قد هجرها الاستعمال ، لأنها
كانت تلائم بيئات خاصة ، وأزماناً خاصة ، وعقليات خاصة . ولكن
بعد أن تغير كل ذلك أصبح هذا مهجوراً . كما حدث في اللغة اللاتينية .
بالنسبة للغات الأوروبية الحديثة التي تلجأ أحياناً إلى اشتقاق جديد من تلك
الكلمات القديمة . يوضح الرافعي ذلك توضيحاً كافياً ، ويمقد المقارنة في هذا
بين العربية واللاتينية . وهذا صحيح . ولكن الغريب إنه لم يتنبه ولم
يشر مطلقاً إلى جواز حدوث مثل هذا أيضاً في علامات الإعراب وأثر
الزمن والتطور فيها . بل إنه سار في بحشه كله على افتراض أن علامات
الإعراب كما هي بالوضع الحالي قديمة في اللغة ، وإن العرب كانوا ينطقون
بها كما نراها .

وهو حين يتناول مراحل الإصلاح في اللغة يتكلم عن الإصلاح الذي يشمل النطق والمعنى والأسلوب ، ولا يشير إلى علامات الإعراب . وكذلك حين يتكلم عن البقايا الأثرية في اللغة يتناول المفردات المهجورة بواسطة الاستعمال ، ولا يشير إلى بقايا علامات الإعراب قديماً . وبالرغم من موقفه هذا فإن بحثه في كتابنا الناحيتين يقدم لنا دليلاً آخر على أن علامات الإعراب بدورها لا بد وأن تكون عرضة للإصلاح كالألفاظ والتراكيب سواء بسواء واعترافه كذلك بوجود بقايا أثرية في اللغة مهجورة الاستعمال يشير من ناحية أخرى إلى ضرورة وجود بقايا أثرية في علامات الإعراب سواء بسواء (١)

ولعل المثال الذي ذكره الراجعي في آخر هذا البحث من تاريخ استعمال هذا الإصطلاح . « نحن فعلنا » يشير من بعد إلى التطور في الاستعمال . وهذا في الواقع بحث طويل يستحق منا عناية خاصة ، ويستلزم إحصاء شاملاً لتاريخ الاستعمالات العربية ، لقد كان هذا النوع من الدراسة هو موضوع بحث الأستاذ المستشرق يوهان فوك *Yohann Fück* في كتابه - العربية ، ومع اعترافنا بقيمة بحث هذا الأستاذ ومبلغ ما بذله من جهد في الاستقصاء والتحقيق ؛ فإننا نقرر أنه في حاجة إلى أن يتمدد حتى يصل إلى استقصاء الكثير من الجمل والتراكيب ثم يلاحظ تطور الاستعمال فيها على اختلاف

(١) - أنظر البقايا الأثرية في اللغة ج ١ ص ٦٢ - ٦٤

مصور كما كان ذلك صنيعه بالنسبة لبعض الألفاظ . ولا نشك في أن بحثاً
ن هذا النوع سيكون أجدى على اللغة وعلى النحو من تلك الأبحاث التقليدية
حالة التي تسير على نفس المنهج الذي رسمه القدماء لدراسة اللغة والنحو ؛
هو فوق ذلك يلقى ضوءاً على تاريخ اللغة والنحو فنفهم ما فيها من حيوية
ستعداد لمسيرة الزمان والمكان . ومن هذا تتضح قيمة ذلك البحث الذي
رنا إليه ، ويتبين مبلغ الجهود الذي ينبغي أن يوجه من أجله . وإذا كان
النوع من الدرس من شأنه أن يبعدنا إلى حد ما عن بحثنا في اللغة
لنحو ، إلا أننا لا نود أن نتجاوزه ونكتفي بمجرد الإشارة إليه دون أن نذكر
من الأمثلة باختصار لنرى نوع الاستقصاء في الأساليب ، ومبلغ ما يطرأ
بها من تغيير في العصور ثم نترك للقارئ بعد ذلك تقدير القيمة العلمية
عملية من وراء ذلك :

المثال الأول : يفهم من كلام سيبويه أن خبر - كاد - ، والغالب فيه
يكون فعلاً مضارعاً ، يطرده اقترانه بأن ، وإن كان بعض النحاة قد
هذا الاطراد بأنه لا يعنى الندره ولا الشذوذ .^(١)

وليس من شك في أن سيبويه قد بنى حكمه على الاستعمال العربي القديم ،

(١) - أنظر شرح الأشموني مع حاشية الصبان على الفية بن مالك - ج ١ . ص ٢٠٩ ؛
در اللوامع على همع الطوامع شرح جمع الجوامع ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

إذ أن موقفه من الخدثين ومن النصوص الدينية معروف^(١) وما يدل على
وجهة نظر سيبويه أنه حينما أورد في أمثله على - ككاد - بيتا من الشعر
والخبر فيه عبارة عن فعل مضارع بدون - أن - تأوله بتقدير أن ؛ وهو :
فلم أر مثملاً خباسةً واحداً * فنهنت نفسي بعد ما كدت أفعله

وإذا استعرضنا أساليب القرآن فيما يختص بكاد نجدها تستعمل الفعل
المضارع خبراً بدون - أن - مثال ذلك : وإن كدت لتردين ، ... فذبحوها

(١) - كان سيبويه يعتمد اعتماداً أولياً على الشعر العربي القديم فله من هذا الشعر
في كتابه نحو من ألف و خمسين بيتاً (١٠٥٠) ثم يأتي بعد الشعر العربي القديم
الآيات القرآنية حيث يورد منها نحواً من ثلاثمائة آية (٣٠٠) ، وهو لا يستشهد
من الأحاديث النبوية إلا بحديث واحد . أما الشعر الإسلامي فقد ضرب عنه صفحاً
وبالرغم مما نجده عند بعض الرواة من أن سيبويه قد خطأ بشاراً في جمعه نون على
يئنان وأن بشار بن برد قد هجا سيبويه بسبب ذلك فقال :

سيبويه يا ابن الفارسية ما الذي * تحدثت من شتى وما كنت تقبذ

أظلت تعنى سادراً في مساءتي * وأمك بالمصريين تعطى وتأخذ

وأن سيبويه قد أخذ بعد ذلك يستشهد بشعر بشار مخافة هجائه ، تقول بالرغم
من ذلك فإننا لا نجد أثراً لشعر بشار في كتابه ، وقد حقق هذه المسألة بعد

مناقشتها المستشرق يوهان فوك في كتابه - العربية - ص ٥٢

وما كادوا يفعلون ، وأن يكاد الذين كفروا ليزلفونك بأبصارهم ^(١) .

(١) - وها هي ذى إحصائية بالآيات القرآنية التي استعملت فيها كاد ، ومنها يتبين
أطراد الأسلوب القرآني في هذا الاستعمال دون أن يشذ في آية واحدة من هذه
الآيات البالغة أربعة وعشرين آية :

١١٧	آية	سورة التوبة	من بعد ما كاد يزيد قلوب فويقي منهم
٤٢	»	سورة الفرقان	إن كاد ليضلنا عن آمتنا لولا أن صبرنا عليها
١٠	»	سورة القصص	إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها
٧١	»	سورة البقرة	قالوا الآن جئت بالحق فذبجوها وما كادوا يفعلون
١٥٠	«	سورة الاعراف	قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني
٧٣	«	سورة الاسراء	وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك
٧٦	«	«	وإن كادوا ليستفزونك عن الأرض ليمخرجوك منها
١٩	«	سورة الجن	وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا
٧٤	«	سورة الاسراء	ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً
٥٦	«	سورة الصافات	نال تالله إن كدت لتردين
١٥	«	سورة طه	ن الساعة آية أكاد أخفيها
٩٠	«	سورة مريم	كاد السموات يتفطرن منه وتلشق الأرض
٥	«	سورة الشورى	كاد السموات يتفطرن من فوقهم
٨	«	سورة الملك	كاد تميز من الغيظ
٢٠	«	سورة البقرة	كاد البرق يخطف أبصارهم
١٧	«	سورة ابراهيم	تجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان

ولقد صارت الأساليب العربية في العصور الإسلامية على أساس
الاستعمال القرآني ، وأغلب ما اطلنا عليه من الشعر العربي والنصوص
الأدبية يورد هذا الاستعمال ، وحين يوجد الاستعمال الآخر فإنما يوجد
قليلاً نادراً .

وإذا ما وصلنا إلى العصر الحديث واستعرضنا أساليب اللغة فيه وجدنا
البيئات العربية تختلف في استعمال - كاد - ، ففي العراق مثلاً يحرص الكتاب
على أن يقرن الفعل المضارع بأن حين يقع خبراً لكاد .^(١) أما في مصر

-
- | | | | |
|----|---|-------------|---|
| ٣٥ | « | سورة النور | يكاد زيتها يضيء ولو لم تمشه نار |
| ٤٣ | « | سورة النور | يكاد سنا برقة يذهب بالأبصار |
| ٥٢ | « | سورة الزخرف | أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين |
| ٥١ | « | سورة القلم | وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر - سورة القلم |
| ٧٨ | « | سورة النساء | فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً |
| ٩٣ | « | سورة الكهف | وجد من دونها قوما لا يكادون يفقهون قولاً |
| ٧٢ | » | سورة الحج | يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا |
| ٤٠ | » | سورة النور | ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها |

(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي .)

^(١) - اقرأ مثلاً ترجمة الأستاذ أحمد عبد الباقي لكتاب - وادي الراقدين - مهدي
الحضارة . دراسة اجتماعية لسكان العراق في فجر التاريخ تأليف الأستاذ ليونارد
وولي ، فإنك تجد في هذه الترجمة مبلغ حرص المترجم على أن يقرن خبر - كاد - وهو
الفعل المضارع ، بأن المصدرية .

فكثيراً ما يستعمل الأديباء والكتاب هذا الفعل بدون - أن .

المثال الثاني :- ولعله أوضح من الأول في بيان ما أشرنا إليه هو ما نجد من تطور في استعمال هذه التراكييب : أنا الذى أفعل أو فعلت ، ونحن الذين نفعل أو فعلنا ، وأنت الذى تفعل أو فعلت ، وأنتم الذين تفعلون أو فعلتم ، وكذلك فى أنتما . وفى أنت ، وفى أنتن ، نجد فى هذه التراكييب بعد اسم الموصول تارة يسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول كما تقدم فى هذه الأمثلة ، وتارة أخرى يسند إلى اسم الموصول نفسه بدون نظير إلى الضمير السابق كأن يقال مثلاً فى التراكييب المتقدمة : أنا الذى يفعل أو فعل ، ونحن الذين يفعلون أو فعلوا وأنت الذى يفعل أو فعل ، وأنتم الذين يفعلون أو فعلوا ... الخ .

وهنا نجد النحاة يذهبون مذاهب عدة فى فهم هذه التراكييب ويتأولونها أويلات مختلفة كدأبهم فيما يدرسون ، وكل منهم يحاول أن يثبت وجهة نظره بأى وسيلة كانت ، ومن يطلع على اختلافاتهم وآرائهم ، وتأويلاتهم فى هذه الاستعمالات لا يستطيع أن يخرج من ذلك برأى ناضج ولا بفكرة واضحة لهذا فإننا نترك آراءهم جانباً ، ولا نتعرض لاختلافاتهم فإنها تفسد علينا فكرة التى نهدف إليها ، وهى بيان تطور الأساليب بتطور الزمن . وها من أولاء نحتكم إلى الاستعمال العربى نفسه هذه التراكييب لئى كيف كانت طريقة العرب فى العصور المختلفة فى التعبير عن هذه المعانى ، ومع ذلك فإننا نحيل من يريد من القراء أن يطلع على آراء النحاه وعلى اختلافاتهم

ليأخذ صورة من مناقشاتهم وتأويلاتهم ، نقول إننا نحيل هذا الفريق من
القراء إلى ما كتبه الأستاذ الشنقيطي عن هذه التراكيب بالذات (١) . كان
الاستعمال الغالب عند الجاهليين في هذا التركيب هو أن يعود الضمير في
الفعل التالي للاسم الموصول على اسم الموصول نفسه لا على الضمير السابق
وشاهد ذلك قول امرئ القيس : -

أنا الذي عرفت فضله * ونشدت عن حجر بن أم قطام

وكذلك يقول طرفه بن العبد في معلقته :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه * خمشاشا كرأس الحية المتوقد

وكذلك يقول أبو حرب الأعم وهو جاهلي من بني عقيل :

نحن اللذون صبجوا الصباحا * يوم النخيل غارة ملحاحا

وإذا ما جئنا إلى صدر الاسلام فإننا نجد تطوراً في هذا الاستعمال
فمرة يحافظون على الاستعمال القديم ، ومرة يأخذون في استعمال جديد ،
ذلك بأن يعيدوا الضمير في الفعل على الضمير السابق للاسم الموصول مثال
ذلك ما نجده في هذا البيت ، وهو لأحد الأنصار ، كما يفهم من المعنى ،
ولم يعرف قائله بالضبط (٢) .

نحن الذين بابعوا محمداً * على الجهاد ما بقينا أبدا

(١) الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع ج ١ ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤

(٢) الشنقيطي الدرر اللوامع ج ١ ص ٦٣

وهنا نلاحظ الاستعمالين في نفس البيت ، فالفعل - بايعوا - أسند إلى اسم الموصول ، والفعل - بقينا - أسند إلى الضمير السابق على اسم الموصول وهو - نحن - .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رجز لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاله في مبارزته لمرحب اليهودي يوم خيبر (1) :

أنا الذي سميتي أمي حيدرَه * ضِرْ غام آجام وليث قسورة

وفي هذا البيت نجد الفعل مسنداً إلى الضمير السابق على اسم الموصول ومن هذا الاستعمال أيضاً ما يروى لكثير عزه :

وأنت التي حببت كل قصيرة * إلى ولم تعلم بذاك القصائر

وهناك بيت آخر من الشعر يذكر الشنقيطي أنه لم يعثر على قائله (2) ،

هو :

وأنت الذي آثاره في عدوه * من البؤس والنعمى لهن ندوب

ولكننا حين نستخدم هذا المنهج الذي سلكناه في تطور الاستعمال لهذا تركيب نرجح أن هذا البيت جاهلي حيث اشتمل الفعل المتأخر على ضمير لموصول ، ولم يسند إلى الضمير المتقدم على الاسم الموصول .

أما القرآن فإننا لم نهتد فيه إلى استعمال لهذا التركيب بالرغم من قراءتنا

(1) الشنقيطي الدرر اللوامع ج 1 ص 62

(2) الشنقيطي الدرر اللوامع ج 1 ص 63

المترابضة لنصوحه ، ومن اطلعنا الكثير على فهارس الفاظه .

وفي العصر الحديث نجد أن الاستعمال الغالب لدى الكتاب والأدباء إنما هو استعمال صدر الاسلام ، أى اسناد الفعل التالى لاسم الموصول الى الضمير السابق كان يقال : هل أنت الذى فعلت هذا ؟ وهل أنتم الذين فعلتم ذلك ؟ ... الخ

وكنا نستطيع أن نمضى فى ذكر أمثلة مختلفة للأساليب المختلفة فى اللغة العربية ولكننا نكتفى بهذين المثالين فقط ، ونظرة فاحصة فى هذين المثالين وما تعرض فيها الأسلوب لتغيير واضح تهدينا إلى أن تغيير هذا الأسلوب فى التعبير يدل على ما كانت تخضع له اللغة العربية من تغير فى دائرة أوسع ويشبه هذا ما حدث فى اللغة الفرنسية بالنسبة لهذا التعبير نفسه . فلقد كانت هذه اللغة قديماً تستعمل :

أنا الذى فعل : *C' est moi qui a fait*

نحن الذين فعلوا : *C' est nous qui avaient fait*

أنتم الذين فعلوا : *C' est vous qui avaient fait*

ملاحظين فى كل ذلك أن الفاعل للفعل الأخير هو اسم الموصول بصرف النظر عما يشير إليه من الضمائر السابقة . ولكن هذه اللغة قد خطت فى هذا الاستعمال خطوة أخرى فجعلت الفعل الثانى خاضعاً للضمير السابق على اسم الموصول ، واستقرت على هذا الاستعمال حتى الآن ، وقد هجر الاستعمال

الأول هجراً تاماً ، فأصبحوا يقولون :

أنا الذى فعلت : *C' est moi qui ai fait*

نحن الذين فعلنا : *C' est nous qui avons fait*

أنتم الذين فعلتم : *C' est vous qui avez fait*

ومن المقارنة البسيطة بين هذين الأسلوبين فى العربية والفرنسية نجد أن مظهر التطور واحد فيها ، فبعد أن كان الفعل يسند أولاً إلى اسم الموصول أصبح فى كليهما يسند إلى الضمير السابق ، وليس من شك فى أن أثر عمل العقل واضح فى هذه الخطوة من انتقال الأسلوب إلى مرحلة جديدة ، إذ أن هذا التركيب فى حالته الأولى كان بسيطاً وربما أمكن أن نسميه ساذجاً لاتفكير فيه ، فليس أسهل من أن يسند الفعل إلى أقرب مذكور . أما فى حالته الثانية فإننا نحس بأن المعنى قد بدأ يتحكم فى اللفظ ، وأن العقل قد بدأ تبعاً لذلك يساير المعنى ولا يتأثر بظاهر التركيب وقد يبدو أن هذه التطورات وما شابهها قد تمت فى اللغة دون أن نحس بأثر لعمل العقل فيها وهذا صحيح لو قصدنا من ذلك عمل العقل الفردى ؛ ولكننا نريد عمل العقل الجماعى ، فإن لكل مجتمع عقله ومنطقه ، وميدان عمله إنما هو المظهر العام لحياة ذلك المجتمع بما فى ذلك اللغة ، والعلم ، والأدب ، والفن ، ولهذا فإن أكبر الشعراء وأعظم الكتاب ، وأرقى الفنانين إنما هم فى الحقيقة مدينون إلى حد ما بالنسبة لبيئاتهم ومجتمعاتهم .

والآن بعد هذا الاستطراد الذي جرننا اليه ما لاحظته الأستاذ مصطفى صادق الرافعي من تطور بعض أساليب العربية نعود اليه لنناقشه في وجهة نظره من ناحية تهذيب اللغة ، ولكن قبل أن نبدي في ذلك رأينا نحب أن نضيف اليه أن لفظ قريش ، الذي نسبت إليه القبيلة العربية في بلاد الحجاز والذي نسبت إليه لهجتها كذلك ، لم يكن اسماً لشخص معين وإنما هو لقب أعطى للنضرين كنانة ، الجند الثاني عشر للرسول صلى الله عليه وسلم ، كما يذهب إلى ذلك جمهور العلماء ، ويرى فريق آخر أن هذا اللقب أعطى لفهر بن مالك ، حفيد المتقدم . وسواء لدينا أكان هذا اللقب قد أعطى للنضر أم لفهر فإننا لا نظن أن اللهجة القرشية أخذت في وسائل التهذيب والإصلاح منذ ذلك العهد وإنما بقيت شأن غيرها من اللهجات الأخرى حتى أيام قصى إذ أن القرشيين كانوا في ذلك العهد محتلطين بجرهم وخزاعة الذين كانت في يدهم ولاية البيت والسيادة على مكة ، ولكن قصياً هذا هو الذي جمع أشنات قريش وحارب هاتين القبيلتين . واستخلص منها أمر مكة وولاية البيت ، ومن هذا التاريخ تستقر قريش وتسمو مكة وتبدأ في تزعم القبائل العربية الأخرى وتبعاً لهذا الاستقرار وتلك الزعامة تأخذ اللهجة القرشبية في سبيل التهذيب والإصلاح ^(١) .

والذي نراه بالنسبة لما لاحظته الأستاذ مصطفى صادق الرافعي هو أنه

(١) انظر سيرة ابن هشام ج: ١، ص: ١١٢؛ وأسواق العرب للأفغانى ص: ٧٥ - ٩٤

قصد من التهذيب والإصلاح تهذيب اللغة نفسها من حيث اللفظ والمعنى والأسلوب أما من الجهة النحوية أى ضوابط التراكيب وحالات الإعراب فلم يلتفت إليها ولم يدخل لها فى مراحل التهذيب حساباً ؛ ومعنى هذا أن ضوابط النطق ثابتة منذ القدم ، أى أن الفاعل منذ الطور الأول من أطوار نمو اللغة مرفوع ؛ والمفعول منصوب ؛ والأسماء الخمسة مرفوعة بالواو ومنصوبة بالألف ومجرورة بالياء ؛ وكذلك الشأن بالنسبة للثنى ؛ وجمع المذكر السالم ؛ وما لا ينصرف ، وجمع المؤنث السالم ... و... و... إلى آخر ما نجده فى أقسام الكلام من خضوع لقواعد الإعراب ؛ وهذا ما لا يمكن أن نسلم به ، إذ أنه يقربنا من الاعتقاد بأن اللغة توقيفية وكذلك النحو . وقد ظهر لنا مادياً وعقلياً فساد هذا الرأى .

نتيجة البحث فى النحو بمعناه الفنى

والآن بعد فراغنا من البحث فى النحو بمعناه الفنى ، وبعد الذى أبديناه من ملاحظات عامة على نشأته ، وتطوره ، وبعد الذى سجلناه من نتائج جزئية فى ثنايا هذا البحث ، نريد أن نصل بالقارئ إلى الهدف البعيد الذى قصدنا إليه ؛ ذلك هو تخليص العقل من تلك الأفكار القديمة التى كانت تنظر إلى تراثنا العلمى نظرة إجلال وتقديس فتطوف حوله درساً وفهماً ، ولكنها لا تجرؤ على نقده ولا على إظهار ما فيه من

أخطاء . ولعل هذا كان أثراً من آثار النزعة الدينية والسلطان الروحي
الذي أشرنا إليه وعللناه فيما مضى .

لقد رأينا أن اللغة ظاهرة اجتماعية تدش مع المجتمع وتتطور بتطوره
ورأينا كذلك أن النحو بمعناه الفني جزء من ماهية تلك اللغة ؛ وإذن
فلا بد وأن يكون كل منها قد مر بحالات متعددة مختلفة فمن السداجة ،
والبساطة إلى النمو والنضوج . وإذا كان من المسلم به أن اللغة العربية قد
وصلت إلى درجة الكمال أيام نزول القرآن الكريم ، وإذا كان من
المسلم به أيضاً أن النحاة ، بصرف النظر عما وقعوا فيه من اضطراب نتيجة
أبحاثهم المحدودة ، وتفكيرهم الضيق ، قد وضعوا قواعدهم بناء على
ماوقفوا عليه من النصوص اللغوية ، وما عرفوه من أساليبها ، فإنه ينبغي
أن يكون من المسلم به أيضاً أن تستمر اللغة متأثرة بحالة المجتمع الذي
تعيش فيه ، ولا تستقر على الحالة التي كانت عليها أيام نزول القرآن الكريم
وهذا ما يهدى إليه العقل ويؤيده الواقع ؛ فإن مئات الألفاظ الجديدة قد
دخلت في اللغة العربية ، وكذلك مئات الأسماء الأجمعية التي لم يكن للعرب
عهد بها من قبل ، ومئات التراكيب المتغيرة التي لم تعرف في تراكيب
العربية ولا في أساليبها ؛ بل إن الأمر في هذا الجديد ، وفي تلك الإضافات
لم يقف عند بيئة عربية واحدة ، وإنما تعدى ذلك إلى كل البيئات الإسلامية
التي اتخذت اللسان العربي أداة للتفاهم بين أفرادها ؛ فمريسة الحجاز الآن
غير عربية العراق ، وعربية العراق غير عربية سوريا ، وعربية هذه الأقطار

الثلاثة غير عربية مصر ، وعربية مصر غير عربية بلاد شمال أفريقيا ؛
وما جند في كل قطر من هذه الأقطار يخالف ، الى حد ما ، ما جند في
غيره من الأقطار الأخرى . وليس في ذلك شيء من الغرابة ؛ إذ أن
اللغة مرآة البيئة . وسجل المجتمع ، وترجمان فلسفته في الحياة ، ودرجته من
العلم ، والفن ، والأدب . وما دامت الأقطار الناطقة باللغة العربية مختلفة
في بيئاتها ، متفاوتة الدرجة فيما ذكرناه من مظاهر الرقي العقلي والاجتماعي ،
فإن اللغة لا بد وأن تختلف ، وتتفاوت أيضاً تبعاً لذلك . وهذا هو ذا
الأستاذ يوهان فوك — *Johann Fück* يقدم الدليل على ذلك فيما ذكره
في كتابه — العربية — ؛ فإنه قد تناول الجديد في اللغة العربية عصر
الإسلام ، فعصر الأمويين ، ثم عصر العباسيين ؛ وهذا الجديد يشمل على
ما استحدث من ألفاظ ، ومن عبارات ، وحتى من أخطاء .

وإذن فليس صحيحاً ما ذهب اليه القدماء أمثال ابن النديم ^(١) ؛ من أن
اللغة العربية قد ثبتت بنزول القرآن الكريم ، وجمدت من بعده ؛ بل أن
صنيع القرآن نفسه يعتبر مرحلة من مراحل تطور اللغة العربية في ألفاظها
وفي تراكيبها ؛ فقد رأينا مثلاً أسلوب القرآن وطريقته في استعمال
- كاد - ^(٢) ؛ إذ أنه قد ضرب صفعاً عن استعمال العرب قديماً لهذا الفعل

(١) انظر ما تقدم من كلام ابن النديم في كتابنا هذا « اللغة والنحو » ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) انظر الإحصائية التي جمعناها في كتابنا هذا « اللغة والنحو » لاستعمال القرآن

بالنسبة للفعل - كاد - وما تفرع منه ص ١٣١ ، ١٣٢ .

وتخير له أسلوباً لم يشذ عنه في آية واحدة من آياته ؛ ذلك أنه استعمل الفعل المضارع
خبراً لكاد دون أن يكون مقترناً بأن المصدرية .

وها هو ذا مثال آخر نضيفه هنا الى هذا المثال لترى الى أى حد كان
القرآن في بعض الأحيان يلتزم أسلوباً واحداً لا يحيد عنه في استعمال فعل
من الأفعال ، او تركيب من التراكيب بالرغم من استعمال بعض العرب
لهذا التركيب او لذلك الفعل استعمالاً آخر ؛ ذلك المثال هو عسى وطريقة
استعماله . فالنحاة يقررون أنه يغلب استعمال - عسى - في تركيب يكون
الخبر بدون أن ، ويستشهدون على ذلك بأمثلة منها هذا البيت :

عسى الكرب الذي امسيت فيه :- يكون وراءه فرج قريب . (١)

وكذلك بيت الفرزدق حين توعدده الحجاج الثقي :

وماذا عسى الحجاج يبذل جهده * إذا نحن جاوزنا حفير زياد

اما القرآن فتمد استعمال - عسى - في ثلاثين موضعاً ليس فيها مثال

(١) هذا البيت لشاعر من غزوه كان يعيش في صدر الإسلام أيام

معاوية ، واسمه هديبه بن كخشم بن كرز ؛ وهذا البيت ضمن ابيات قالها
في المجلس . (انظر اخباره في الشعر والشعراء لابن قتيبه تحقيق وشرح احمد

محمد شاكر .. طبع القاهرة سنة ١٣٦٤ . ٢٠٠ ص ٦٧١ - ٦٧٦)

واحد يكون الخبر فيه مجرداً من — ان — . (١)

(١) وها هي ذه إحصائية باستعمال القرآن للفعل عسى :

٢١٦	البقرة	عسى ان تسكرهوا شيئاً وهو خير لكم
٢١٦	»	وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم
١٩	النساء	فعسى ان تسكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً
٨٤	»	عسى الله ان يآسف يأس الذين كفروا
٩٩	»	فأولئك عسى الله ان يعفو عنهم
٥٢	المائدة	فعسى الله ان يأتي بالفتح او امر من عنده
١٢٩	الاعراف	قال عسى ربكم ان يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض
١٨٥	»	وان عسى ان يكون قد اقترب اجلهم
١٨	التوبة	فعسى اولئك ان يكونوا من المهتدين
١٠٢	»	خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم
٢١	يوسف	اكرمي مثواه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولداً
٨٣	»	فصير جميل عسى الله ان يأتيني بهم جميعاً
٨	الاسراء	عسى ربكم ان يرحمكم وإن عدتم عدنا
٥١	»	ويقولون متى هو قل عسى ان يكون قريباً
٧٩	»	عسى ان يبعثك ربك مقاماً محموداً
٢٤	الكهف	وقل عسى ان يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً
٤٠	الكهف	فعسى ربي ان يؤتيني خيراً من جنتك
٤٨	مريم	وادعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً

ولم يقف أمر استعمال القرآن عند هذا الحد ، بل هناك ما هو أقسى في
الحجة وأوضح في الدلالة من هذا : ذلك أنه أثر عن العرب ثلاثة طرق
في استعمال عسى ، الأول ، هو أن تلتزم - عسى - حالة الإفراد والتذكير
سواء أسندت إلى مؤنث أم مذكر ؛ وسواء أكان ذلك الاسم المتقدم عليهما
مفرداً أم مثنى أم جمعاً ، فيقال مثلاً : زيد عسى أن يقوم ، والزيدان
عسى أن يقوما ، والزيدون عسى أن يقوموا ، وهند عسى أن تقوم
والهندان عسى أن يقوموا ، والهندات عسى أن يقمن ، وهذه هي لغة أهل
الحجاز .

٧٢	النمل	== قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون
٩	القصص	لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا
٢٢	»	ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل
٦٧	»	فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين
١١	الحجرات	يا أيها الذين آمنوا لا يستختر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم
١١	»	ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن
٧	المتحججه	عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم موده
٥	التجريم	عسى ربه إن طلقك أن يبدله أزواجاً خيراً منك
٨	»	عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات
٣٢	القلم	عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون
٢٤٦	البقره	قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا
٢٢	محمد	فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض

الثاني ، هو أن تتغير عسى بتغير الاسم الواقع قبلها ، فتؤنث إن كان نثاً ، ونثنى إن كان مثنى ، وتجمع إن كان جمعاً ، وتفرد إن كان مفرداً ،
ال مثلًا : زيد عسى أن يقوم ، والزيدان عسياً أن يقوموا ، والزيدون
سوا أن يقوموا ، وهند عست أن تقوم ، والهندان عستا أن تقوموا ،
لمنذات عسين أن يقمن ، وهذه هي لغة بني تميم .

الثالث ، هو أن تسند - عسى - إلى ضمير مل جنس ضمير الفاعل ،
اقع خبراً لها ؛ فيقال مثلاً : عساني أن أقوم ، وعسانا أن نقوم ،
سأك أن تقوم ، وعساكم أن تقوموا ، وعسائهم أن يقوموا ؛ وعسائه أن
م . . . إلخ .

وقد أشار الزمخشري في كتابه - المفصل - ^(١) إلى هذه الطرق الثلاثة
كرها باختصار دون أن يعين اصحاب كل طريق ، إذ يقول : « فصل »
سرب في عسى ثلاثة مذاهب أحدها أن يقولوا عسيت أن تفعل كذا ؛
سيتما إلى عسيتين وعسى زيد أن يفعل كذا وعسياً إلى عسين وعسيت
سينا - والثاني ألا يتجاوزوا عسى ان يفعل وعسى ان يفعلوا وعسى ان
وا والثالث أن يقولوا عسأك أن تفعل كذا الى عساكن وعسائه ان يفعل

(١) - المفصل للزمخشري - ومع كتاب الفيصل بشرح المفصل للأستاذ محمد

الدين عبد الحميد . ج ٢ ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

إلى عساعن وعسائى أن أفعل وعسائنا أن تفعل .

وأمام هذا نجد أن القرآن قد ألزم في تبينه أسلوب الحجازيين على طول الطريق لم يشد عنه حتى في الآيات التي يسبق الجمع فيها - عسى - وذلك في ثلاثة مواضع : الأولى آية ٩٩ في سورة النساء ، والثاني ، آية ١١ في سورة الحجرات ، والثالث ، نفس الآية أيضاً من سورة الحجرات ، ثم أن القرآن ، مع التزامه لإفراد - عسى - ، لم يلجأ إلى الاستعمال الثالث ، وهو إسنادها إلى ضمير الفعل الواقع بعدها ، إلا في آيتين اثنتين وهما آية البقرة ٢٤٦ ، وآية - محمد - ٢٢ ، وذلك بسبب لفظي واضح ، وهو أن - عسى - قد فصل بينها وبين خبرها بحمالة طويلة فأسندت - عسى - إلى الضمير حتى لا يؤثر هذا الفصل في السماع ، وكثيراً ما يلاحظ القرآن في تعبيراته الناحية اللفظية ، وموسيقى الآيات . وقد لاحظ القراء هذه المسألة في كتابه - معاني القرآن - الذي لا يزال مخطوطاً ، وشرحها شرحاً بيناً ، وذكر لها عشرات الأمثلة في القرآن من ذلك قوله تعالى « والليل إذا يسر » بدل يسرى ، وقوله والذي خلقني فهو يهدين ، « والذي يطعمني ويسقيني وإذا مرضت فهو يشفين » .

ولعل هذا يدعونا إلى التفكير ملياً فيما ذكره النحاة وقررناه سابقاً من أن للحرب مذاهب ثلاثة في استعمال - عسى - إذ أننا لم نجد فيما اطلعنا عليه من كتب النحو ، والأدب والتاريخ ، والقراءات ، ما يشير إلى أن هذا

الاستعمال الثالث كان خاصاً بقوم بعينهم من العرب ، ونحن لا نستطيع أن نتصور ذلك لهجة من لهجات العرب ، أو لغة من لغات إحدى القبائل العربية ، وهذا في نظرنا لا يعدو أن يكون وليداً لظروف الكلام ، والمتكلم ومراعاة لحالة السامع أيضاً ، وليس فيه شيء من طبيعة لغة خاصة ، أو قبيلة بعينها ، كما نلاحظ ذلك في لغة الحجازيين ؛ أو في لغة التميميين ؛ حيث تنهض كل لغة على فروق جوهرية . وإذن فليس هناك سوى لغتين .

لغة الأفراد في عى ، ولغة المعاطبة ، وقد التزم القرآن الأولى منها . وما ذكرناه حتى الآن يدل في وضوح على مدى اختلاف الأساليب في اللغة العربية ، وعلى مبلغ الجهد الذى ينبغى أن نوجهه لدراستها ، ثم على مقدار ما يمكن أن نجنيه من وراء تلك الدراسة ، وذلك ، دون ريب ، على ضوء ما قدمناه من تمهيد ، ودرس ، وما ذكرناه من ملاحظات ؛ وسجلناه من نتائج أثناء بحثنا في النحو بمعناه الفنى .

علينا إذن أن نجرد أنفسنا من تلك الأفكار القديمة وأن ننظر إلى اللغة العربية ونحوها نظرة جديدة أساسها الإحساس النظرى ، والواقع الملموس ، وعلينا إذن أن ندرس اللغة والنحو دراسة واقعية فلا نحاول أن نرجع بها إلى العصور الجاهلية الأولى كما يصنع بعض اللغويين الآن ، فإن هذه اللغة نفسها قد استطاعت أن تسير الحياة ، وما جد فيها من تقدم فى كل نواحي المعرفة الإنسانية ، فيما قرب من أربعة عشر قرناً من الزمان ، ولينا نشك فى أن كل عصر من

هذه العصور قد طبع اللغة بطابع جديد ، وترك فيها آثاراً عديدة . وقبل
أن نختم كلمتنا هذه عن نتيجة بحثنا المتقدم نحب أن نذكر القارئ بأن كل ما
ذكرناه خاصاً بالنحو إنما نقصد منه النحو بمعناه الفني ؛ أي طرق الأداء
والتعبير نفسها ، وأما النحو بمعناه العلمي فسيكون لنا منه موقف آخر إن
شاء الله .



النحو بمعناه العلمى (١)

النوع الثانى من النحو ، وهو النحو بمعناه العلمى ، يقصد منه استنباط
واعد النطق الصحيح بناء على دراسة اللغة وفهم أساليبها وإدراك أسرار
لمرق الأداء فيها ، ثم تسجيل هذه القواعد لدراستها .
ونشأة هذا العلم بالنسبة للغات العديدة ، مختلفة من حيث الظروف التى
وجد فيها ومن حيث طبيعة العلم نفسه ومادته .

والأسباب التى دعت إلى نشأة النحو عند الشرقيين عامة تكاد تكون
واحدة ، ولكنها فى نفس الوقت تختلف الأسباب التى دعت إلى نشأة
لنحو عند الغربيين . فبينما نجد الشرق يحدوه فى وضع هذا العلم عامل روحى
ينبى ، إذا بنا نجد الغرب يحدوه فى ذلك عامل لغوى بلاغى اجتماعى ؛
الهندود حينما بدأوا يضعون نحوهم ويفكرون فى مسأله كان هدفهم من
ذلك المحافظة على لغة كتابهم المقدس - Vedas - وشرح أساليبه .

وكذلك الأمر بالنسبة للنحو السريانى ؛ فعند ما وجد السريان ،
سواء منهم النسطوريون أم اليعقوبيسون ، أن الفتح العربى قد امتد إلى

(١) انظر ص ٧٨ وما بعدها من هذا الكتاب

بيدائهم وإن اللغة العربية بدأت تنافس لغتهم ، فزعوا من ذلك وخافوا على
كتابهم المقدس - الإنجيل - من أن تمتد إليه يد التحريف فأخذوا في وضع
قواعد لضبط اللغة كي تحدد الطريقة التي تقرأ بها نصوص الإنجيل .

وكان الخوف على نصوص القرآن أولاً هو الذي دفع العرب إلى التفكير
في وضع النحو وقواعده ، ونحن نورد هذا الرأي معتمدين في ذلك على
الاتجاه العام عند الشرقيين في وضع أسس هذا العلم ، ومستندين إلى الروايات
العديدة التي تؤيد هذا بالرغم من الروايات الأخرى التي تتلمس لوضع
النحو الغربي أسباباً غير تلك الأسباب ، لا نجد محلاً لذكرها الآن ،
وسنعرض لها بالتفصيل بعد قليل .

أما اليونانيون فلم يكن الحافز لهم على وضع هذا العلم خوفهم من
أن يتسرب اللحن إلى لغتهم ، ولا حرصهم على نصوص مقدسة لديهم ؛ فقد
كانت اللغة اليونانية يوم فككروا في وضع هذا العلم - القرن الخامس قبل
الميلاد - في منتهى القوة والكمال وإن لم يكن لها ما ينافسها من اللغات
الأخرى ، ولكنهم كانوا مدفوعين إلى ذلك أولاً بسبب رغبتهم في شرح
شعر هوميروس وتفهم أساليبه ، وثانياً لتنشئة جيل يوناني قادر على تصريف
أوجه الكلام وإقناع الجماهير في خطبهم السياسية والتضائية .

ولأسباب تسكاد تكون مشابهة لذلك نشأ النحو اللاتيني ، فالروم ،
فوق رغبتهم في تقليد اليونانيين بالنسبة لهذا العلم ، أرادوا تثبيت لغتهم

شرح أساليبها وأرجح الجمال فيها . وأول محاولة لهم في ذلك كانت في
نرون الثاني قبل الميلاد .

وهذه الظاهرة المناصة بنشأة علم النحو ليست في الواقع سوى جزئية من
أهرة عامة تسود الشرق بحملته ، وظاهرة عامة أخرى تسود الغرب بحملته ،
في القدم والشرق يحدوه في تفكيره وفي أنظمتهم الاجتماعية وفي فلسفته وفي
ومع معنى روجي يتخلع دائماً إلى السماء ، إلى الله ، إلى حياة أخرى لا خطر
أدية فيها ، وكل ما شاهدناه من آثار حضارات الشرق ومن إنتاج عقلي
في الشرقين إنما هو ناتج عن هذا المعنى الروحي ، سواء أكان ذلك عن طريق
إشارة عن طريق غير مباشر . فكان الملوك عندهم يمثلون الآلهة على الأرض وأنظمة
قوانين المجتمع مستمدة من الآلهة أو من مشايخهم . وهكذا في
شرق النواحي مما يدل على تغلغل هذا المعنى في البيئات الشرقية وتمكنه في
وس الشرقين ، حتى لقد أصبح في كثير من الأحيان مظهر التقدم
الشرق والطابع الغالب في الثقافات الشرقية ، ولهذا فليس عن طريق الصدفة
، كان الشرق مهد الأديان (سواء في ذلك الأديان الوثنية أم الأديان
حماية) . والمجال هنا واسع لدرس هذه النظرية وتحليلها ثم إثباتها
أية للعصور التاريخية مدعومة بالأدلة ، ولكن ليس هنا مكان ذلك
صل التفكير والبحث التحليلي العميق ، غير أننا نكتفي بالإشارة فقط
، أن الشرق بوجه عام قد مر بمرحلتين واضحتين وهو في كتابها كان متأثراً

إلى حد بعيد بذلك المعنى الروحي ولا تكاد نحس بأثر السلطان المادى فى هاتين المرحلتين الطويلتين :

المرحلة الأولى

هى مرحلة الديانات الوثنية على اختلافها من عبادة الكواكب ، والنار ، والملوك ، والحيوانات ، والنباتات وغير ذلك من القوى الطبيعية ممتدة فى أوثان . وكانت الزعامة لهذه الديانات تكاد تكون محصورة فى بيئتين اثنتين ، إحداهما وادى النيل ، والثانية وادى دجلة والفرات . وحضارات هاتين البيئتين قديماً تفيض بذلك المعنى الروحي الذى أشرنا إليه ولا تترك مجالاً للشك فى تغليب السلطان الروحي ، وفى استلهام الروح لوضع أنظمة المجتمع .

المرحلة الثانية

هى مرحلة الأديان السماوية على اختلافها أيضاً من يهودية ومسيحية وإسلامية . وكانت الزعامة لهذه الأديان محصورة بدورها أيضاً فى بيئتين اثنتين ، إحداهما بيئة الشام ، والثانية أرض الحجاز فى شبه الجزيرة العربية ، والطابع الغالب فى هذه الأديان أيضاً هو طابع روحي ، إذ أنها تتجه بنظر الإنسان وتفكيره أولاً إلى القوة الخالقة والمهيمنة على هذا الكون ، ثم أنها تهدف أول ما تهدف إلى إصلاح الروح عند الإنسان ،

مقتنعة بأن إصلاح المجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا على أساس الإصلاح
الروحي . وعلى العكس من ذلك كما نجد المعنى المادى الواقعى سائداً عند
الغريبيين وأساساً لحضاراتهم ولإنتاجهم العقلى حتى فيما من شأنه أن يكون
خاصاً بالمعنى الروحي كالأديان ، فإنهم صوروها فى كثير من الأحيان
تصويراً مادياً وجعلوا منها أداة لرقى المجتمع المادى قبل أن تكون
أداة للإصلاح الروحي .

* * * * *

نعود الآن الى موضوعنا الاصلى وهو نشأة النحو العربى ، ومن هنا
الغرض الذى بسطناه آنفاً عن الظاهرة الروحية العامة عند الشرقيين
يتضح لنا أن الحافظ الأول الذى دفع العرب الى التفكير فى وضع علم
النحو هو الخوف على نصوص القرآن من أن تمتد اليها يد التحريف .
وهذا هو الرأى الذى نظمته اليه وتؤيده الوقائع ، وسنحاول إثباته بما
توفر لنا من اطلاع وبما استطعنا أن نهتدى اليه من استنتاج ، وفى توضيح
هذه المسألة والاهتداء الى رأى فيها توضيح لمسألة أخرى شائكة ، قد كثر
فيها الكلام ، وطال الجدل ، ولم يفته العلماء فيها الى رأى قاطع . تلك هى
مسألة تاريخ نشأة النحو العربى .

وهنا قبل أن نبدأ الكلام على سبب نشأة النحو العربى ، وتاريخ تلك
النشأة نحب أن نقضى على روح التشاؤم التى تسيطر على أفكار بعض

العلماء المحدثين . تلك الروح التي لا يقرها العلم في مختلف صورته ، ولا تعترف بها مناهج البحث الحديث ؛ وأنت تبعد من حسابنا تلك الفكرة القائلة باستحالة الاستناد إلى تاريخ وضع النحو العربي ، وتعد معرفة واضعه . فما هو ذا الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يذكر في جراءة وصراحة هذا النص : « أما تاريخ وضع النحو فلا سبيل إلى تحقيقه البتة »^(١)

ثم يذكر الأستاذ ابراهيم مصطفى نصاً آخر في هذا المعنى مستنداً فيه على نفس المؤلف المتقدم « إن معرفة واضع النحو في العربية يكاد يكون معضلة »^(٢)

هذه الأفكار وأمثالها ، عندنا معشر الشرقيين ، مشبعة للهمم مدعاة إلى التواكل والاستسلام . وليس أخطر على الشرق من أن تنتشر فيه هذه الروح ، وأن تعرف عنه تلك العقيدة ، لأنها تجعل الشرقيين يفقدون الثقة في أنفسهم ، وحينئذ لا مناص لهم من الاعتماد على الغير يأخذ بيدهم ، ويمدهم بأبحاثه ، ثم لا يكون لهم من الجرأة الفكرية ما يستطيعون

(١) انظر الجزء الأول من تاريخ آداب العرب ص ٢٦٦

(٢) انظر بحث الأستاذ ابراهيم مصطفى عن - أول من وضع النحو - في مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد في المجلد العاشر ، الجزء الثاني ديسمبر

سنة ١٩٤٨

براسطتها تحليل هذه الأبحاث ولا نقدها كما صنّع ، ويصنع الغرب حتى الآن ؛ وليس أدل على ذلك من تلهف الشرقيين على أبحاث المستشرقين وعلى آرائهم يأخذونها في كثير من الأحيان حجة مساهمة دون مناقشة ؛ بل ربما تمدحوا بذكرها والاطلاع عليها .

بعد هذه الملاحظة الخاصة بالروح العامة عند الشرقيين ، وبعد الدراسات الطويلة لتاريخ العلوم عند العرب ، وإدراكنا مبلغ حرصهم على الآثار الدينية ، نستطيع أن نؤكد بأن السبب المباشر في وضع النحو هو فرع العرب وخوفهم من أن يتسرب الخطأ واللحن إلى نصوص القرآن . وإذا كان هناك ما يفهم منه حرصهم على اللغة نفسها ، فليس ذلك إلا لأن اللغة أداة لقراءة النصوص القرآنية

ولو نظرنا نظرة إجمالية إلى العلوم العربية في العصور الإسلامية الأولى ، وجدنا أنها نشأت لخدمة القرآن أو تفرعت عن نصوصه ، إذ أن القرآن ان بمثابة المركز الرئيسي : كل المعارف العربية مجسدة له ، وكل العلوم عربية الخالصة محيطة به . ولم يكن النحو في الواقع سوى حلقة هامة ن سلسلة تلك العلوم التي تخدم القرآن ، وتحافظ على نصوصه .

والذين يقولون غير ذلك تعوزهم الفكرة العامة ؛ والنظرة الشاملة لنسبة للعلوم الإسلامية كلها . ثم إنهم -- في اعتقادنا -- لا يستندون بما يقولون على رأى ناضج ، ولا على منطق سليم . ولعل أهم وأكثر

الأخطاء التي تقع فيها إنما مصدره النظرة الجزئية التي تنصب على ناحية خاصة دون اعتبار للكليات .

ولو كان مجرد اللحن في اللغة مدعاة لوضع اللحن لوجدنا على الأقل محاولات فيه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم أو أيام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ إذ أن اللحن موجود في البيئة العربية منذ ذلك التاريخ بل نعتقد أنه أقدم من ذلك عهداً ، فالبيئة العربية منذ مئات السنين قبل الإسلام كانت تعتبر مأوى للمهاجرين وطلاب الكسب من الأمم الأخرى مثل اليهود والفرس والأحباش والروم .

ولانريد أن نذهب بعيداً فنذكر هجرة الآشوريين والبابليين منذ ألفي سنة تقريباً قبل ميلاد المسيح . ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يتكلمون العربية حتى يتنزه لسانهم عن اللسنة الأجنبية ويسلم منطقتهم من اللحن والأخطاء . ومن يدرس الحالة الاجتماعية للقبائل العربية قبل الإسلام ، ويبحث على الخصوص في الحالة التجارية التي تسيطر على كل نشاط آخر في شبه الجزيرة العربية ، أو يلاحظ حركة الأسواق السنوية ^(١) التي تقام

(١) اختلف العلماء في عدد أسواق العرب ، فبعضها القلقشندي في صبح الأعي ٨ ، وبعضها البغدادي في تاريخه والبغدادي في خزائنه ١٠ ، وبعضها المرزوقي في الأزمنة والأمكنة ١٧ ، وبعضها الألبوسي في بلوغ الأرب ١٤ ، =

في أكثر من عشرين مدينة تحيط بشبه الجزيرة من كل نواحيها — من شواطئ البحر الأحمر إلى شواطئ المحيط الهندي ، إلى شواطئ الخليج الفارسي إلى البادية الشمالية الواسعة الممتدة من ريف العراق إلى بلاد الشام — ويعرف مبلغ ما كان يحدث في هذه الأسواق من اختلاط العرب بغيرهم من اليهود والفرس والروم ، وما يتبع ذلك من استيظانات بعض هؤلاء

ويعدها الهمداني في صفة جزيرة العرب ٥٠ ، ويعدها الأستاذ الأفغاني في أسواق العرب ٢٠ .
وسنذكر بعضاً من هذه الأسواق تاركين الخلافات الكثيرة بين المؤلفين القديما :

١ دومة الجندل : وهي في منتصف الطريق بين البصرة والعقبة ، وكانت تقام في أول ربيع الأول حتى منتصفه وأحياناً حتى آخره .

٢ المشقر : بالبحرين قريباً من هجر على شواطئ الخليج الفارسي ، وتبدأ السوق من أول جمادى الآخرة وتستمر حتى نهايته .

٣ هجر : وهي بالبحرين أيضاً على شاطئ الخليج الفارسي ، وتبدأ حيث تنتهي سوق دومة الجندل ، فكانوا ينتقلون إليها مباشرة في أول ربيع الثاني .

٤ عمان : في جنوب الخليج الفارسي وتمتد على ساحل بحر اليمن ، وتبدأ حيث تنتهي سوق هجر ، وتستمر حتى آخر جمادى الأولى وروادها فرس وهنود وأحباش ويمينيون وحجازيون وشأميون .

الأجانب في المدن التي تقام فيها الأسواق قياماً بالتجارة أو طلباً للكسب عن
أى طريق آخر ، تقول أن من يدرس هذه الحياة الاجتماعية ويلاحظ ما
كان فيها من ذلك لا يحضره أدنى شك في أن المجتمع العربي القديم كان
يجرى فيه اللعن على السنة هؤلاء الأجانب ، وربما على السنة بعض العرب
أنفسهم الذين يستكثرون من مخالطة هؤلاء الأجانب ، والذين لم يكونوا من
السادة ، ولا من المتطرفين في المحافظة على اللسان العربي ، وفي استقامة

-
- ٥ حباشه : في تهامة فيما بين الحجاز واليمن وكانت تقام في رجب
٦ صحار : في أرض عمان وهي واقعة على شاطئ خليج عمان ، وتقوم
السوق من ١٠ رجب الى ١٥ منه أي بعد انقضاء سوق حباشه .
٧ دبا أودبي : في أرض عمان أيضاً وتقوم سوقها بعد انقضاء سوق
صحار وتستمر حتى منتصف شعبان ، وهي تقع أيضاً على الساحل شمال
صحار .
٨ الشحر : على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية بين عدن وعمان
وتقوم سوقها في منتصف شعبان .
٩ عدن أبين : تقع على بحر الهند جنوبي مضيق باب المندب نحو الشرق
وتقوم سوقها بعد الشحر في مدة العشر الاول من رمضان .
١٠ صنعاء : في بلاد اليمن ، وهي العاصمة وسوقها تقام من رمضان
حتى آخره .

التركيب الصحيح. وينبغي أن نطمئن تماماً إلى أن ما وصل إلينا من النصوص الأدبية القديمة لا يمثل اللغة العربية تمثيلاً صحيحاً كاملاً ، فإن لغة الشعر غير لغة الخطاب ، والعبارات التي تروى وتؤثر غير العبارات التي يتم بها التفاهم وأحاديث السادة غير أحاديث السوقة ، وينبغي أن نطمئن أيضاً إلى أن بعض العرب كان يستلطف وجود اللحن في اللغة ويتبرم من سماعه ، فلم تكن غيرة الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين من بعده على سلامة النطق وليدة أيامهم

١١ حضر موت : وهي منطقة واسعة في جنوب شبه الجزيرة بين عدن وعمان ، وسوقها تقام على رابية بها ، فتعرف أيضاً بسوق الرابية من ذي القعدة حتى آخره . وربما لها الواسعة تعرف بالاحتفاف .

١٢ عكاظ : بين مكة والطائف وهي السوق العامة للعرب في الجاهلية وهي تقوم في ذي القعدة ، ويرى أكثر الرواة أنها تبدأ أول القعدة إلى ٢٥ منه .

١٣ مجنة : شمال عكاظ قرب مكة وتقوم السوق في العشر الأخير من ذي القعدة بعد انتهاء سوق عكاظ .

١٤ ذي الحجاز : شمال غرب مجنة وتقوم سوقها في أول ذي الحجة بعد انتهاء سوق مجنة مباشرة .

١٥ نطاق خمير : وخيبر قرية شمال المدينة ؛ بينها وبين تبوك . ونطاق اسم حصن بها ، واسم عين أيضاً . وفي القرية حصون كثيرة لليهود ، وأهلها يهود جاءوا إلى الحجاز قديماً واشتغلوا بالزراعة والتجارة .

كما لم يكن التحريف في عهدهم بأدرة جديدة لم يسبق لها مثيل ، ويذهب أيضاً
ألا نساير القائلين بعصمة العربي من اللحن ؛ وبعد اللغة في العصر الجاهلي عن
أى تحريف ، فهناك من أسرار اللغة ودقائق التعبير ما لا يمكن أن يدرك
بتأمل ، وعناية ، ومران . وأما من ذلك صور حية في اللغات الحديثة
التي يعرف أهلها بلا استثناء القراءة والكتابة ومع ذلك لا يسلم لسانهم من
الخطأ ، ولا يتفقون جميعاً على النطق الصحيح ، فما بال العرب إذن وهم قوم
أغلبهم أميون ؛ وكانوا يعيشون قبائل متفرقة ؟

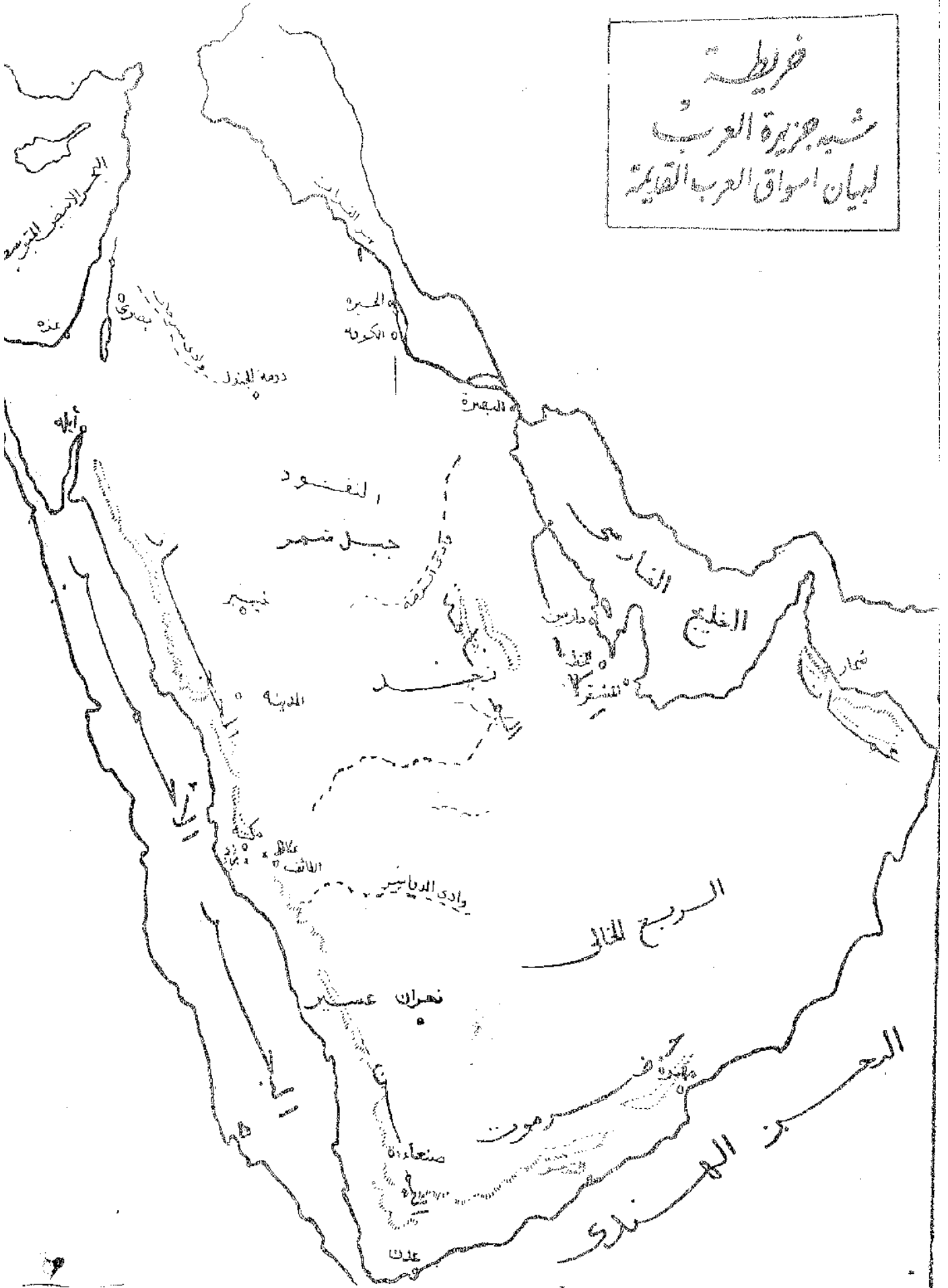
ولكى نرى إلى أى حد كانت بلاد العرب معرضة لنجى الأجناب يكتفى
أن نعرف ما كان يوجد في مكة نفسها من بيوت تجارية للروم الذين كانوا
يستخدمونها في أغراض أخرى كالتجسس على العرب ، وكذلك ما كان فيها
من أحباش أيضاً يقومون مقام السفراء في الشؤون التجارية بين العرب وأهل

وكانت من أغنى بلاد العرب ، بل هي مصرف الجزيرة المالي . وسوقها
تقام بعد ذى الحجاز أى بعد أشهر الحج .

١٦ حجر : في بلاد اليمامة وهي غربي البحرين وجنوب العراق ،
وكانت تقوم بين عاشوراء وآخر المحرم .

١٧ بصرى : في مشارف الشام ، وهي عاصمة صوران .

خريطة
شبه جزيرة العرب
لبیان اسواق العرب القابضة



إن من يلاحظ كل هذه الاعتبارات ، ويدرك مداها ، يستطيع في سهولة أن يتصور مبلغ ما كان فاشياً من اللحن في البيئة العربية قبل الإسلام . فهو بلا شك أكثر مما تحدث عنه الرواة ، ووصل إلينا صداه .

وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى عند العرب جديرة بالاعتبار فيما نحن بصدد الحديث عنه ، إذ أنها ترينا بصورة واضحة مقدار تعرض المدن العربية إلى استيطان الأجانب ، ومبلغ ما يكون لهؤلاء الأجانب من أثر على اللغة ، تلك هي ظاهرة الفتيات الأجنبية ، من روميات إلى فارسيات إلى حبشيات ، اللاتي كن يقمن في البيئات العربية ، إما في صورة إماء ، وإما لاحتراف مهنة البغاء . وكان ذلك فاشياً عند العرب في الجاهلية أكثر مما نستطيع أن نتصوره . ونعتقد أن سادة العرب ، ورؤساء القبائل كانت مقر لأولئك الفتيات هذه المهنة ، إذ أننا نجد البغيات يقمن في أسواق العرب ، على الخصوص في سوق دومة الجندل ، أخبية خاصة لمباشرة هذا العمل .

(١) انظر بفر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ١٥

وقد عرف كذلك أن أول غزوة لبلاد العرب قام بها الروم في عهد لامبراطور أغسطس كانت قائمة على صلاتهم ببلاد العرب وأعوانهم فيها قد تحدثت كتب التاريخ اللاتينية عن هذه الحملة الحربية ، وعزت سبب نهاها إلى عدم إخلاص أعوانهم وجواسيسهم في بلاد العرب .

وتعرف أن بعض العرب كان يتخذ من هذه الأماة مورداً للكسب ، ولم يكن ذلك قليلاً أو نادراً ، بدليل اهتمام الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المسألة ونهى القرآن عنها « ولا تذكروها فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ؛ ومن يصدكهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم (١) »

وحسبنا في هذا أن نعلم أن أم عنزة بن شداد كانت حبشية اسمها زبيدة ، وأن أباه لم يلحقه بنسبه إلا بعد أن ظهرت مواهبه في ميدان الرجولة ؛ وفي ميدان الأدب ، وقد توفى عنزة هذا في سنة ٦١٥ م . ثم في أيام ظهور الإسلام نجد صهيبياً الرومي ، وبلالاً الحبشي ، وسلمان الفارسي ، وغير هؤلاء وأولئك كثير ممن أبلوا في المحنة الإسلامية الأولى بلاء حسناً ، وكان السادة من قريش يسمونهم أراذل الناس . وينبغي ألا يغيب عنا كذلك ما كان في شمال بلاد الحجاز من جالية يهودية كبيرة ، وما كان لها من صلات تجارية وثقافية متبادلة مع من جاورها من العرب .

لكل هذه الاعتبارات لا نستطيع أن ننفي وجود اللحن في البيئات العربية قبل الإسلام ، ولا في عهد الرسول ؛ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده . ولا نستطيع كذلك أن نقلل من كمية ما كان موجوداً في تلك العهود من لحن في اللغة العربية . وإذا كان الرواة قد حدثونا عن حوادث فردية وقع

(١) أنظر أسواق العرب للأفغاني ص ٤٥ ؛ ص ١٩٩ - ٢٠٠

يها لحن أمام الرسول وأمام الخلفاء الراشدين من بعده ؛ فثاروا له ونهبوا
لى إصلاحه فلتشق بأن أمثال هذا اللحن كان كثيراً . غير أن هذا اللحن
مع كثرته لم يكن ذا خطر ، ولم يكن هناك ما يخشى عليه من هذا اللحن .
القرآن كان محفوظاً فى ذاكرة الصحابة من العرب الخالص . ولم ينتشر
نفظه بين الكثير من الطبقات إلا بعد أن اتسعت الفتوح الإسلامية ،
امتد نفوذ الإسلام . وحينئذ يأتى دور اللحن الخطير ، ويخشى منه على
نصوص القرآنية فيفزع العرب كما فزع الهنود والسرمان من قبلهم ؛ ويهبون
تمسبون الوسائل لوضع ضوابط تحفظ القرآن من هذه الأخطار .

والنتيجة التى نريد أن ننتهى إليها من وراء هذا العرض هو أن السبب
بأشرف فى وضع النحو العربى ليس اللحن نفسه ، وإنما هو الخوف على
آيات القرآنية من أن تمتد إليها يد التحريف ، أن ذلك لم يكن بطبيعة الحال
م كان العرب مستقرين فى بيئاتهم الأولى ، ودولتهم تكاد تكون محصورة
بيشة الحجاز ؛ بل كان ذلك حينما انتقل سلطان الدولة الإسلامية إلى
ئات غير عربية ، وخضع لهذه الدولة أفواج عديدة من الأجانب
، فرس ، وسرمان ، وعبرانيين .

أريج اللحن فى العربية :

ليس من السهل أن نؤرخ لظاهرة اللحن متى وجدت ؛ كما أنه ليس من
سهل أن نؤرخ لأفراده ، أى ، أية لحنه وجدت أولاً ، ولكن من اليسير

أن تؤرخ لأنواعه ، بمعنى أى نوع من أنواع اللحن يمكن أن يكون قد وجد أولاً - وقبل أن نعرف اللحن وتؤرخ لمعرفةنا به نحب أن نمهد لذلك بالكلام عن أنواع اللحن ، وهذه الأنواع يمكن أن توضع في أربع طوائف :

الطائفة الأولى : لحن يخص علامات الإعراب مثل : متعلمين ^(١) ،

وممتنين ^(٢)

الطائفة الثانية : لحن يخص طريقة النطق كأن ينطق بالحاء هاء ، أو بالعاف

كافاً كمنطقى صهيب وبلال .

الطائفة الثالثة : لحن يخص بنية الكلمة مثل توضيت بدل توضأت ^(٣) .

ومعاش بدل معاش .

(١) إشارة إلى ما روى من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بقوم يرمون ، فاستقمح رميهم ، فقال : ما أسوأ رميكم !! فقالوا : نحن قوم متعلمين (بدل متعلمون) فقال عمر : لحنكم أشد على من فساد رميكم .

(٢) إشاره إلى لحن وقع من أبي حنيفة في هذه الكلمة ، حيث يذكر أبو هلال العسكري في كتابه - المعجم في بقية الأشياء - ص ٢٨ ، ٢٩ ، خبراً مسنداً ينتهى فيه السند إلى أبي عثمان المازني وسنعرض لهذا الخبر بالتفصيل بعد قليل .

(٣) هذه الحنة منسوبة إلى الحسن البصرى : وسسبأتى الكلام عليها

بعد قليل .

الطائفة الرابعة : لحن يخص وزن الكلمة مثل : رعد وبرق بدل أرعد وأبرق . . وما شاكل ذلك .

وسيتبين لنا بعد قليل أن هذه الأنواع الأربعة من اللحن يمكن أن تؤول إلى نوعين اثنين : إذ أن نوع اللحن الخاص بنطق الأجانب ، والذي هو وليد التكوين الطبيعي للقنوات الصوتية ولخارج الحروف فيها يمكن أن يصرف عنه النظر ، ولا يعد لحناً مستقلاً بذاته ، ولهذا فقد أهمله رجال اللغة ، ولم يلقوا إليه بالاً ؛ وكذلك لم يكن له من الخطر على اللغة ما يخشى منه ، فلم يقابل من العرب الخالص قبل الإسلام وبعده بمثل ما كان يقابل به أى نوع آخر من أنواع اللحن .

وأما الطائفة الثالثة والرابعة فيمكن اعتبارهما نوعاً واحداً من اللحن إذ أن اللحن في بنية الكلمة لا يكاد يفرق عن اللحن في وزنها ، وسيظهر بعد قليل أن خطرهما واحد ، وأنه في درجة أقل من اللحن في الإعراب . وإذن فنحن أمام نوعين من اللحن هما : اللحن في علامات الإعراب ، واللحن في بنية الكلمة أو في صياغتها ؛ ومع ذلك فأنتنا نستطيع أن نقول ، على ضوء ما تقدم ، إن لسكنة النطق هي التي يمكن أن تكون قد سبقته كل الأنواع الأخرى ، ولم تكن فيما نظن عظمة الخطر ، بل كان لا بد للعرب الخالص أن يتجاوزوا عن سماعها ما داموا قد أجازوا الأجانب أن يقيموا فيما بينهم .

ثم يأتي اللحن في علامات الإعراب بنوعها : حروف وحركات وكان هذا النوع أشد الأنواع على أذن العربي الخالص وأخطرها على اللغة الفصحى . وأخيراً يجيء النوعان الآخران ، ويعتبر خطرهما في المرتبة الثانية .

والذي أفزع العرب وجملهم يفكرون في وضع ضوابط هو النوع الثاني من الأنواع الأربعة . وذلك لأن نصوص القرآن كانت مدونة ، ولا سبيل للخوف عليها من ناحية بنية الكلمات . وإنما الخوف كان من ناحية الشكل الذي لم يكن قد ثبت بعد . وبعد ضوابط الشكل فكروا في ضوابط البنية . وليس من شك في أن طبيعة صنيع العرب في الضبط تدل على أخطر الأنواع ، فالاهتمام الأول كان منصباً على الشكل أي على علامات الإعراب . ثم يجيء الاهتمام ببنية الكلمة فيوضع نقط الإجماع . وليس من شك كذلك في أن الخلط في علامات الإعراب أسرع على اللسان . وأسهل في الارتكاب من الخلط في بنية الكلمة . فليس من السهل على العربي المقلد أن يخلط بين ما أحسن وما أحسب مثلاً ؛ ولكن من السهل عليه أن يخلط بين ما أحسن بفتح النون وما أحسن بضمها .

ويدخل تحت النوع الرابع من صور اللحن ما تستعمل فيه الكلمة أو التركيب في غير ما وضع له . مثال ذلك استعمال كلمة (محتبظيء) التي معناها المنتفضح البطن ، في معنى من تورمت أنفه غضباً . والذي ارتكب

اللحن وعييب عليه هو شبيب بن شبة المتوفى سنة ١٩٤ هـ (١)
وقد نسب إليه اللحن أيضاً حينما استعمل هذا التركيب (ما بين لابتها)
بدأ بذلك البصرة . بينما هذا التركيب كان يستعمل خاصة في المدينة (٢)
ولعل هذه الصورة وأمثالها أبسط أنواع اللحن ، ويمكن أن يلتمس
حتها سبيل التجوز ، ولا ضير في هذا ، ولكن ذلك لم يمنع نسبة اللحن
قائلها ، مما يدل على مبلغ تشدد القدماء في الاستعمال المأثور ، وهو
ما يسمى عند الفرنسيين بالمعنى الخاطيء . *fanse sens*

والآن بعد الكلام عن أنواع اللحن ، وذكر بعض الأمثلة لكل نوع
لنبحثنا موضوع اللحن نفسه : ما هو ؟ ما مظاهره ؟ ما تاريخ
رده في اللغة العربية ؟ وأخيراً ما هو خطره ؟

يعرف اللغويون اللحن بجملة معانٍ ويذهبون في فهمه إلى مذاهب شتى
كروى من معانيه التجويد في القول والغناء فيه كما يذكرون أيضاً بأن
ه الخطأ في القراءة ، ثم ينتقلون إلى واد آخر فيقولون إن معناه اللغة
ها ، كما يقولون كذلك إن معناه الفطنة والفهم ، وحول هذه المعاني
ر أكثر آراء اللغويين في القاموس ولسان العرب عند شرح هذه المادة .

(١) انظر ياقوت : إرشاد - ٢ ص ٣٧٢ ، ومعجم البلدان له

أ - ٤ : ٣٣٥

(٢) انظر البخاري : فضائل المدينة ، وانظر كنز العمال - ٧ ص ١٥٣

ويظهر أن الأصل فيها هو الميل بمعناه العام وعن هذا الأصل تفرعت
المعاني الأخرى فحين يلحن المصنف يكون قد مال عن الطريقة المتبعة في الكلام
إلى طريقة أخرى يتأرب بها السامعين ، وحين يخطئ المتحدث في حديثه
يكون قد مال عن طريق الصواب في قوله ، وحين يتحدث المرء بلغة
قوم آخرين أو بلهجة قبيلة أخرى يكون قد مال عن لغته هو إلى لغة هؤلاء
أو أولئك ليشرح بها أفكاره ومعانيه ، وحين يحاول المتكلم أن يشرح
معنى عنده ويفهمه الآخرين يكون قد مال إلى هذا النحو من القول ،
وكذلك حين يريد أن يعرض بمعنى في نفسه بحيث لا يفهمه كل السامعين
وإنما يدركه بعضهم فقط يكون كذلك قد مال عن طريقة القول الواضح
للجميع إلى طريقة أخرى فيها تعمية وغموض مقصودان .

وينقل صاحب اللسان عن ابن بري كما ينقل عن غيره أن اللحن يشمل
على المعاني الستة الآتية وهي : أولاً - الخطأ في الإعراب ، ثانياً : اللغة ،
ثالثاً : الغناء ، رابعاً : الفطنة ، خامساً : التعريض ، سادساً : المعنى .
ثم يذكر لكل واحد من هذه المعاني مثالاً أو أكثر كشاهد على
ما يقول . فمن المعنى الأول وهو الخطأ في الإعراب قول مالك بن أسماء
بن خارجة الفزاري :

منطق صائب وتلحن أحياناً وخير الحديث ما كان لحنا
ومن المعنى الثاني ، وهو اللغة ، قول عمر : (تعلموا الفرائض والسنة
واللحن .) بالتحريك أي اللغة .

ومن المعنى الثالث ، وهو الغناء والتجويد وترجيع الصوت ، قول يزيد

ابن النعمان :

لقد تركت فؤادك مستجنا * مطبوقه على فنن تغنى

يميل بها وتركيبه بلحن * إذا ما عن المحزون أنا

فلا يحزنك أيام تولى * تذكرها ولا طير أرنا

ومن المعنى الرابع وهو اللحن بمعنى الفطنة قول الرسول صلى الله عليه

وسلم « إنكم تختصمون إلى ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض -

أى أفطن لها وأجدل - فمن قضيت له بشىء من حق أخيه فإتما أقطع له

قطعة من النار . »

ومن المعنى الخامس وهو اللحن بمعنى التعريض والإيماء ، قول القتال

الكلابي :

ولقد لحنتمُ لكم لكيما تفهموا * ووحيتُ وحيأ ليس بالمرتاب

ومن المعنى السادس وهو المعنى ، قوله تعالى « ولتتعرفنهم فى لحن

القول . » أى فخواه ومعناه .

والذى يهمننا من كل هذه التفاصيل هو اللحن بمعنى الخطأ ؛ واللغويون

بالرغم من هذا البيان وذلك الشرح لا يقدمون لنا مثالا نستطيع أن نفهم

منه معنى الخطأ المقصود ؛ وكل ما نعرش عليه من توضيح فى هذا عندهم هو

قولهم « الخطأ فى الإعراب » غير أن ذلك أيضاً لا يزال فى شىء من

الغموض ، وفي حاجة إلى البيان ، لأننا سنرى بعد قليل أن الرواة في الأدب
ورجال النحو كانوا يعممون معنى اللحن فلا يخصونه فقط بلحن الإعراب .

وما هي ذي أمثلة من رواياتهم توضح لنا وجهة نظرهم ومبلغ فهمهم
لمعنى اللحن : يروي ابن الأنباري في كتابه « الأضداد » : أن عمر ابن
الخطاب رضی الله عنه مر بقوم يمارسون الرماية فساءه منهم سوء رميهم
فقال : ما أسوأ رميكم . فقالوا : نحن قوم متعلمين . فقال عمر : لحنكم
أشد عليّ من فساد رميكم .

وروي أيضاً أن كاتباً لأبي موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب
عن لسان أبي موسى يقول : « من أبو موسى » وحينما وقف عمر
على هذا الخطاب ساءه ما رآه فيه من لحن ، فكتب إلى أبي موسى يطلب
منه أن يضرب كاتبه سوطاً على هذا اللحن .

ويروي لنا أبو هلال العسكري في مقدمة كتابه « المعجم في بقية الأشياء » (١)
ما يأتي : سمعت سعيد بن أويس يقول : لقيت أبا حنيفة فحدثني بحديث
فيه : « يدخل الجنة قوم حفاة عراة منتنن قد محشتم النار ، فقلت له :
قوم منتنون قد محشتم النار ؛ فقال لي : من أنت ؟ قلت : من أهل
البصرة ؛ قال : كل أصحابك مثلك ؛ قلت : فإني من أدونهم ؛ فقال :

(١) انظر ص ٢٩

طوبى لقوم أنت أدونهم !^(١)

ويروى أيضاً أن أبا عمرو بن العلاء المقرئ النحوى كان يتبع الحسن
أبي حنيفة ، صاحب المذهب الفقهى المشهور ، ويستقبجه ثم لا يتخرج من
إبداء نصحه إلى هذا الإمام بأن يتعلم العربية ويحيد النحو^(٢)

من ذلك ما يروى أنه سأل أبا حنيفة مرة عن القتل بالمثل وهو القتل
بغير آلة حادة - هل يوجب القود أم لا ؟ فقال أبو حنيفة : لا ؛ فقال
له أبو عمرو : ولو قتله بحجر المنجنيق ؟ فقال : ولو قتله بأبا قبيس -
أى الجبل المظل على مكة .

ويروى أبو هلال العسكري أيضاً^(٣) : وحدثنا عن الصولى عن أبي
حنيفة محمد بن الحباب قال : دخل أبو عمرو بن العلاء دار الزبير ، وهى
دار الدقيق بالبصرة ، فقرأ على أعدل الدقيق - أى غراراته : « كتاباً

^(١) يلاحظ أن أبا هلال قد تحامل على أبي حنيفة بسبب ضعفه
فى العربية ، ولكن العجيب أنه نفسه فى نفس الكتاب يستشهد برأى
أبي حنيفة فى اللغة حيث يقول ص ٣٧ : « (الخصاصه) ما يبقى فى الكرم
بعد قطافه : العنقيد الصغير ها هنا وآخر ها هنا ، والجمع الخصاص بضم الحاء .
وقال أبو حنيفة : هى الخصاصه ، والجمع خصاص ، وكلاهما بالفتح »

^(٢) أنظر : المعجم فى بقية الأشياء لأبي هلال العسكري ص ٣٩ - ٤٠

« البيان والتبيين للجاحظ - ج ٢ - ص ٢ س ١٧

لأبو فلان . » فقال : العجيب ، يلحنون فيرحلون .

ومما نحن بسبيله أيضاً ما روى عن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان معروفاً بكثرة اللحن ، من أنه خطب الناس في يوم عيد فقرأ في خطبته هذه الآية القرآنية « يا ليتها كانت الناضية » بضم الناء في ليتها بدل فتحها ؛ وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً فقال : عليك وأراحنا منك .^(٢)

ويروى كذلك أن الفرزدق كان ينأى بلغته ويحجاب طريقها المعروف فيلحن ؛ وكان عبد الله بن يزيد الحضرمي البصرى مهتماً باعتراضه ونسبته إلى اللحن ؛ ولما عرف ذلك الفرزدق عنه هجاء بهذا البيت :

فلو كان عبد الله مؤلى هجوته * ولكن عبد الله مؤلى موالياً

فقال له الحضرمي : لحننت ... ينبغي أن تقول : مؤلى موال .

وقد نسب أيضاً هذا البيت إلى الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع * من المال إلا مسججاً أو مجلف

الشاهد في رفع مجلف

وبهذه المناسبة يقول ابن قتيبة : وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة ، فقالوا وأكثروا ولم يأتوا بشيء يرتضى ، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به احتمال وتمويه ، وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه

(٢) انظر : تاريخ آداب العرب - ج ١ - ص ٢٤٦ للأستاذ مصطفى

صادق الرافعي .

هذا البيت فتمتعه وقال : على أن أقول وعليكم أن تحتجروا... (١)

وها هو ذا نص كتاب ينقله لنا ابن رشيقي عن بعض كتاب الفيروان وقد بحث به إلى صاحبه . ومن هذا الكتاب يتبين لنا نوع اللحن ، وهو الذي يهمتنا بصفة أساسية فيه : « يا أخي ومن ذا عدت فقدمه ... أعاني أبو سعيد كلاماً أنك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي ... وعاقنا اليوم فلم يتوباً لنا الخروج . وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فقد كذبوا هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً وكتابي إليك وأنا مشتاق إليك إن شاء الله . »

وبعينا ملاحظة الفعل « تأتي » بعد « الذين » ، « حرفاً واحداً » بعد

« ليس من هذا » (٢)

(١) إن هذه الصورة التي ينقلها إلينا ابن قتيبة عن موقف النحاة من بيت الفرزدق ومحارلتهم إيجاد علة لهذا الرفع في كلمة « مجلف » والتماس حيلة لتسويته يذكرنا تماماً بالصورة التي نأخذها عنهم حينما يجدون نصاً عربياً قديماً يخالف قواعدهم النحوية فيتلمسون له التعليل غير مقدرين أن يكون ذلك لحناً أو أنه من آثار اللغة قديماً أو متمشياً مع لهجة قبيلة من قبائل العرب التي لم تنفق مع قريش في لهجتها . وقد رأينا موقف المبرد منهم فيما مضى ، ص ٩٠ من هذا الكتاب

(٢) تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٧٠

ويذكر الوزير جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي في كتابه
« إنباه الرواة على أنباء النجاة » أمثلة عدة من اللحن نقبس هنا بعضها .
يقول القفطي (١) : « ثم إن زياداً - وكان والياً على العراق - سمع
بشيء مما عند أبي الأسود - يريد بذلك ما وضعه من النحو - ورأى
اللحن قد فشا ، فقال لأبي الأسود : أظهر ما عندك ليكون للناس إماماً :
فامتنع من ذلك ، وسأله الإغفاء ، حتى سمع أبو الأسود قارئاً يقرأ :
« إن الله بريء من المشركين ورسوله . » بكسر اللام ، فقال :
ما ظننت أمر الناس آن إلى هذا .

ثم يقول القفطي بعد ذلك (٢) : « وقد قيل : « إن الذي رآه أبو الأسود
ونكبه ، أنه مر به سعد - وكان رجلاً فارسياً من أهل نوبندجان -
كان قدم البصرة مع جماعة من أهله فادعوا لقدامة بن مظعون أنهم أسلموا
على يديه ، فأمنهم بذلك من مواليه .
ولما مر سعد بأبي الأسود - وكان يقود فرساً له - قال له أبو الأسود :
مالك لا تركبه يا سعد ؟ قال : « إن فرسي ظالماً » وأراد أن
يقول « ظالغ »

(١) إنباه الرواة على أنباء النجاة للقفطي ج ١ ص ٦

(٢) إنباه الرواة على أنباء النجاة للقفطي ج ١ ص ١٥

ويروى القفطى كذلك أن قوماً جاءوا إلى زياد ، فقالوا : أصلح الله الأمير ، توفي أبانا وترك بنون . فقال زياد : توفي أبانا وترك بنون ! ادع لي أبا الأسود . فقال : ضع للناس العربية .^(١) ونضيف إلى ما تقدم هذه الأمثلة الأخرى من اللحن ، وسيتبين لنا منها أنها من نوع آخر منه . من ذلك ما وجد في بعض رقاع مكتوبة قد وجدت في عدد من قرى مصر منها ما يرجع تاريخ كتابتها إلى سنة ٥١٢٧ هـ . ومنها ما يرجع تاريخها إلى سنة ٥١٨٢ هـ ، سنة ٥٢٥٠ هـ ، سنة ٥٢٧٩ هـ ، سنة ٥٢٩٥ هـ وقد تكلم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عن هذه الرسائل ، وحاول أن يبين ما تشتمل عليه من لحن ، ثم نقل نص رسالة منها .^(٢) ويعنيها من كل ما كتبه الأستاذ خاصاً بهذه الرقاع هو نوع اللحن الذي استخرجه من بعضها ، وأشار إليه ، وهو استعمال كلمة (دننير) بدل (دنانير) . ومن هذا النوع أيضاً ما ذكره الجاحظ من أن أول لحن سمع بالبادية هو « هذه عصاتي » بدل « هذه عصاي » .

ومن ذلك أيضاً ما يروى من أن الحسن البصرى قال لبعض جلسائه يوماً توضيت ، فقبل له أتلحن يا أبا سعيد فقال إنها لغة هذيل . ويراد من هذا أنه قال (توضيت) بدل (توضأت) . ويهمننا من ذلك اعتبارهم

(١) - أنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطى ج ١ ص ١٥

(٢) - تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤

(توضيحية) لحناً على فرض أن هذيلاً لا تنطق بها كذلك .

وربما يلاحظ القارئ، أننا أطلقنا في هذا الموضوع واستطردنا فيه ثم أكثرنا من ذكر الأمثلة ، والواقع أننا قصدنا إلى هنا الاستطراد قصداً وأردنا من الإكثار في هذه الأمثلة أن نقدم صورة واضحة عن اللحن في أزمنة مختلفة وعن وجهة نظر الرواة ورجال النحو بالنسبة لهذا اللحن وكيف كانوا يفهمونه في الكلام .

واستعراضنا لهذه الأمثلة يهديننا إلى ملاحظة نوعين مهمين من اللحن (١) النوع الأول : هو ما كان خاصاً بعلامات الاعراب ، وهو ما يشمل القسم الأكبر من هذه الأمثلة « كمتعلين » بدل « متعلبون » « منتنين » بدل « منتنون » و « أبو موسى » بدل « أبي موسى » ... الخ .

النوع الثاني : هو ما كان خاصاً ببنية الكلمة ولا يمس علامة الاعراب في شيء : وهو القسم الأخير من هذه الأمثلة ، وذلك مثل « دنير » بدل « دنانير » و « توضيت » بدل « توضأت » و « عصاتي بدل « عصاي » . أما اللكنة الطبيعية في النطق فلا نرى وجهاً لاعتبارها لحناً يخشى منه على اللغة حتى تكون نتيجة التفكير في وضع ضوابط تحفظ اللغة ، وتقي الناطقين بها من الوقوع في أمثالها ؛ وأما اللحن الخاص ببنية الكلمة ،

(١) - انظر صفحة ١٦٥ من هذا الكتاب

كذلك اللحن الخاص بوزنها فقد رأينا جميعها في نوع واحد ، وذلك من
بيك المخطورة في كل منها .

أخطر أنواع اللحن :- إن في اطلاعنا على كتب الرواة المختلفة وفي بحثنا
ن هذه الأمثلة لم نجد واحداً من أصحاب هذه المصنفات ولا واحداً من
صحاب هذه الروايات قد حاول إن يتلمس فرقا بين هذين النوعين من
لحن أو يبين مخطورة أحدهما على الآخر ، وكأن اللحن كله في نظرهم
يتم سواء .

فالمبرد حين يورد أمثلة من اللحن لا يحاول التفرقة فيما بينها سواء
كان اللحن خاصاً بعلامات الإعراب ، أم ببنية الكلمة وإنما يمكننا
سمية الكل لحناً في اللغة ، وكذلك أبو هلال العسكري ، الذي ذكرنا له
من الأمثلة من اللحن ، لا يفرق بين نوع ونوع آخر منه ، وإنما
ننتقل إلى ميدان آخر من ميادين العلماء ، ونعني به ميدان القراء الذين
يصون على قراءة القرآن ووضع ضوابط لها ، ودراسة هذه القواعد ثم
إدخال القرآن للآخرين ، نقول إننا لو انتقلنا إلى ميدان هذه الطائفة من
علماء لوجدنا معنى اللحن يتضح قليلاً ؛ إذ أنه يتجه أولاً إلى التغيير الذي
يتم بعلامات الإعراب ، كما أن كلمة خطأ أو غلطة تأخذ لها وجهة أخرى
التي هي على تغيير كلمة بكلمة أخرى أو تقديم كلمة من الجملة كان محلها التأخير
تأخير كلمة كان محلها التقديم ، فمثلاً لو قرئت الآية « إن الله يرى من

من المشركين ورسوله « بالجر في الرسول بدل الرفع ، لاعتبار ذلك لحنأ ،
وكذلك لو قرىء « أحب » في قوله تعالى « قل إن مكان آباؤكم وأبناؤكم
وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن
ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله . » بالرفع بدل المنصب لكان ذلك لحنأ .
وكذلك لو قرئت الآية « إنما يخشى الله من عباده العلماء » برفع الله ونصب
العلماء لكان ذلك لحنأ عند من لا يجيز هذه القراءة ، وكذلك التفسير الذي
يحدث في حركات الإعراب في قوله تعالى « وكذلك زين لكثير من المشركين
قتل أولادهم شركائهم » .

أما الخطأ أو الغلط فهو ما يمكن أن نلاحظ إذا قرأ قارئ (يلبسون الباطل
بالحق « بدل يلبسون الحق بالباطل » أو « فخر عليهم السقف من تحتهم »
بدل « فخر عليهم السقف من فوقهم » ، وهكذا كل تغيير في الكلمة أو في
الجملة لا يترتب عليه تغيير أو فساد في علامات الإعراب .

وقد ترتب على هذا الاختلاف في النوع عند هؤلاء العلماء اختلاف في
تقدير المسؤولية فكان اللحن عندهم أشد من الغلط ، ولازلنا حتى اليوم نلنس
هذا الفرق عند من يحفظون القرآن في « السكتاتيب » أو يشرفون على تجويده
في المعاهد الدينية والمساجد ، ويبدو أن هذا النوع من الفهم ومن تقدير
الخطورة في بعض اللحن دون بعضه الآخر هو ما يتماشى مع طبيعة اللغة
العربية ويتفق وعقلية أصحاب هذه اللغة حينما يعتمريها شيء من التحريف ،

فإن اللحن الذي فزع له عمر بن الخطاب واستثار منه كان لحناً في علامات الإعراب ، واللحن الذي لفت نظر الولاة من العرب والمشرقيين على اللغة العربية وأيقظ أبا الأسود لكي يبدأ في وضع ضوابط تحفظ بها نصوص القرآن كان كذلك لحناً في علامات الإعراب كما تجمع على ذلك غالبية الروايات . وبالرغم من أن الرواة لم يبينوا لنا نوع اللحن الذي حدث في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ففضب له وأمر أصحابه بإرشاد صاحبه ، نقول بالرغم من أننا لم نقف على نوع هذا اللحن فإننا نظن بل نرجح أنه كان لحناً في علامات الإعراب لا في شيء آخر .

ويشبه هذا تماماً ما لمسناه أثناء دراستنا للغات القديمة المعربة من لاينية ويونانية ، فالمشرفون على تدريس هاتين اللغتين قد فرقوا بين أنواع الأخطاء ووضعوا لكل نوع اصطلاحاً خاصاً وقدروا مكانته من الخطورة ، أشد هذه الأنواع عندهم ما كان متناولاً لعلامات الإعراب ، ولذا قد سموه *contre sens* ، ونستطيع أن نقابله في العربية بكلمة اللحن ، وفق ما بيناه منذ قليل ، ثم يأتي عندهم في الدرجة التالية من الخطر ما اصطاحوا على تسميته *faux sens* ومعناه المعنى الخاطئ ، ويشمل هذا النوع وضع كلمة مكان كلمة أخرى أو حذف حرف من بنية الكلمة أو زيادة حرف إليها أو ما شاكل ذلك ، مما لا يترتب عليه تغيير في علامات الإعراب . ولقد بالغ المشرفون على هاتين اللغتين فأدخلوا المسألة في تقديرات صافية فقدروا اللحن بثلاثة أخطاء . وما لمسناه في دراسة هاتين اللغتين من حيث الأخطاء وتقديرها أعاد إلى ذاكرتنا صورة ما رأيناه يوم كنا

نحفظ القرآن عند التقية أو « الحريفة » إذا كان يحاسبنا على الغلظة بمعنى
وعلى المعنة بثلاث .

ما تقدم يتضح أن الرواة وعلماء اللغة ورجال النحو لم يكونوا يفرقون
بين لفظ لحن ، وغلط ، وخطأ . وقد تبين لنا من استعمالهم ومن أمثلتهم
أنهم كانوا يستعملون الواحد من هذه الأسماء مكان الآخرين ، ولم تكن
لديهم الدقة التي لاحظناها عند القراء في دائرتهم الضيقة ، وحتى النجاة حينما
كانوا يتحدثون القراء ويناقشونهم في قراءاتهم وآرائهم كانوا يطلقون عليهم هذه
الألفاظ الثلاثة ، وكأنها مترادفة ، دون تمييز في المعنى ، ولا ملاحظة في
الفرقة بين أنواع الأخطاء .

وما علينا إلا أن نطلع على كتاب سيمويه أو على مخطوط القراء - معاني
القرآن - لئرى تبيير ما ذهبنا إليه ، وفوق ذلك فقد جمع لنا الأستاذ
عبد الوهاب حموده في كتابه - القراءات واللهجات - أمثلة عدة من هذه
الأخطاء التي نسبها النجاة إلى القراء ومع ذلك لم يتحروا فيها الدقة من
ناحية التسمية أو الفرقة بين الخطأ والغلط واللحن . ومع ذلك فقد حاولنا
أثناء هذا العرض أن نفرق بين هذه الأنواع ، ونحدد على وجسه التقريب
ميدان استعمال هذه الألفاظ ، ثم خطورة بعضها على البعض الآخر ، معتمدين
في ذلك أولاً على الاستقراء والفهم ، ثم على الاستنتاج .

ونعود بعد هذا إلى الكلام عن تاريخ اللحن ، وقد وضح فيه رأينا بما
ذكرناه قبلاً ، وهو أنه لا سبيل إلى تأريخ هذه الظاهرة في اللغة تأريخاً
علياً وإذن فليس من السهل أن نقبل ما قاله بعض القدماء في هذا وتبعهم

يه بعض المحمدين من أن أول لحن ظهر في البادية هو « عصاتي » بدل
« عصاي » ، وأول لحن سمع بالعراق هو « حى على الفلاح » بالكسر بدل « حى »
الفتح .

ذ أن هذا الرأي يحمل فساداً في طياته ، ونظن أن أبسط العقول لا
ستطيع أن يتصور صحته .

وربما يلاحظ القارىء تناقضاً بين موقفنا هنا وموقفنا عند ما أشرنا إلى
نشأة النحو العلمى فى اللغة العربية ، والواقع أن الموقفين متسايران تماماً ،
أريخ النحو غير تاريخ اللحن ، إذ النحو ظاهرة اجتماعية لا تنشأ إلا إذا
فرت لها أسباب وبدل فى سبيلها مجهود كبير وتعاون عليها فى أغلب
أحيان عدد من المفكرين ، وهذا هو ما نلاحظه فى نشأة العلوم أياً كان
غها وفى أى زمان أو مكان كان نشوؤها .

أما اللحن فهو ظاهرة فردية تحدث طوعاً دون يقظة من صاحبها ولا
غاية من المجتمع ؛ وإذن فلا سبيل إلى تاريخ نشأتها ولا إلى معرفة أوليتها فى
تجمع بله عند الشخص نفسه . وهنا نوضح ما أشرنا إليه أكثر من مرة
امضى وهو أنه فى غير ما يمس عقائدنا ينبغى أن نتردد بعض الشيء فى
ه الآراء الخاسمة التى نطالعها فى كتب القدماء ؛ كما ينبغى أن لانسى أمامها
سنا أو نهمل عقولنا ؛ فلم تكن العممة من مستلزماتهم كما لم تكتب علينا
عية لهم دائماً فى كل ما رأوه ، وإلا لما تقدمت الإنسانية ولا رقى العقل

اللحن كما ذكرنا ظاهرة فردية في نشأته غير أنه حين يتفشى نسبياً ويجرى على بعض الألسنة في الطبقة المثقفة من الأمة أو أمام هذه الطبقة يمكن أن يستلقت النظر ، وحينئذ يلاحظه المجتمع ويستطيع أن يبدي رأيه فيه ، وصدى ذلك في هذه المرحلة فقط هو الذي يمكن أن يصل إلى الأجيال اللاحقة عن طريق الكتابة أو عن طريق الرواية ، وعلى هذا الاعتبار يمكننا أن نتصور حالة اللحن في اللغة العربية وتاريخ معرفتنا به لا تاريخ نشأته في البيئة العربية . وإذن فنستطيع أن نفترض ونحن معلمون إلى هذا الافتراض أن اللحن وجد في اللغة العربية قبل الإسلام ، ليس فقط في مدن الثغور أو في القبائل التي كانت تعيش في أطراف شبه الجزيرة وفي جوار الأحملاط من الأمم الأخرى ، ولكن في بيئة الحجاز أيضاً وهي أتق البيئات وأصفاها لغة وأسلوباً ، وهناك أسباب عدة تحملنا على صحة هذا الافتراض قد أشرنا إلى بعضها فيما مضى حينما كنا نتكلم على أثر التجارة المتبادلة بين الأجنبي والعرب وما استلزمة ذلك من إقامة الأسواق لهنا التبادل ، ثم من بقاء بعض الأجنبي في جوار العرب إما للكسب وإما لخدمة السادة من العرب الذين اشترؤهم بالمال واتخذوهم عبيداً وإماء ، وفي الحق أن هؤلاء الأجنبي من الفرس ومن الروم ومن الزنوج بوجه خاص ، كانوا يكتنون ما يشبه الطبقة الدنيا في المجتمع العربي ، وهم وإن كانوا

من القلة بحيث لا يؤثرون في طابع اللغة بوجه عام إلا أننا لا نستطيع أن
نصور وجودهم في هذه البيئة العربية دون أن يصدر عنهم لحن . وإذا
ناهياً مضمياً قد ضررنا لذلك بعض الأمثلة كأم عنترة بن شداد ، وسلمان
بارسي وصهيب الرومي ، وبلال الحبشي فإن لهؤلاء أمثالاً ومثيلات ،
ساحب النقائص ^(١) بين جرير والفرزدق يحدثنا عن أفراد في الجاهلية
أؤهم من العرب وأمهاتهم من زنوج إفريقية ويطلق عليهم أغربة العرب .

ومن تلك الأساليب أيضاً التي تقوى لدينا صحة هذا الافتراض ما نجده
سن الحظ من شواهد مبعثرة هنا وهناك في كتب القدماء تصور لنا
ريقة النطق عند هؤلاء الأجانب الدخلاء على العرب .

من ذلك ما يرويه الجاحظ في البيان والتبيين ^(٢) من أن صهيياً الرومي
ن يستعمل لكنة واضحة في لسانه ، فكان يقول : « إنك لهائن »
هو يريد « إنك لحائن » ، وهذا ما يلاحظ في النطق الرومي من تعذر
نطق بالحاء . ومن ذلك أيضاً ما يرويه الجاحظ عن شخصية أخرى عاصرت
سوق صلى الله عليه وسلم ، ونعني بتلك الشخصية سُحَيْمُ المعروف بعبد
الحساس ، يروي الجاحظ أن سُحَيْمًا هذا كان يقول : (سعرت)

(١) نقائص جرير والفرزدق ص ٢٧٢

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٣٢

بدلاً من (شعرت) (١)

ويروي صاحب الأغانى (٢) أنه كان يستبدل في نطقه الحاء بالهاء ، فيقول

مثلاً : (أحسنت) بدل (أحسنت) . ويقول ابن قتيبة عن سحيم أيضاً

أنه كان ينطق بالكاف بدل تاء المخاطب فيقول مثلاً : (أحسنتك) بدل

(أحسنت) . وهذه هي طريقة النطق في اللغة الحبشية بالنسبة للضمير

المتصل المفرد كما حققها الأستاذ « يوهان فنيك » (٣)

ولمّا كان هذا هو بعض ما عرف عن لكتبة صهيب وسحيم وشهرتهما

في المجتمع العربي أيام الإسلام الأول لم تكن بسيطة ، فما بالك أمثالها الذين

عاشوا ومغموطين لا يكاد يحسن بهم ولا يعرف عنهم شيء ؟ إنه من العسير

أن نتصور ، كما تصور بعض المؤلّفين ، سلامة لسان هؤلاء الأجناب طول

حياتهم في البيئات العربية ، وبالتالي أن نتصور خلو اللغة من اللحن

قبل الإسلام .

ثم إن القرآن نفسه ينقلل إلينا في أساوبه البليغ صورة لما كان بين

الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل مكة من جدل بشأن الرسالة والوحى ومن

(١) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٢

(٢) الأغانى ج ٢٠ ص ٢

(٣) العربية — دراسات في اللغة واللهجات والأساليب — ترجمة الدكتور

عبد الحليم النجار ص ١٣

هذه الصورة يقين لنا ضمناً أن مكة كانت بها أعاجم لا يتكلمون العربية
بإفصاح أو على الأقل كما يتكلم بها أهل مكة من العرب الخالص ، وأن
هؤلاء الأعاجم المتقنين كانوا يتحدثون بها مع الرسول فكان أهل الشرك
من المسكين يدعون أن الرسول يأخذ عنهم من الأخبار ما يأتيه به الوحي
من عند الله ، من ذلك آية النحل ^(١) وقد نزلت في الطور المسكي الثالث
«... لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» ، ولكي تفهم
هذه الآية حقيقة ، ويفهم منها الرد المفحم على هؤلاء المشركين ينبغي أن
يقابل اللسان العربي المبين بالضرورة لساناً أعجمياً أو لساناً عربياً غير واضح
وماذا بقي إذن بعد هذا لإثبات اللحن في مكة قبل أن تستقر دعائم الإسلام؟
اللحن إذن وجد في اللغة العربية قبل الإسلام وإن لم يكن من طبيعة
العرب الخالص أن يرتكبه فإنه بقي محصوراً فيما بين هذه الطبقة الضعيفة
من المجتمع ، ولكن حينما تأخذ الدعوة الإسلامية في الامتداد ، ويصل
صداها إلى غير العرب من الشعوب الأخرى فيدخل في الأسرة العربية أفراد
آخرون ويقبل على التحدث بالعربية أصحاب ألسنة أخرى يدخل اللحن في
مرحلة جديدة فيسمع في مجالس الرسول ويقال أمام الخلفاء الراشدين من
بعده ، ولكن يصاحبه في هذه المرحلة اهتمام بالغ من الناحية الأخرى
بشأن اللغة الفصحى والحرص على صفائها ونقاؤها ، فنجد الرسول يغضب

(١) آية ١٠٣ سورة النحل

وعمر بن الخطاب يشور حينما يسمعان هذا اللحن ، تغير أن هذا الغضب
وتلك الثورة لا يمنعان ظاهرة اللحن من الفشو والانتشار ، فتتسع رقعة
الدولة الإسلامية وينتظم في سلك الجندية شباب القبائل العربية على اختلاف
لهجاتها وتنوع بيئاتها ، وتقام لهم المعسكرات في مواطن فارسية ورومية ،
ويتخذ هؤلاء وأولئك لأنفسهم عبيداً وإماء لا يحصى لهم عدد ولا يستقيم
لهم في العربية لسان ، ولم يقف أمر اللحن على هؤلاء الأجانب الذين
اضطرتهم ظروف الحياة وضرورات الفتح أن يندمجوا في الدولة العربية ،
ولكنه تعدهم بحكم العدوى إلى العرب أنفسهم بل وإلى من ينبغي لهم أن
يشرفوا على أمر اللغة العربية ، فنجد عبيد الله بن زياد ابن أبيه الذي تولى
الأمر في العراق يعرف باللحن ويصل الخبر في ذلك إلى معاوية فيرسل إلى
إلى زياد يأمره بأن يصلح لسان ابنه ، ولحن عبيد الله ^(١) هذا وإن لم

^(١) يعزى لحن عبيد الله بن زياد إلى أنه نشأ في حجر أمه الفارسية
ولهذا فقد كان لحنه في العربية من جنس اللحن الذي عرف عن الأجانب
أمثال صهيب ، وبلال ؛ فكان ينطق بالهاء بدل الحاء وبالهمز بدل العين
كما يقرر ذلك الجاحظ في كتابه - البيان والتبيين جز ٣٢ - ؛ ونجد
لديه أيضاً نوعاً من الاستعمال اللغوي لا يوجد إلا عند من يلم بلغة أجنبية
ومنشأ ذلك هو الترجمة لمعنى في نفس المتكلم لا تسعفه اللغة التي ينطق بها
على التعبير به ؛ وذلك مثل ما روى عنه أنه أمر الجنود في يوم من الأيام =

يكن عظيم الخطر إلا أنه يدلنا على مبلغ تسرب هذه الأخطاء اللغوية إلى الأوساط العربية العليا .

ونجد الوليد بن عبد الملك ^(١) يرتكب من اللحن أنواعا عدة وتروى

== فقال لهم : (افتحوا سيوفكم) وهو يريد من ذلك قول العرب (سلوا سيوفكم) وقد لمسنا هذه المسألة بأنفسنا حينما كنا مبتدئين في تعليم اللغات الأجنبية كالفرنسية والإنجليزية ، واللاتينية أيضاً ؛ فكثيراً ما كنا نلجأ إلى ترجمة ما يدور في خواطرنا من المعاني بألفاظ أجنبية لا تستعمل في ذلك المعنى وكثيراً ما كان هذا يثير الضحك ممن يسمعوننا . ولعل هذا هو السبب الذي من أجله كان معاوية بن أبي سفيان يستظرف لحن عبيد الله ويجد فيه تورية لطيفة كما يحدثنا بذلك القالي في كتابه الامالي

ج ١ ص ٥

^(١) ويعزى لحن الوليد بن عبد الملك إلى إهمال والده تربيته تربية عربية ؛ فقد روى عن عبد الملك بن مروان أنه قال : « أضر بالوليد حينما له فلم نوجهه إلى البادية » ؛ وينقل لنا الأستاذ مصطفي صادق الرافعي في كتابه — تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٤٦ — أنه قيل للوليد يوماً : « إن العرب لا تحب أن يتولى عليها إلا من يحسن كلامها ، فجمع أهل النحو ودخل بيتاً ليتعلم فيه فأقام ستة أشهر ثم خرج أجهل من يوم دخل » وقد أكثر الرواة من ذكر أخطائه في العربية ؛ من ذلك قدامه في كتابه — نقد المتر ١٢٣ والمبرد في كتابه — الكامل ص ١٩٠ .

عنه في ذلك الروايات، اللادعة وحتى بعد توليه الخلافة يترك للسانه الحرية
فينزلق إلى الأخطاء في القرآن على مسمع من جمهور المسلمين .

ثم إذا انتقلنا إلى ميدان الطبقة المثقفة التي أخذت على نفسها التبصر في
الأبحاث العلمية والتدوين في النواحي الثقافية الإسلامية وجدنا نفس هذه
الأخطاء أو قريباً منها ، وقد رأينا صورة من ذلك عند أبي حنيفة ، ثم
هاهو ذا الفقيه العالم الإمام مالك بن أنس لا يتحرج من ارتكاب بعض
الأخطاء العربية حتى إن الأصمعي ليدش من صدور هذه الأخطاء عنه
ومكانته في العلم لا تكاد تجارى ، فقد روى عنه أنه قال : « أى مطراً ،
بدل « أى مطر » ، وحينما عيب عليه ذلك أخذ يتلمس لنفسه الأعذار فطوراً
يهون من شأن اللحن مقتدياً في ذلك بأستاذه ربيعة بن عبد الرحمن ، فقيه
أهل المدينة ، المشهور بربيعة الرأي الذي كان يلحن في الإعراب أيضاً ،
إذ كان يقول : « بخيراً » بدل « بخير » وطوراً يظهر بمظهر العالم الزاهد
الذي يرغب عن هذه العلوم الدنيوية ويولى وجهه شطر الحقيقة التي يبحث
عنها المتصوف .

وهناك ميدان علمي آخر هو أولى الميادين الثقافية بالمحافظة على الفصحى ،
ورعاية سلامة الإعراب ؛ ذلك هو ميدان القراءات . ومع هذا فلم يسلم أيضاً
هذا الميدان من اللحن .

وما نحن أولاء نورد بعض الأمثلة من لحن القراء جريباً على طريقتنا في هذا الموضوع دون مناقشة . إذ أن عرضنا في هذه النقطة فقط هو ترسم اللحن في انتشاره وفي موضوعات البحث العلمية ، سواء أكان ذلك اللحن معتبراً من الأخطاء اللغوية في نظر العلماء جميعاً ، أم هو خطأ في نظر البعض دون البعض الآخر .

أما مناقشتنا لهذه الآراء وخصوصاً ما ادعاه النحاة من لحن القراء فسيكون لها مكان آخر ، وذلك عندما نتكلم عن النحاة ومنهجهم في البحث وموقفهم من القواعد النحوية التي وضعوها عن طريق القياس أو الاستنباط . ومن لحن القراء في نظر النحاة ما صنعه حمزة في قراءته للآية الأولى من سورة النساء « ... واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام » إذ قرأ بجر الأرحام على أنه معطوف على الضمير المجرور قبله ، لا بالنصب عما فاعلاً على « الله » .

وإليكم ما يذكره بهذه المناسبة أبو شامة في شرح الشاطبية ^(١) قرأ حمزة « والأرحام » بالجر . قال الزجاج : القراءة الجيدة نصب « الأرحام » فأما الخفض خطأ في العربية ؛ فإن إجماع النحويين أنه يبيح أن يعطف باسم ظاهر على اسم مضمير في حال الخفض إلا بإظهار الخافض . وكذلك نجد الزجاج في موقف آخر يهتم القراء باللحن في كتاب الله ، وذلك في الآية

(١) « إبراز المعاني ص ٢٨٣ (حموده ص ١٣٠) »

« ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك » (١) .

وهنا نجد القراء قد اختلفوا في النطق بالهاء من قوله تعالى : « يؤده » فالجمهور يقرؤها بالـكسر مع وصلها بياء ، وقالون يقرؤها باختلاس الحركة ، وأما أبو عمرو وأبو بكر وحزه والأعمش فإنهم يسكنون الهاء . فيقول أبو إسحق الزجاج في هذا ما نصه (٢) « وهذا الإسكان الذي روى عن هؤلاء غلط ، لأن الهاء لا ينبغي أن تجزم ؛ وإذا لم تجزم فلا يجوز أن تسكن في الوصل » .

وكذلك نجد خلافاً بين القراء في قراءة (معاش) في قوله تعالى (٣) « ولقد مكناكم في الأرض ، وجعلنا لكم فيها معاش . » فالجمهور يقرؤها (معاش) بالياء ؛ والأعرج ، وزيد بن علي ، والأعمش ، وخارجة عن نافع ، وابن عامر في رواية يقرءونها بالهمزة . والنحاة وفق مقاييسهم النحوية يقررون أن القراءة بالياء قياسية ، وبالهمزة غير قياسية . ثم يقول الزجاج (٤) ما نصه : (جميع نخاة البصرة

(١) سورة آل عمران : ٧٥

(٢) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٩٩

(٣) سورة الأعراف : ١٥

(٤) البحر المحيط ج ٤ ص ٢٧١

تزعم أن همزها خطأ ، ولا أعلم لها وجهاً إلا التشبيه بصحيفة وصحائف ،
ولا ينبغي التمويل على هذه القراءة) . وصدى هذا النقاش في نفس الآية
يوجد في حاشية الشهاب على البيضاوي ، ويمكن الذي يتولى مهمة تخطئة
القراء هو نحوي آخر : أبو عثمان المازني ، وإليكم ما يقوله الشهاب :
(وروى عن نافع « معاش » بالهمز ، فقال النحويون : إنه غلط ، لأنه
لا يهمز عندهم بعد ألف الجمع إلا الياء الزائدة كصحيفة وصحائف ، وأما
معاش : فيأوه أصلية ، هي عين الكلمة ، لأنها من العيش ؛ حتى قال أبو
عثمان المازني : إن نافعاً رحمه الله تعالى لم يكن يدرى العربية ^(١) .)
ويرى سيبويه أيضاً أن قراءة الهمزة في هذه الآية غلط . ^(٢)
ونكتفي بهذا المصدر من الأمثلة لتثبت وجود اللحن في وسط القراء
سواء صحت دعوة النحاة في هذا أم ردت .

بقي علينا أن ننظر في وسط الثمراء ورجال الأدب . وهؤلاء لم
يسلموا أيضاً من تفتت اللسان ، ومن تعرضهم للنقد اللاذع بسبب اللحن ،
سواء من كان منهم عربياً خالصاً ، أم من دخل في الأسرة العربية من
الأجانب وجارى أصحاب اللغة في الشعر والأدب .

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي ج ٤ ص ١٥٢

(٢) القراءات واللهجات للاستاذ عبد الوهاب حموده ص ١٤٣

من الفريق الأول نجد الفرزدق يهجو عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي ،
وهو من الموالي بهذا البيت .

فلو كان عبد الله مولى هجوتة . ولكن عبد الله مولى موالياً
وكان هذا الهجاء بسبب تخلفه ابن أبي إسحاق للفرزدق نفسه في بيت
آخر هو :

على عمائنا تلقى وأرحلنا . على زواحف ترجى نخها رين
حيث يزعم عبدالله أن الفرزدق منا قد خاف قواعد العربية . وههنا
بيت الهجاء في ابن أبي إسحاق إذ يقول الفرزدق (موالياً) وحواب اللغة
أن يقول (موال) (١)

ومن الفريق الثاني نجد زياد الأعجم المتوفى سنة ١٠٠ هـ ، وكان فارسي
الأصل ولعلكته استطاع أن ينبغ في اللغة العربية نبوغاً يجعله يجارى فيها
أهل البدو وشعراء العرب الخالص ، ولذا فقد اتخذ المهلب بن أبي صفرة
شاعراً في سده . وبالرغم من تمكن زياد في اللغة والشعر فقد روى له
هذا البيت (٢)

إذا قلت قد أقبلت أديرت . كمن ليس غاد ولا رائح ، وكان يجب أن
يقول : (كمن ليس غادياً ولا رائحاً)

(١) طبقات الشعر لابن سلام ص ٧ ، سيبويه ص ٢ ص ٢٥٩

(٢) أنظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢٥٩

لو استعرضنا ما ذكرناه بصدد الكلام عن اللحن ومبلغ انتشاره لرأينا أنه تسرب إلى أغلب الأوساط العربية . فقد لمسنا آثاره فيما بين الطبقة الحاكمة ، وضرينا لذلك مثلاً عبید الله بن زياد ، والوليد بن عبد الملك وفيما بين طبقة الفقهاء وضرينا لذلك مثلاً أبا حنيفة ومالكاً وأستاذة ربيعة الرأي ، وفيما بين طبقة القراء وضرينا لذلك مثلاً حمزة ، وأبا عمرو ، وأبا بكر والأعمش ، والأعرج ، وزيد بن علي ، وناقماً ، وابن عامر ، ثم فيما بين طبقة الشعراء ، وضرينا لذلك مثلاً الفرزدق ، وزياد الاعمى . وكنا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك ، ولكننا حرصنا على أن نأخذ نموذجاً في أبسط صورة لهذا اللحن في مختلف البيئات العربية مع البعد عن الاستطراد . وقد تبين لنا أن ظاهرة اللحن خاضعة في انتشاره إلى عوامل اجتماعية أشرنا إليها فيما مضى مع شيء من التفصيل .

وعلى حسب هذه العوامل قد افترضنا وجود اللحن في زمن الجاهلية قبل لإسلام ، وإن لم نعثر على أدلة مادية تثبت وجوده في صورته المختلفة فيما عمدا هذه اللسكنة البسيطة التي أثرت عن صهيب وسهيم ، وهي ليست ، الواقع سوى نتيجة لضعف طبيعي عند هذين الأجنبيين بالنسبة للخارج لحروف ، وعجزهما عن النطق العربي الصحيح .

وإذا ما جئنا إلى صدر الإسلام وجدنا آثاره المادية ولمسنا صوراً منه ، ولكن كل الظروف تدل على أن هذا اللحن كان في دائرة محدودة ؛ ولم

يصل بعد إلى درجة يخشى منها على الآثار العريضة . أما في عصر الدولة
الأيوبية فيدخل اللحن في مرحلة جديدة ؛ وتظهر آثاره في أهم الأوساط
بل ويتسرب كما رأينا إلى الطبقة العليا من العرب .

وليس من السهل أن نتبع اللحن في عصر الدولة العباسية ؛ فصوره
عديدة ؛ وأمثله لا تحصى . بل إن أمر اللحن في أيام هذه الدولة يطغى
مع مرور الزمن حتى يصل إلى تهديد العربية الفصحى ؛ إذ ثم يتمكن في النهاية
من خلق اللغة الدارجة التي لا تهتم بقواعد النحو ولا تقسم لعلامات
الإعراب وزناً .

ومن هذا يتبين كيف نشأ اللحن في العربية ، وكيف تعددت صوره
والأسباب التي دعت إلى ذلك ؛ والمراحل التي مر بها ؛ والذي يهمنا
ملاحظته هو أن ظاهرة اللحن في العربية استتجت ظاهرة أخرى يمكن أن
نعتبرها رد فعل للظاهرة الأولى ، ويمكن أن نسمى هذه الظاهرة بحركة
تنقية اللغة والمحافظة على سلامتها . وأصحاب هذه الظاهرة العكسية موجودون
كذلك منذ وجود اللحن ؛ إذ أن ذلك يكاد يكون طبيعياً عند أصحاب
كل لغة يفتخرون بها ويحرصون على سلامتها ؛ غير أننا بالنسبة للعصر الجاهلي
نلجأ إلى طريق الافتراض الذي تؤيده ملاحظات كثيرة وأسباب عدة ،
وما ذلك إلا لأن الدليل المادي يعوزنا هنا أيضاً كما أعوزنا بالنسبة لإثبات
اللحن . ولكن إذا جئنا إلى صدر الإسلام رأينا الرسول صلى الله عليه

وسلم على رأس أصحاب هذه الحركة ، ثم يأتي من بعده عمر صاحب الذوق الرفيع والملسكة العظيمة في فهم اللغة وإدراك دقائقها وأسرارها البلاغية . وقد رأينا له في ذلك موقفين : موقفه مع كاتب أبي موسى الأشعري ، ثم موقفه مع أولئك الذين كانوا يتعلمون الرماية . ولقد ورث ابن عمر عن أبيه هذه النزعة فكان شديد الحرص على سلامة اللغة عند أبنائه وكان يأخذهم بالعنف والشدة حينما يبدو له خطأ منهم .

ثم إننا رأينا فيما بعد كيف كان حرص الخلفاء والولاة على أولادهم وكيف كان ذلك الحرص يدفعهم إلى إرسال أولادهم إلى البادية يعيشون مع العرب الخالص حتى تهرت أشداقهم ، ويستقيم منطقتهم فلا يرتكبوا ما يرتكبه سكان المدن من الأخطاء .

وإذا ما وصلنا إلى عصر الدولة الأموية وجدنا حركة التنقية في اللغة تمتد بقدر امتداد أمر اللحن فيها ، ولم يكن ذلك سوى جزء من سياستها لعامة التي نهجتها أيام حكمها ، وتتمثل هذه السياسة بوجه عام في التمسك كل ما هو عربي والنفور من كل ما هو غريب عن العرب ، وكانت اللغة طبيعة الحال أهم مظهر يتناوله ذلك الحرص ، ولهذا فإننا نرى أصحاب حركة التنقية في عدد غير يسير ، ويتناول هذا العدد بعض الخلفاء والولاة العلماء ، فمن الخلفاء نجد عبد الملك بن مروان ، وعمر بن عبد العزيز ، ومن الولاة نجد الحجاج بن يوسف ، وزياد بن أبيه ، ومن رجال العلم نجد أبا الأنيسود دؤلى الذى خطا في النحو العربي أول خطوة عملية .

وفي خلال هذا العصر أيضاً يذشأ جميل أغلبه من غير العرب فيأخذ

نفسه بدراسة اللغة العربية ، ثم يتحمل عبء حركة التنقية فيسير بها إلى غاية
بعيدة ؛ وربما دفعه ذلك إلى ارتكاب الشطط من الأمر في بعض الأحيان
ونعى بهذا الجيل رجال النحو الذين أسسوا هذا العلم ونهضوا به ، وكان
لهم في العناية باللغة العربية والمرص على سلامتها شأن كبير .

وليس لنا أن نفيض الآن في مجهود هؤلاء النحاة ، ولا في مدى
تمسكهم بقواعدهم النحوية ، فإننا سنفصل ذلك بعد قليل حينما نتكلم عن
النحو بمعناه العلمي . وحسبنا أن نعرف فقط أن هؤلاء النحاة قد بدأوا
دورهم في حركة التنقية أيام الدولة الأموية . بجانب الخلفاء والولاة ، ثم
استمروا كذلك حتى عهد الدولة العباسية حيث ألقى عليهم وحدثهم تقريباً عبء
تلك الحركة فكانوا بمثابة الرقباء الحريصين عليها بالرغم مما كانوا يتسمون به
من تزمت وتعسف .

ولقد كان اهتمام هؤلاء النحاة بتلك المهمة التي أخذوا أنفسهم بها يتسع
بقدر اتساع دائرة اللحن ونفسيه في الأوساط الإدارية والثقافية ولكنه
بالرغم من ذلك ظل سلبياً ، فلم يوقف اللحن عند حد ولم يمنع الفصحى من
أن تتضاءل وتنطوي على نفسها في أوساط ضيقة وتترك بذلك الميدان للغة
دارجة ؛ لا تحترم ضوابط النحو ولا تقسم لعلامات الاعراب وزناً ، بل
تنشأ وتنمو على حسابها .

وبعد فيستطيع القارئ أن يلاحظ بما قدمناه من الكلام عن اللحن

ونشأته وخطره أن هذا الداء الذي أصاب اللغة العربية لم يكن خاصاً بها وإنما هو داء تتعرض له كل اللغات على الإطلاق وخصوصاً ما كان منها معرباً، ويستطيع أن يلاحظ كذلك أن أصحاب هذه اللغات المعربة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا الداء ، بل اتخذوا من العدة ما يكفل سلامة اللغة ويبعد عنها ذلك الخطر الذي يهددها ما بين حين وآخر. وإذن فلم تكن اللغة العربية من هذه الناحية أيضاً إلا خاضعة لنفس القوانين العامة التي تخضع لها كل اللغات المعربة .

وقد كان هذا البحث بمثابة تمهيد ضروري للكلام عن النحو العربي ونشأته ، وقد استلزم هذا منا أن نتعرض لكثير من مسائل اللحن ، وأن نلجأ إلى المقارنة بين الأخطاء اللغوية في العربية وفي غيرها من اللغات الأخرى ، وأن نحدد وجهة نظرنا بالضبط فيما يختص باللحن الخطير غير ملقين بالألآراء القدماء وترددهم في تسميات هذه الأخطاء اللغوية المختلفة ، ونظن أننا قد استطعنا الوصول في كل ذلك الى نتائج مبهوسة ، سيتمين القارىء بعد قليل أثرها ومدادها .

نشأة النحو العربي

والأسباب التي دعت إليه

لا يزال الباحث في حيرة من أمر النحو العربي ، ومن الظروف التي لا بدت نشأته ، فلا القدماء أماطوا اللثام بطريقة معقولة عن هذا الغموض الذي لا يزال نحس به ونتعثر في دياجيته ، ولا المحدثون استطاعوا أن يتناولوا هذه المسألة بطريقة جديدة فيتعمقوا فيها بعد أن يمهّدوا لها بالدراسة الواسعة والتفكير الحر والمنطوق السليم . وها نحن أولاء نتساءل لماذا لم يصاحب هذا الغموض غير النحو من سائر العلوم الإسلامية الأخرى كعلم القراءة والفقهاء والتفسير ؟

وربما أجيب عن هذا السؤال بأن هذه العلوم لا سبيل إلى تطرق الشك في أوليتها ونشأتها بعد الإسلام ، إذ أنها تستمد أسسها من القرآن والسنة ، وهما أهم أصليين من الأصول الإسلامية . أما النحو فصلته باللغة وثيقة ، فاللغة قد وجدت وكملت قبل أن يوجد الإسلام . ولكن ينبغي أن نضيف إلى هذا اعتباراً آخر ، ذلك أنه فيما يختص بالنحو قد تدخلت عوامل جديدة أهمها : صفة القداسة التي تمنح للغة العربية حرصاً من القدماء على الرفع من

شأنها ما دامت قد أصبحت لغة التنزيل والإسلام . هذه القصداسة قد جهلتهم يفترضون أنها توقيفية ، وأنها أشرف اللغات على الإطلاق ؛ وأنها كانت صحيحة الإعراب لا يأتيا اللحن ولا الخطأ من بين يديها ولا خلفها بل إن هذه الرغبة نفسها قد دفعتهم إلى تقرير ما هو أشد من ذلك كله ، فقد قالوا إن اللغة العربية كانت لغة آدم عليه السلام في الجنة ، واستمر يتحدث بها ويفتاهم بواسطتها حتى كانت منه الخطيئة التي ارتكبتها بعضيان أمر ربه وعلى أثر ذلك قد انتزعت منه اللغة العربية انتزاعاً ، وهكذا بين لحظة وأخرى نسي اللغة التي كان يعبر بها عن رغباته ويشرح بها ضرورياته ؛ وبقي كذلك حتى تاب إلى ربه وحينئذ عادت إليه اللغة العربية وتقمصته من جديد فأخذ يتحدث بها كأن لم يكن منه نسيان فيما مضى ، أمر عجيب ، وتصوير أعجب !!! .

وعلى هذا فقد تسرب إلى بعض العلماء قديماً أن نحو هذه اللغة لا بد وأن يكون كذلك توقيفياً . فيزعم ابن فارس أن علم النحو في اللغة العربية قديم قدمها ومنزل كتزييلها ، وأنه كان معروفاً ومدروساً من أيام جرهم ، ثم نوسيت قواعده مع استمرار العمل به حتى جاء أبو الأسود الدؤلي وشعر الحاجة إليه فأحيا ما اندثر منه وعمل على تعليمه الناس من جديد (١) .

(١) - انظر تاريخ آداب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٤١ .

وأظننا في غير حاجة إلى أن نقف أمام هذه الرواية وأمثالها لنقدها ،
أو لتفنيدها ، وخصوصاً وأن بعض القدماء أنفسهم قد عز عليهم تصورهما ،
ورفضوا قبولها . وقد كان هذا الرفض في أغلب الأحيان سلبياً ، إذ
أنهم لم يرجعوا في أولية الوضع في النحو إلى ما قبل الإمام علي بن
أبي طالب .

ويضاف إلى هذا عامل آخر وهو إن كان يعتبر في الدرجة الثانية بالنسبة
لمعنى القداسة إلا أنه جدير بالملاحظة ، ذلك هو الرغبة البينة في إسناد هذا
العلم إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رأس الشيعة . ولا يبعد أن يكون
هذا نوعاً من الدعاية السياسية والدينية في وقت واحد .

هذه الأمور مجتمعة قد كست المسألة غموضاً ؛ وزادت الأمر اضطراباً
وجعلتنا نقف من نشأة النحو العربي موقف المتردد في قبول هذه الروايات
العديدة في نشأة النحو ، ومن أسس قواعده ، ورسم ضوابطه
الأولى ، بالرغم مما نلاحظه من شبه إجماع للرواة في إسناد هذا العلم إلى علي
بن أبي طالب ، وعنه أخذه أبو الأسود الدؤلي . فإن الإجماع أو شبهه في
هذه المسألة ينبغي أن لا يكون له من الأهمية مثل الإجماع في بعض المسائل
الدينية ، إذ يجوز أن يكون مصدر هذا الإجماع رواية فردية ، ثم تناقلها
الخلف عن السلف حتى وصلت إلينا في شبه إجماع .

كل هذه الاعتبارات ينبغي أن تدخل في حسابنا ، وأن تكون موضع
ملاحظتنا حينما نبحث نشأة النحو العربي . وما دام رائدنا الأول في الدرس

هو العقل ، به نتفهم الروايات ، وبه نحكم عليها ولا ندعها تفرض نفسها علينا ، وعليه نعلم في التحليل والاستنتاج . نقول ما دام رائدنا الأول هو العقل فقد تكون رواية فردية في زاوية مهجورة من زوايا الكتب أولى بالعناية ؛ وأجدد بالاهتمام من شبه الإجماع الذي يظالمنا في أغلب الكتب ، وفي المكان البارز منها .

إن الأسباب التي يمكن أن تكون قد دعت إلى وضع النحو العربي هي في جعلها نفس الأسباب التي دعت إلى نشأة العلوم الإسلامية الأخرى في عصر الدولة الأموية ؛ حافظ ديني أولاً ؛ ثم ظروف اجتماعية ثانياً ، وسنفصل الكلام عن هذين السببين بعد قليل .

وهكذا لو نظرنا في نشأة علم القراءات أو الفقه أو الرواية أو التفسير لما رأينا واحداً منها يخرج عن هذه الاعتبارات فليس معقولاً إذن أن يشذ وضع النحو اللهم إلا في جزئيات لا تتناول جوهر المسألة وإنما تمس العرض كالاستعانة في ذلك ببعض ما عرف عند الأجانب ، وكاتخاذ خطوة عملية فيها قبل أن يخطو العلماء المسلمون الآخرون في ميادين علمهم .

وقبل أن نأتي على ذلك بالتفصيل نحب أن نستعرض في صورة عاجلة نشأة العلوم الإسلامية الأولى ليكون ذلك بمثابة التمهيد لكلامنا عن النحو الذي لا ينبغي أن ينظر إليه كحلقة مفردة ، الشيء الذي يفسد علينا فهم كثير من مسأله ؛ نتيجة الأفق الضيق الذي نحصر فيه أنفسنا ؛ ولا

لستطيع أن نخرج عنه إما جهلاً ؛ وللجهل عذره ، وإما تهيئاً ؛ وفي ذلك الخطر الكبير .

علم القراءات :

بعد أن جمع الخليفة عثمان أمر المسلمين على نص واحد من المصحف مدفوعاً في ذلك بما بلغه من اختلاف الصحابة في قراءة القرآن نسخ منه أربع نسخ فبعث بواحدة إلى العراق وبأخرى إلى الشام وبثالثة إلى مصر وأبقى الرابعة في المدينة ، ولم يمض زمن طويل على هذا الصنيع حتى أصبح لأهل كل مصر من هذه الأمصار قراءة خاصة يتبعون فيها واحداً من القراء توفرت فيه الثقة ، وهكذا تعددت القراءات بتعدد القراء وأصبحت لكل قارئ طريقة في الأداء ، والمتواتر من هذه القراءات سبع ، تنسب إلى من اشتهر بروايتها ^(١) والذي يهمنا من ذلك أن هذه القراءات تنوقلت بالرواية

(١) - هذا هو الرأي المجمع عليه وقد يعدما بعضهم عشراً ، وهامم القراء السبعة كما يعدم صاحب الفهرست ص ٤٢ طبعة مصطفى محمد .
والذي نستطيع الآن أن نلاحظه بوجه عام على هؤلاء القراء هو أن أغليبتهم من الموالى الذين وضعوا أنفسهم وما يملكون من معارف ، وما يتصفون به من علم وذكاء في خدمة الدين الإسلامي فكان لهم من أجل ذلك أثر عظيم .

أولاً :- أبو عمرو بن العلاء وهو عربي من تميم وقد توفى بالكوفة

ولم تأخذ شكلها العلمى المنظم إلا فى القرن الرابع الهجرى حيث نجسد أول كتاب دون فى هذا العلم ، وهو كتاب الإيضاح فى الوقف والابتداء لمحمد بن قاسم الأنبارى المتوفى سنة ٢٢٨ هـ ، ومن هذا الكتاب توجد نسخة

سنة ١٥٥ هـ ، ولم تكن شهرته فى اللغة العربية بأقل من شهرته فى القراءة للقرآن ، وقد أخذ عنه يونس بن حبيب كما أخذ عنه كثير من مشايخ البصريين فى الطبقة الرابعة منهم .

ثانياً :- نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم المدنى المتوفى سنة ١٦٩ هـ بالمدينة ، ويروى الأصمعى عن نافع هذا أنه قال : « أصلى من أصفهان ، وكان مولى جمعونة بن شعوب الشجعى ، وقد عرف عنه أنه كان شديد السواد ، وأشهر من روى عن نافع محمد بن إسحق المسيبى .

ثالثاً :- عبد الله بن كثير ويكنى أبا سعيد ويقال أبا بكر ؛ وهو من قراء مكة فى الطبقة الثانية ، وهو مولى عمرو بن علقمة الكنانى ، وكان من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى بالسفن إلى اليمن لطرد الأحباش منها . وقد توفى عبد الله بن كثير سنة ١٢٠ هـ بمكة ودفن فيها بعد أن صارت له شهرة عظيمة بأرض الحجاز . ويذكر ابن خلكان ج ١ ص ٢٥٠ ، أن ابن كثير كان أسمر اللون طويل القامة جسيماً أشبه العينين ، أبيض الرأس واللحية ، وكان يغير شيبته بالحناء . وأشهر من روى عنه إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين مولى ميسرة مولى العاص بن هشام .

رابعاً :- عاصم بن بهدلة ويكنى أبا بكر بن أبى النجود . توفى بالكوفة سنة ١٢٨ هـ ، وهو مولى بنى جديمة ، وقد أخذ القراءة عن أبى عبد الرحمن

خطية في دار الكتب المصرية وثانية في المتحف البريطاني وثالثة في مكتبة
كوبربيللي في الآستانة ، ومعنى هذا أن علم القراءة بدأ في خلافة عثمان
واستمر يمارس مشافهة دون تدوين حتى القرن الرابع الهجرى .

السلي : وزر بن حبيش . وقد روى عن عاصم بن بهدله أبو بكر بن عياش
مولى واصل بن حيان الأحدب .

خامساً :- عبد الله بن عامر اليحصبي وكنيته أبو عمران ؛ ويقال إنه
أخذ القرآن عن عثمان بن عفان وقرأ عليه ، ويعتبر في الدرجة الأولى من
التابعين ؛ وهو من أهل دمشق وقد توفى بها سنة ١١٨ هـ . وقد روى عن ابن
عامر كثير ، منهم يحيى بن الحارث الذماري ، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر
وسعيد بن عبد العزيز .

سادساً :- حمزة بن حبيب الزيات ، وهو مولى آل عكرمة بن ربيع
التميمي ، وكان يشتغل بالتجارة ما بين الكوفة وحلوان العراق ، فكان يجلب
الزيت من الكوفة إلى حلوان ، ويحمل من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة
وهو في الطبقة الرابعة من الكوفيين . وتوفى بحلوان العراق سنة ١٥٦ .

سابعاً :- الكسائي النحوي ، علي بن عبد الله بن بهمن بن فيروز وهو
من أصل أعجمي ، قد نشأ بالكوفة وكان كثير الانتقال في البلدان . قرأ
علي عبد الرحمن بن أبي ليلى وحمزة بن حبيب . وكان يقضى الناس أولاً
بقراءة حمزة ؛ وأخيراً في خلافة هارون الرشيد اختار لنفسه قراءة أقرأ بها
الناس وقد توفى بقرية من قرى الري سنة ١٧٩ .

أما التفسير فقد نشأ كذلك بسيطاً يقتصر على بعض الآيات التي غمض معناها أو تحتمل أوجهاً من التأويل ؛ وأول من تجمع الروايات على تفسيره القرآن هو ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ ؛ ولكن هذا العلم أيضاً قد استمر مشافهة حتى أواخر القرن الأول الهجري ؛ ولم يعرف كتاب دون في التفسير قبل الذي دونه مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ

وحتى ما دونه هذا العالم لم يوقف له على أثر حتى الآن ؛ ولكن يظن أن تدوينه في التفسير ليس إلا تفسير ابن عباس قد وصل إليه بطريق الرواية ، ويؤيد هذا ما وجد في دار المكتب المصرية من نسخ في التفسير منسوبة إلى ابن عباس بينما مقدمة هذه النسخ تشير إلى أن هذا التفسير لم يدون في أيام صاحبه وإنما نقل بالرواية ودون في عهد متأخر ، وقد اطلع على هذه النسخ وناقش هذه المسألة الأستاذ جورجى زيدان (١) وقد انتهى فيها إلى هذا الرأي الذى ذكرناه .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٠٥ . ولمن يريد التوسع في هذه المسألة ، والتأكد منها يرجع كذلك إلى ما كتبه صاحب الفهرست ص ٥٠ طبعة المطبعة الرحمانية بمصر ، تحت عنوان (تسمية المكتب المصنفة في تفسير القرآن) .

ولقد خطا بجهود العلماء في خدمة القرآن ودراساته خطوات واسعة ،
حتى أصبحنا في عصر ابن السديم نجد أن عدد المكتتب التي ألفت في
تفسير القرآن فقط قد بلغت خمسة وأربعين كتاباً ؛ وهذا عدا ما ألفت
في معاني القرآن ومؤلفه وبجازه ، ثم في غريبه ، وقرآياته ، ونقطه وشكله
ونزوله ، وناسخه ودمسوخه وأحكامه ، و تنزيله . . . الخ (١)

علم الحديث :

وأما الحديث فكان أول أمره مقصوراً في روايته على الصحابة
الذين سمعوا نصح من الرسول ولم يكن هناك مجال لتحريفه أو للإضافة
إليه ، ولكن بعد الفتنة الكبرى التي أصابت المسلمين بمقتل عثمان نشط
الحديث نشاطاً غير معروف إذ استغلته أحزاب الأمة العربية لأغراض
سياسية ، فبدأ دعاة كل حزب يضعون من الأحاديث ما يبرر مذهبهم ،
وتكاثر ذلك مع الزمن حتى أصبح من غير اليسير تمييز الصحيح من الباطل
وهنا اضطر علماء الإسلام إلى التفكير الجدي في وضع أسس هذا العلم
وضوابط الرواية لكي يمكن التمييز بين الأحاديث الصحيحة والضعيفة
والمختلفة ، ومع هذا فقد ظل هذا المجهود العلمي في هذا الميدان يتناقل
مشاقفة طول عصر الدولة الأموية ، ولم يعرف من دون فيه قبل الإمام

(١) الفهرست لابن السديم ص ٥٠٥ إلى ٥٨ ، حيث يوجد ثبت لكل

المكتب المؤلفة في هذه الموضوعات

مالك بن أنس التيمي القرشي المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وكتاب هذا المحدث
الفقيه هو الموطأ الذي جمعه ورتب أبوابه على حسب ترتيب أبواب الفقه ،
ويعتبر الموطأ الثمرة الأولى لجمع هذا العلم وتطبيق عناوين الرواية ، ومن
بعده نضج هذا العلم نضوجاً سريعاً وجمعت فيه الكتب على أيدي الأئمة
من المحدثين .

علم الفقه :

وأما الفقه فكانت أول مسائلة تدور حول تعرف بعض الأحكام الدينية
وتفهمها ، وكان الرسول بطبيعة مركزه أول من استفتى في ذلك ،
وحينما انتقل إلى جوار ربه قام الخلفاء الراشدون وغيرهم من الصحابة بهذه
المهمة ، وتلك هي النواة الأولى للفقه في الإسلام ، غير أن طبيعة المجتمع
الإسلامي في أول الأمر لم تكن في حاجة كبيرة إلى غير ما تصرح به
نصوص الكتاب والسنة . ولكن حينما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية
وتشعبت أمور المجتمع وتعقدت المسائل الدينية اشتدت الحاجة إلى الفقه
والفقهاء ليرجع إليهم في شؤون التولية ، والعزل ، والقتل ، والعفو ، وغير
ذلك مما يمس الدين ويهم المسالمين ؛ ومع هذا فقد استمر الفقه كغيره من
العلوم الإسلامية يدرس ويتفهم عن طريق المشافهة والرواية طول العصر
الأموي ؛ ولم يعرف فيه نظام التدوين والتأليف إلا بعد أن تخصص له
العلماء ونبغ فيه الأئمة الأربعة في عهد الخلفاء العباسيين ؛ الإمام مالك
٩٥ - ١٧٩ هـ ؛ والإمام أبو حنيفة ٨٠ - ١٥٠ هـ ، والإمام الشافعي

١٥٠ - ٢٠٤ هـ : والإمام أحمد بن حنبل ١٦٤ - ٢٤١ هـ .

ولما من يدرس مبادئ الفقه الإسلامي ، ويلاحظ ما طرأ عليه من تطور في الأحكام بالنسبة لتطور الدولة والمجتمع لا يخامرهم شك في أن جهود الفقهاء في الدولة الإسلامية لا يقل عن جهود المشرعين ورجال القانون في الدول الأخرى .

من هذا العرض السريع تبين لنا ظروف نشأة العلوم الإسلامية الأولى وطريقة نموها وتطورها ولم يمكن الحافظ لتأسيسها وتدوينها رغبة مجردة للعلم من حيث هو ، وإنما هي ضرورة اجتماعية يحدوها حافظ ديني . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتصور علم النحو ، غير أنه من المرجح أن تكون الضرورة في التفكير في وضع أسسه كانت أشد إلحاحاً من الضرورة في وضع العلوم الأخرى ، إذ أن موضوع هذه العلوم كان إما تفهم نصوص الدين على حقيقتها وإما استنباط أحكامه كي يتمشى مع اتساع الدولة وورق المجتمع ، ولم يكن هناك نوع من الفساد قد تسرب إلى طبيعة الإسلام وحالة المسلمين في الزمن المبكر .

أما موضوع علم النحو فكان اللغة التي هي بمثابة الأداة للتعبير عن تلك الأحكام ، وقد رأينا كيف تعرضت هذه اللغة إلى الفساد منذ أيام الرسول صلى الله عليه وسلم .

وإذن يمكننا على ضوء ما تقدم من الكلام على اللحن ونشأته أن نقول

السبب المباشر في وضع النحو هو تسرب الفساد إلى لسان العرب سواء
إن ذلك على يد الأجانب الذين دخلوا في الإسلام أم على يد العرب
من امتزجوا بهؤلاء الأجانب وخالفوهم ثم سلكوا في الحياة الاجتماعية
ببلا لم يكن معهوداً لهم من قبل ، وهناك سبب آخر يمكن إضافته إلى
، وهو الرغبة في تعليم اللغة العربية وتيسير طرق الأداء بها بعد تفهمها
راك دقائقها وأسرارها بالنسبة للأجانب الذين انضوا تحت راية الدولة
لامية وعتوهم ناضجة وثقافتهم واسعة وتفهم كبيرهم منطقي سليم إلى حد
، وما كان ينتص هؤلاء سوى الإجابة في أداة التعبير التي أصبحت
ورية في المجتمع الإسلامي بأسره لكي يستقبلوا مواهبهم في تأسيس
نارة الإسلامية ؛ وينالوا حظهم من الحياة في ذلك المجتمع العربي الجديد .
ولهذه الحالة أمثالها عند اليونانيين حينما اتسعت رقعة الدولة وبدأت
الرغبة في تعليم الشعوب المفتوحة لغتهم وفنهم وأدبهم ؛ فقد رأينا
السياسة فيهم يعتمدون إلى حد كبير على رجال اللغة اليونانية ؛
نا هؤلاء اللغويين بدورهم ينجون في النحو نهجاً جديداً لا يقوم فقط
إدراك ما في اللغة اليونانية من أسرار بلاغية ودقائق فنية ،
كنهم يضعون بجانب هذا الضوابط والأسس التي تمهد السبيل لتعليم
اليونانية بالنسبة للأجانب الذين كانوا يجنون من الحوافر العديدة
فهم إلى معرفة تلك اللغة .

وكذلك الشأن أيضاً عند الروم ؛ بل إننا لا نزال نجد نفس الطريقة
ونفس الهدف ملاحظين عند أصحاب اللغات الحديثة الذين يتلمعون في
نشر ثقافتهم وإعلاء شأن معارفهم ؛ وليس ذلك في الواقع سوى امتداد
للقديم .

هذان ، فيما نتقدم ، هما السببان الرئيسيان في نشأة النحو ، وإن كنا
نعترف بأن هناك أسباباً أخرى ثانوية قد نشطت هذا البحث وحفزت
المهتمين بشأنه إلى أن يخطوا فيه خطوات واسعة سريعة ، من ذلك ما كان
يوجد بين الدارسين للعربية من تنافس على تلك المكانة الأدبية التي يتمتع
بها كل من يبرز في معرفته للعربية الصحيحة وخصوصاً في زمن كان المشرفون
فيه على أمور الدولة من أشد الناس حرصاً على اللغة السليمة وتمسكاً بكل
ما هو عربي ، ومن ذلك أيضاً ما كان من منافسة بين مدرستي البصرة
والكوفة على جمع اللغة والدراية بها ووضع الضوابط لتفهمها والإجادة
فيها ، ونحن نعرف مبلغ تشجيع الخلفاء الأمويين لهاتين المدينتين رغبة منهم
في أن يحل محل مكة والمدينة في بيئة الحجاز وما كان لذلك من أثر في
شجذ الهنم ، والنهوض بالعلم والبحث وخصوصاً ما تناول النحو . والذي
ينبغي أن نلاحظه هنا قبل أن ننتقل إلى الكلام عن نقطة أخرى هو أن
الصبيين الرئيسيين للنشأة النحو كانوا يتمشيان ضرورة مع طبيعة تطور النحو
نفسه ، ومبلغ حاجة المجتمع إليه مثل ما حدث بالنسبة للعلوم الإسلامية

الأخرى التي تقدمت الإشارة إليها ، بمعنى أن الخطوة الأولى في وضع النحو ينبغي أن تكون بمثابة رد الفعل المباشر لتسرب اللحن إلى اللغة والقرآن على الخصوص ، فلا بد إذن أن يكون الفرض منها هو إبعاد هذا الخطر عن نصوص القرآن وهو جماع أمر الدين ، ولن يتأتى ذلك إلا بوضع ضوابط عملية تحفظ عليه نصوصه ، وتسهل على من لم يتمكن متمسكاً من العربية قراءته . ثم تتعدد الأسباب الأخرى ويفتح أمام الباحثين ميدان جديد ، فيتوسعون في الدرس بقضايا ما تسمح لهم ظروف البحث نفسه ، وأخيراً ينتهون إلى الفكرة المجردة عن العلم من حيث هو لا من حيث كونه مقيداً باعتبارات أخرى .

وهنا نلمس عنصراً أجنبياً يدخل على العقلية العربية ، والتفكير عند علماء الإسلام ، فيكيف تلك العقلية تكييفاً جديداً وينظم هذا التفكير نظماً يخضع لمبادئ علمية ، لم تكن معروفة عند المسلمين من قبل ؛ ونعني بذلك العنصر هو أثر الفلسفة اليونانية بصفة خاصة ؛ وليس لنا أن نفيض لأن في هذا الأثر ، وفيما كان من نتائجه المباشرة على التفكير والعلم ؛ أننا سنتحدث عنه في شيء من التفصيل عندما نتعرض للكلام على الأثر الأجنبي في النحو العربي .

وبعد فإننا نظن أن لهذا التمديد أثره فيما سنتحدث عنه بعد قليل بالنسبة تاريخ وضع النحو وتتبع المراحل التي مر بها حتى أصبح مهياً لأن يكون علماً ناضجاً .

من هو الواضع الأول

للنحو العربي ؟

إن الكلام على الواضع الأول للنحو العربي يستلزم منا كلمة يسيرة عن لفظ « النحو » وكيف أطلق هذا اللفظ على مجموعة القواعد التي تضبط اللغة وتنظم النطق بها . وهذا بطبيعة الحال يحتاج منا بدوره أن نرجع بعقولنا إلى الماضي لتعيش بها فترة في حياة العرب بعد أن توطدت دعائم الإسلام وثبتت قواعده في البيئات المفتوحة ، ونعني بتلك الفترة المدة المحصورة بين سنة ٤٠ هـ وأواخر القرن الأول الهجري . في هذه الفترة نلاحظ اتجاهاً جديداً من جانب العرب في تنظيم دولتهم تنظيماً داخلياً ، ولعل أهم مظهر لهذا الاتجاه هو العناية باللغة العربية ، وسواء أفهم ذلك عنهم تعصباً للغتهم أم لا ، فإن طبيعة موقفهم كعسكريين لدولة إسلامية كانت تحتم عليهم ذلك الاتجاه وتلك العناية .

ولهذا يجب ألا نلتقي بالألأ إلى قول أولئك الذين ينسبون التعصب إلى العرب حينما أخذوا يفرضون لغتهم بطريق غير مباشر على الشعوب المفتوحة مقارنين صنيع العرب في هذا بـ ما صنع الرومان حينما غزوا بلاد اليونان

والشعوب الخاضعة لهم دون أن يتعرضوا إلى لغة هذه الشعوب ، بل تركوهم يمارسون التعليم ، ويديرون دفعة الأمور الموكولة إليهم في الدولة بلغتهم . لا باللغة اللاتينية ، نقول يجب ألا نلتقي بالأى إلى رأى القائمين بهذا كما يجب أن نلاحظ الفارق البعيد بين الدولة الرومانية ، والدولة العربية ، فإذ لم تكن لها رسالة دينية تريد أداءها ، ولم يكن غرضها من الفتح سوى المطامع السياسية والاقتصادية بأوسع معانيها ، أما الدولة العربية فكان غرضها الأول هو نشر الدعوة الإسلامية وتنفيذ رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأهم أصل في الإسلام هو القرآن ؛ مصدر الأحكام والقوانين وهو باللغة العربية وإذن فلم يكن عجيباً من العرب أن يوجهوا همهم إلى اللغة العربية يستعملونها في إداراتهم ، ويمهدون السبل لتعلمها ، ويشجعون على النبوغ فيها ، وأهم عمل لهم في هذا هو ترجمة الدواوين إلى اللغة العربية ، وكان ذلك أيام خلافة عبد الملك بن مروان ، وأول ديوان نقل إليها هو ديوان الشام بلغة الروم وكان ذلك في سنة ٨١ هـ ، ثم تلاه بعد ذلك ديوان أهل فارس بالفارسية وديوان أهل مصر بالقبطية .

في هذه الفترة التي تحدثنا عنها منذ قليل لم يكن العرب قد استقروا من الناحية الفكرية والعلمية كما استقروا من الناحية الإدارية والسياسية ، ولهذا فليس معقولاً أن نتصور لدى العرب في خلال القرن الأول من الهجرة علوماً منظمة ؛ لها قواعد ، ومناهجها ، ومصطلحاتها .

وإذن فإنه لما ينبغي أن نلاحظه قبل كل شيء أن كلمة « النحو » التي
تستعملها هنا لا تريد منها النحو بمناه العلى المتعارف ؛ فإن ذلك لم يكن إلا في
مصور متأخرة بعد أن سار هذا العلم خطوات في سبيل التكوين والنمو .
وأما في مرحلته الأولى ، أو في الفترة التي نتحدث عنه فيها ؛ أى في زمن
حياة على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وبعض من جاء بعدهما
فكان يطلق عليه (العربية) . ولصكنا نستعمل كلمة (النحو) استعمالاً
مجازياً باعتبار ما يؤول إليه ، وذلك مثل صنيع سائر الرواة الذين
استعملوا هذا الاصطلاح على ما عرف من هذا العلم أيام على أو أيام
أبى الأسود الدؤلى . وستأتى بعد قليل فرصة نتحدث فيها عن أولئك الرواة
ونذكر نص عباراتهم التي استعملوها في نسبة هذا العلم إلى واضعيه .

وفي الحق أنه بعد أن هدانا البحث الطويل في كتب اللغة ، والأدب ،
والرواة ، والتاريخ إلى أن كلمة « نحو » لا يمكن أن يقصد منها في عهد الدولة
الأموية ؛ وصدر الدولة العباسية ذلك المعنى الاصطلاحى الذى نفهمه الآن ،
نقول إنه بعد أن هدانا البحث إلى ذلك واطمأنت إليه نفسنا ، وقر به
ضميرنا وجدنا في ثنايا اطلاعنا ما زعزع هذه الطمأنينة ، وأزعج ثقتنا فيما
وصلنا إليه من استنتاج ، ذلك أننا رأينا فى ترجمة يوحنا الإسكندرانى أنه
كان قد اصطاح على تلقيبه ببجي النحوى ، وكان يوحنا هذا من النصارى
اليقويين ، وكان يعيش أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أيام الخلفاء

الراشدين من بعده ، وقد أدرك فتح عمرو بن العاص لمصر وكانت له في البلاد
المصرية شهرة عظيمة حتى أن عمراً ذهب إليه ولقيه فأكرمه واعترف
بمكاتبته . (١) وجود هذا الاصطلاح المبكر على تلك
الشخصية النصرانية أيام أوائل رجال اللغة العربية أمثال أبي الأسود الدؤلي
وعنيسة الفيل ، ونهر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز وغيرهم جعلنا نتردد
كثيراً فيما قررناه سابقاً بالرغم من أننا لم نعثر فيما اطلعنا عليه على مثل
هذا الاصطلاح بالنسبة لهؤلاء العلماء اللغويين من العرب . وبينما نحن في هذه
الخيرة من الأمر ، وفي ذلك التردد المزعج إذ بنا نهتدى إلى تفسير لهذا
الاصطلاح من قدامى رجال اللغة العربية أنفسهم بربيل عنا تلك الشبهة وبتشابهنا
من هذه الخيرة ، بل ويعيد إلى النفس حالة العظماءينة الأولى ، ذلك أننا رأينا
في لسان العرب تحت كلمة - نحأ - نصاً ينقله صاحب اللسان عن الأزهري
وهذا النص يفيد أن إطلاق كلمة - نحوى - كان مساوياً بالضبط لكلمة
- لغوى - ؛ وإذن فلم يكن المقصود بالنحوى حينئذ الرجل الذي يدرس النحو
ويؤلف فيه بالمعنى الذي نفهمه الآن من كلمة النحو . وإليكم نص عبارة
الأزهري ، كما ينقلها صاحب اللسان : (٢) (نحأ) الأزهري ثبت عن أهل
يونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم ولغتهم إنهم يسمون علم الألفاظ

(١) - الفهرست لابن النديم ص ٢٥٦ - ٢٥٧

(٢) - لسان العرب ج ٢٠ . ص ١٨١

والعناية بالبحث عنه نحواً ؛ ويقولون كان فلان من النحويين ولذلك سمي
يوحنا الإسكندراني يحيى النحوى الذى سكن حصل له من المعرفة بلغة
اليونانيين . . .)

وإذا وضع لنا الآن أن كلمة - نحو - بمعناها الاصطلاحي الذى نفهمه فى
هذا العصر لم يسكن موجوداً فى أيام الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية
يدلنا على ذلك زيادة على ما تقدم أننا لا نجد كتاباً فى العربية حتى بعد
سبويه يسمى صراحة كتاب النحو ، فالكتابان المنسوبان إلى عيسى بن عمر
البصرى المتوفى سنة ١٤٩هـ واللذان لم يصلنا منها أى أثر كانا يسميان المتكامل
والجامع^(١) وحتى ما ألفه سبويه نفسه فى هذا الميدان لم يكن يسمى بغير
- الكتاب -

نقول إذا وضع لنا موقف لفظ - النحو - بمعناه الاصطلاحي فإنه لما يوضح
ما نحن فيه ويزيل جانباً من الغموض بالنسبة لنقطة حساسة ستحدث عنها فيما بعد
- الأثر الأجنبي فى النحو العربى - أن نذكر شيئاً عن معنى - النحو - فى اللغة
- مبينين أصل الاستعمال اللغوى ومصدر الكلمة ومشقاتها .

(١) يذكر هذين الكتابين كثير من الرواة ، ومنهم ابن النديم ، وإليك
نصه فى ص ٦٣ من الفهرست : « أنشدنا القاضى أبو سعيد رحمه الله للخليل
يذكر عيسى بن عمر والكتابين :

بطل النحو جميعاً ككله * غير ما أحدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع * فهما للناس شمس وقمر

وهما نحن أولاء نلخص هنا ما ذكرته مكتب المعاجم ورآه رجال
اللفة متبعين ، كدأبنا في دراسة فقه اللغفة ، المنهج الذى وضعناه وأشرنا
إليه فيما مضى لمعرفة أصل الكلمة الحسى ثم تطور معناها . ترجح أن
الأصل فى هذه المادة هو — الناحية — أى الجانب من الشئ ؛ ثم جاءت
المشتقات من هذا الأصل فورد المنحاة لمسيل الماء إذا كان ملتويًا كما يقول
ابن الأعرابي ويستشهد بهذا البيت :

وفى أيمانهم بيض رفاق . كبقاى السيل أصبح فى المناهى (١)

وأطلقوا أيضاً على بطن من الأزدي لفظ — بنو نحو — وأهل ذلك كان
منهم لانتحاء جانب خاص يقيمون فيسه أو يلتزمونه ، ومن هذا الوادى
أيضاً ما نجده من إطلاق العرب لفظ — أهل الانحاء — على القوم البعداء
الذين لم يكونوا بأقارب . ومن مشتقات هذه المادة نحأ ينحو بمعنى اتجه يتجه
أو قصد يقصد ، والصلة واضحة بين الناحية ، وهذا الفعل ؛ وقالوا أيضاً
نحأ الشئ ينحأ ، وينحوه إذا حرفه ، ويقول ابن السكيت من هذا سمي
النحوى لأنه يحرف الكلام إلى وجوه الإعراب وقالوا أيضاً نحوت الشئ
أنحوه بمعنى أمته ؛ ومن المشتقات أيضاً رجل ناح من قوم نحاة
بمعنى رجل نحوى من قوم نحويين ، والنسبة فى هذا كالنسبة فى لابن ،
وتأمر ، ولسنا نريد أن نمضى فى ذكر جميع المشتقات من هذه المادة

(١) انظر مادة — نحأ — فى لسان العرب ج ٢٠ ص ١٨١ — ١٨٥

فكلما تدور حول هذا الأساس الذي رجحنا أصالته ، ولكن لا بد من بيان كيف انتقل هذا المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي ، ومن ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح في إطلاق النحو على العلم المعروف والنحو على العالم بقواعد النحو وضوابطه ، نقول من ذلك يظهر جلياً أن هذا الاصطلاح عربي خالص وليس فيه أي أثر أجنبي ؛ ونكتفي في ذلك بعبارة صاحب اللسان فهي مختصرة واضحة ؛ يقول لسان العرب في نفس المادة التي نحن بصددنا : « والنحو إعراب الكلام العربي والنحو القصد والطريق يكون ظرفاً ويكون اسماً ، نحوه ينحوه ، وينحاء نحواً ، وانتحاء ، ونحو العربية منه إنما هو انتحاء سميت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والإضافة والنسب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم أو ان شد بعضهم عنها رد به إليها وهو في الأصل مصدر شائع أي نحواً نحواً كقولك قصدت قصداً ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم ، كما أن الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء أي عرفتته ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم ، وكما أن بيت الله عز وجل خص به الكعبة وإن كانت البيوت كلها لله عز وجل ، قال ابن سيده وله نظائر في قصر ما كان شائعاً في جنسه على أحد أنواعه وقد استعملته العرب ظرفاً وأصله المصدر »

ولنعد الآن الى الكلام عن الواضع للنحو ، وفي سبيل معرفة الواضع

الأول لهذا العلم عند العرب تعترضنا آراء عدة فيها كثير من التضارب والاختلاف ، ولذا فقد كانت فيما مضى ولا تزال حتى الآن مصدر كثير من التردد والشك عند من يريد درس هذه المسألة وتحقيتها . وسنحاول أن نسلك في ذلك منهجاً أساسه تحكيم العقل ، والتمحيص العلي ؛ ولهذا فإننا لن نرفض هذه الروايات المتضاربة التي تطالعنا في ثنايا كتب الأدب واللغة ، ولنكننا سنعتمد عليها إلى حد بعيد ، إذ أنها لا تزال المصدر الوحيد الذي نستطيع أن نعثر عليه حتى الآن غير أننا سندرسها ، ونتفهمها ، ثم نحاول أن نقلها على المقاييس العقلية الناقدة رغبة في أن نصل إلى الحقيقة التي نمشدها . هذا ومن يطلع على ما كتبه رجال الأدب واللغة ، وما ذكره أهل الرواية في هذا الصدد ينتهي إلى ما انتهينا إليه وهو أن من نسب إليهم وضع النحو العربي هم أربعة : علي بن أبي طالب ؛ أبو الأسود الدؤلى ، نصر بن عاصم ، عبد الرحمن بن هرمز .

والذي يهمنا أن نلاحظه هو أن هؤلاء الأربعة قد وجدوا على وجه التقريب في عصر واحد . فعلى قتل في سنة ٤٠ هـ ، وأبو الأسود الدؤلى توفي في سنة ٦٩ هـ ، ونصر بن عاصم توفي في سنة ٨٩ هـ ، وعبد الرحمن بن هرمز توفي في سنة ١١٧ هـ ، وإذن فاستطيع أن نقول إن الرواة متفقون على أن اللبنة الأولى في تأسيس النحو العربي كانت في تلك الفترة المحصورة بين علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن هرمز ، وهي

« فقرة لا تكاد تتجاوز سبعين سنة ، والخلاف إنما هو فيمن وضع هذا
اللبنة وقبل أن تناقش هذا الخلاف نحب أن نذكر أهم الرواة الذين أثر
عنهم القول في هذه المسألة :

نجد أولاً محمد بن سلام الجمحي فقد توفي سنة ٢٣٢ هـ ، إذ يقول
ما نصه : (١)

« وكان أول من أسس العربية ، وفتح بابها ، وأنهاج سبيلها ، ووضع
قياسها — أبو الأسود الدؤلي — » ثم قال « ووضع باب الفاعل
والمفعول والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم ... » ثم قال
« ثم كان بعدهم عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، فكان أول من بعج
النحو ومد القياس والعلل »

ثم يأتي من بعد ابن سلام أبو محمد مسلم بن قتيبة (٢) وقد توفي سنة
٢٧٦ هـ . إذ يقول : « هو (أي أبو الأسود الدؤلي) يعد في الشعراء ،
والتابعين ، والمحدثين ، والنجلاء ، والمفاليج ، لأنه أول من عمل في النحو
كتاباً »

وبعد ابن قتيبة نجد المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ

(١) مقدمة كتابه طبقات الشعراء

(٢) الشعر والشعراء — ترجمة أبي الأسود ج ٢ ص ٧٠٧ (طبعة عيسى

الباني الحلبي بالقاهرة — تحقيق وشرح احمد محمد شاكر)

إذ يقول (١) : « أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود
وسئل عن أرشده إلى الوضع في النحو فقال : تلقيته عن علي . »

وبعد أبي العباس المبرد نجد صاحب الفهرست ، محمد بن إسحق النديم
المتوفى نحو سنة ٣٨٥ هـ ، فيتوسع في الرواية وينقل عن آخرين إذ يقول : (٢)
(زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وأن أبا الأسود
أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه . لم

« وقال آخرون : رسم النحو نصر بن عاصم (٣) الدؤلي ويقال الليثي . . .
قرأت بخط أبي عبد الله بن مقلبة عن ثعلب أنه قال : « روى ابن لهيعة عن أبي النضر
قال : كان — عبد الرحمن بن هرمز — أول من وضع العربية . »)

(١) ينقل هذه العبارة أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفى سنة
٣٥٠ هـ ، ويصدرها بقوله (روى الثمالي عن الزجاج أن أبا العباس قال : . . .)

(٢) ابن النديم — الفهرست ص ٥٩

(٣) يعرف نصر بن عاصم الليثي النحوي بأنه كان من أصحاب أبي
الأسود الدؤلي ، ويروي الأستاذ الرافعي (تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١
هامش) أن أول كتاب وضع في النحو على التحقيق هو كتاب نصر بن
عاصم (انظر ياقوت ترجمة بن عاصم) .

ثم ينقل لنا بعد هذا صاحب الفهرست كلاماً طويلاً عما رآه وشاهده
بنفسه في هذا الموضوع ، ونحن نؤثر أن نرويّه بنصه ؛ إذ أن ذلك يلقى
بعض الضوء على ما نحن بصدده . إذ أنه يحدثنا عما رآه بنفسه ، وكل من
قرأ الفهرست لابن النديم ، أو قرأ عنه ، يدرك في سهولة مكانته في دقة
الرواية ، وحرصه على تحرى الحقيقة ، ونزوعه إلى المقاييس العقلية وتحكيمها
في كل ما يقرأه أو يسمعه . هذه الحيلة من جانبه تستحق شيئاً من الثمّة
والإطمئنان من جانبنا بالنسبة لما يرويّه . يقول ابن النديم^(١) « كان بمدينة
الحديثة رجل يقال له محمد بن الحسين ، يعرف بابن أبي بعره ، جماعة
للكتب ، له خزانة لم أرُ لأحد مثلاً كثرة تحتوى على قطعة من الكتب
العربية في النحو واللغة والأدب والكتب القديمة ، فلقيت هذا الرجل دفعات
فأنس بي . وكان نفوراً ضئيلاً بما عنده ، خائفاً عليهما من بني حمدان .
فأخرج لي قطراً كبيراً ، فيه نحو ثلاثمائة رطل ، جلود وصكك وقرطاس
مصرى ، وورق صيني ، وورق تهمي ، وجلود آدم وورق خراساني ، فيها
تعليقات عن العرب ، وقصائد مفردات من أشعارهم وشيء من النحو
والحكايات والأخبار والأنساب والأمهات ، وغير ذلك من علوم العرب
وغيرهم .

وذكر أن رجلاً من أهل الكوفة - ذهب عنى اسمه - كان مستهتراً
بجمع الخطوط القديمة ، وأنه لما حضرته الوفاة خصه بذلك لصداقة كانت

(١) الفهرست ص ٦٠

بينها ، وأفضال من محمد بن الحسين عليه السلام ، ومجانسته بالمدح فإنه كان شيعياً . فرأيتها وقلبتها فرأيت عجباً ! إلا أن الزمان قد أخلقها وعمل فيها عملاً ، أدرسها وأحرفها . وكان على كل جزء أو ورقة أو مدرجة توقيع بخطوط العلماء ، واحداً بعد واحد ، يذكر فيه خط من هو ، وتحت كل توقيع توقيع آخر ، خمسة وستة من شهادات العلماء على خطوط بعض لبعض . ورأيت في جملتها مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج ، صاحب على رضى الله عنه ، ثم وصل هذا المصحف إلى عبد الله بن حانى رحمه الله ، ورأيت فيها بخط الإمامين ، الحسن والحسين ، ورأيت عنده أمانات وعهوداً بخط أمير المؤمنين على عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن خطوط العلماء فى النحو واللغة مثل أبي عمرو بن العلاء ، وأبي عمرو الشيباني ، والأصمعي ، وابن الأعرابي ، وسيدويه ، والفراء ، والكسائي ، ومن خطوط أصحاب مثل سفيان بن عيينة ، وسفيان الثوري ، والأوزاعي ، وغيرهم ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الأسود ما هذه حكايته وهى أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها هذه فيها كلام فى التفاعل والمفعول من أبي الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر .

وتحت هذا الخط بخط عتيق هذا خط علان النحوى وتحت هذا خط النضر بن شميل ثم لامات هذا الرجل فقدنا القطر وما كان فيه فما سمعنا

له خبراً ولا رأيت منه غير المصحف هذا على صكثرة بحى عنه . »
ثم إننا نجد بعد ابن التميمي أبا الطيب عبد الواحد بن علي المتوفى سنة
٣٥١ هـ . يقول في ذلك : « كان أول من رسم للناس النحو أبا الأسود .
أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكان أعلم
الناس بكلام العرب . وأبو الأسود أول من نقط المصحف . واختلف
الناس إلى أبي الأسود يتعلمون العربية وفرع لهم ما كان أصله »
ويعاصر أبا الطيب هذا إمام لغوي آخر هو أبو سعيد السيرافي المتوفى
٣٦٨ هـ . فنجده يروى في هذه المسألة أيضاً رأياً لا يخرج عن آراء
السابقين إذ يقول « أول من رسم النحو أبو الأسود الدؤلي »
ويعاصر السيرافي عالم لغوي آخر ؛ هو أبو منصور محمد بن أحمد بن
الأزهري طلحة بن نوح بن أزهري الأزهري الهروي المتوفى سنة ٣٧٠ هـ ؛
فيرى رأياً لا يخالف فيه معاصره ؛ إذ يقول : « وبلغنا أن أبا الأسود
الدؤلي وضع وجوه العربية وقال للناس انحوا نحوه فسمى نحواً . » (١)

وأصحاب هذه الروايات المتقدمة قد عاشوا كما رأينا في القرن الثاني
والثالث والرابع الهجري . وبعد هذا القرن نجد رواية آخرين يرددون
نفس الروايات المتقدمة دون أن تكون لهم أصالة أو رأى جديد . ولعل

(١) ينقل هذه العبارة عن التهذيب للأزهري صاحب لسان العرب في

أولاهم بالذكر الحافظ بن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، والسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ ، والقفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

أما الحافظ فإنه ينقل عبارة المبرد التي ذكرناها فيما مضى إذ يقول : « أول من وضع العربية ، ونقط المصاحف أبو الأسود ، وسئل عن نهج له الطريق فقال تلقته عن علي (١) » .

وأما السيوطي فإنه يذكر أغلب هذه الآراء المتقدمة ، وهو كدأبه لا يحاول تمحيصها ، ولا إبداء رأي فيها . (٢)

وأما القفطي فإنه يسلك مسلك السيوطي في جمع الآراء والاكتفاء بنفسيتها إلى أصحابها (٣) ولعل أهم شيء لديه هو ما ينقله عن وجهة نظر المصريين في زمنه بالنسبة لمن وضع النخوة ، ويقول : « وأهل مصر قاطبة يزعمون بعد النقل والتصحيح أن أول من وضع النخوة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه - وأخذ عنه أبو الأسود ، وأخذ عن أبي الأسود نصر بن عاصم البصري » .

ثم يمضي في ذكر السلسلة التي ألفنا قراءتها عند غيره ضمن الرواة بالنسبة لطبقات النخوة .

(١) الإصابة - ترجمة أبي الأسود ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٢

(٢) السيوطي - السبب في وضع العربية

(٣) القفطي - انباء الرواة ، الصفحات الأولى من الكتاب ، ص ١٠٠

ونحن لو تجاوزنا عن الخلاف في التعبير بين هؤلاء الرواة الذي لا يترتب عليه كبير خطر ، والذي مصدره في كثير من الأحيان التساهل وعدم الدقة في اختيار الألفاظ الاصطلاحية في الفترات الأولى من تدوين العلوم العربية ، حيث نجد ابن سلام يقول : « أسس العربية وفتح بابها » وابن قتيبة يقول : (وضع العربية) والمبرد يقول : (وضع العربية) وأبو الطيب والسيرافي يقولان : (رلبم النحو) .

نقول لو تجاوزنا عن هذا الخلاف بين لفظ رسم ووضع ، وأسس المتقاربة المعنى فإننا نستطيع أن نخرج من أقوال هؤلاء الرواة بما يشبه الإجماع على أن الواضع لتلك اللبنة الأولى في النحو إنما هو أبو الأسود الدؤلي . وسنحاول الآن أن نتناول كل شخصية من هذه الشخصيات التي نسبت إليها أولية الوضع في النحو العربي فنتفهمها ، ونلم بظروفها ، ونحلل الرواية التي تنسب أولية الوضع إليها ؛ وعلى ضوء ذلك تتكشف لنا الحقيقة التي أجملناها ، ونستطيع أن نصدر عليها حكماً في شيء من الثقة العلمية ، والطمأنينة النفسية .

أما فيما يختص بنسبة ذلك إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فظاهر فيه فكرة التشيع ، وبدل على ذلك أن هذه النسبة لا توجد وتنتشر إلا في البيئات الشيعية ، كما رأينا ذلك في مصر أيام القفطي . ولقد استطعنا أن نلمس ذلك عند القدماء أنفسهم ، وأن نجد أثرها حتى

في بعض هذه الروايات التي نقلناها عن أصحابها .

ويضاف إلى هذا دليل آخر وهو أن ابن سلام وهو أقدم من أشرت
عنه الرواية في هذا الموضوع ، لم يشير بذلك إلى مجهود علي في تأسيس
النحو . وليس بمستبعد أن يكون أبو الأسود نفسه ، وهو من أشد التابعين
لعلي ، ومن أخلص الناس إليه ، قد عزا شيئاً من مجهوده في النحو إلى
أدب المؤمنين تواضعاً منه أو تبركاً به أو تفانياً في شخصيته أو رغبة في
خدمة المذهب الشيعي واستنثاره بكل فضل . وليس بمستبعد أيضاً أن
يكون قد جرت مناقشات ومشاورات بين علي وأبي الأسود فيما كان
أبو الأسود يعززم القيام به من تأسيس النحو ووضع . كل هذا جائز ، وليس
بمستبعد أن يحصل وخصوصاً في بيئة تتغلب فيها المعاني الروحية ، ولكن
المستبعد هو أن يكون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد قام بمجهود علي
وساهم مساهمة فعلية في تلك اللبنة الأولى من علم النحو ، فإن نظروفه
الخاصة ، ومشغولياته الدينية والسياسية ، واهتمامه بما هو أجل من ذلك
وأخطر يجعلنا نطمئن إلى أن أبا الأسود هو الذي نهض بعبء تأسيس
النحو ، وتزعم تلك الطائفة التي اتجهت إلى دراسة العربية والاهتمام بشأنها .
وبما يزيدنا اطمئناناً إلى هذا الرأي هو أننا لم نعر فيها قرأناه من روايات
أوفياء اطلعنا عليه من آثار أدبية وعلمية على أي أثر نهض كدليل مادي على
مشاركة علي في تأسيس النحو ، بل إن هناك من هينه الروايات ، والتي

تلسب وضع النحو إلى علي ، ما يؤكد نفي ذلك عنه ؛ من ذلك ما يرويه
القفطي من أن أبا الأسود قد تلقى الأمر من علي بن أبي طالب بوضع
حروف النصب ؛ ولما رجع إليه بعد أيام قدم إليه صحيفة كتبت فيها
حروف النصب علي هذا النحو ؛ وإن ، أن ، كأن ، ليت ، لعل ، وحينما
قرأها علي سأله : وأين لکن ؟ فقال أبو الأسود ما كنت أدري أنها منها ؛
فقال له علي : أتيتها فأنها منها ؛

ونظرة فاحصة في هذه الرواية وفي مدى ما تتخمله من معاني تجعلنا
نرفضها ، ونحن مطمئنون ؛ فهي لو صحت لأعطتنا صورة عن أن النحو
العربي قد نضج وكمل لا في نظرياته العامة فحسب ولا في رموس مسائله
فقط ، وإنما في تفاصيله ودقائقه قبل سنة ٤٤ هـ ؛ ذلك الأمر الذي لا
يتلاءم مطلقاً مع نشأة علم من العلوم وعلي يد مؤسسه الأول ؛ ثم كيف
يعقل هذا ، وقد استمر النحو في نموه الشريع حتى أيام سيديويه وهو لا يقدم
هنا التفسير الواضح ولا التفصيل العقلي الدقيق لنفس هذا الباب من أبواب
النحو ؟

علي أننا نجد ما يؤكد ذلك بالنسبة لأبي الأسود ، وسنذكره بعد قليل
وإذا كان من علي بن أبي طالب بعض الآراء في هذا فذلك لا يعندو
أو هو قريب الشبه بما عرف من إرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم
لأنه يراه بتصحيح خطأ من نحن أمامه ، فقد روى أن الرسول سمع خطأ في

مجلسه فقال لمن كان معه من الصحابة : « أرشدوا أباكم فقد ضل . » أو هو شبه كذلك بما عرف عن عمر بن الخطاب من حرصه على العربية الصحيحة ، وكرهيته للحن ونفوره من سماعه ثم دعوته بطريق غير مباشر إلى تعلم العربية وتجنب الأخطاء فيها . وإذن فلستطيع أن نقول إن ما كان من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وأمر الخلفاء الراشدين من بعده ومنهم علي بن أبي طالب بشأن اللغة وتصحيحها كان طبيعياً ، تستلزمه الظروف ، وتدعو إليه طبيعة الحرص على اللغة من أصحابها وخصوصاً بعد أن أصبحت لغة الدين الجديد وأداة معرفة أحكامه ، وكان هذا لا يزال بعيداً عن الفحور بمعناه العلمي ووضع قواعده على أساس منظم .

وأما ما رواه ابن القيم من أنه قرأ بخط أبي عبد الله بن مقلة عن ثعلب من أن الواضع للعربية هو عبد الرحمن بن هرمز فلا ينبغي أن يقول عليه ، ذلك لأنها رواية من مصدر واحد ولم يوجد ما يدعمها ولا ما يقويها من أدلة أخرى حتى تستطيع أن تقف أمام الإجماع الذي رأيناه في جانب أبي الأسود الدؤلي . وعلى فرض قبولها وصحتها فإننا نستطيع أن نفهمها على الوجه الآتي :

كان عبد الرحمن بن هرمز من أصحاب أبي الأسود الذين يهتمون بالعربية وبالمحافظة عليها ، ولم يكن المجهود الذي يبذل في هذه الناحية مثلاً في دراسة مدرسية منظمة كما نتصوره الآن ، بل كان بمثابة مشاورات تتبادل ، وآراء تعطي ، ونصائح تقدم لمناسبة خطأ أو لحن لوحظ على

لسان متكلم بالعربية أو قارئ لبعض آيات قرآنية ، ثم إن هذا المجهود لا يمكن أن يتصور دائماً صادراً عن أولئك المهتمين بأمر العربية مجتمعين ، بل كان كل منهم في حل من أن يصدر رأيه على انفراد أو يصحح خطأ دون الرجوع في ذلك إلى رأى أستاذ أو الاعتماد على كتاب مسدود ، فكانوا جميعاً أساتذة في العربية حريصين عليها متعاونين على سلامتها وعلى إنقاذها من ذلك المرض الاجتماعي الذي بدأ يتسرب إليها ، وأمر أولئك الذين نستطيع أن نسميهم أوائل النحاة في العربية يشبه تماماً ما كان معروفاً عند أوائل النحاة في اليونانية واللاتينية والسريانية ؛ إذ أن كل واحد منهم كان يساهم بنصيب من ناحيته في تلك الملاحظات اللغوية التي أصبحت فيما بعد أساساً لوضع النحو ؛ ثم إن هذا التعاون لم يمنع واحداً منهم أو أكثر من أن يخطو خطوة عملية في وضع اللبنة الأولى من هذا البناء ، ومع ذلك فقد كان هذا المجهود الأول يعزى إليهم جميعاً .

وعلى ضوء هذا يمكن أن يقال إن عبد الرحمن بن هرمز قام بنصيب من الملاحظات النحوية الأولى في اللغة العربية ، وكانت هذه الملاحظات تلقى مشافهة لا تدويناً ، ولعله في هذا الميدان قد ساهم بنصيب كبير حتى إن ثعلب روى أنه الواضع للعربية .

وهذا الذي ذكرناه بالنسبة للملاحظات النحوية الأولى عند اليونانيين واللاتينيين ، والسريان وكذلك بالنسبة للنحاة الأوائل لهذه اللغات المختلفة

ينسب لما أيضاً ما ذكره الرواة من أولية الوضع في النحو العربي لغير عبد الرحمن بن هرمز ، إذ المسألة في نظرنا لا تعدو أن تكون نشاطاً ملحوظاً واهتماماً أوسع في دائرة الأخطاء العربية وتصحيح اللحن فيها ومراعاة الدقة في التعبير . ولعل نشاط عبد الرحمن بن هرمز قد ازداد بعد أبي الأسود الدؤلي حتى كاد يطغى عليه مما جعل ثعلب ينسب إليه أولية الوضع لهذا العلم ، ويخيل إلينا أن كلمة الوضع عند هؤلاء الرواة كانت تطلق على من يبذل نشاطاً واسعاً في العربية كما كانت تطلق كذلك على الواضع الحقيقي لأوليات النحو .

ومن هنا نجد نسبة الوضع الأول للنحو العربي تعزى الى كثيرين ، ومن يفهم الجو العام للإنتاج النحوي الأول في البيئات العديدة لا يجد حرجاً في تفسير ذلك كما أنه لا يجد صعوبة كبيرة في استخلاص رأى يلس فيه وجه الحقيقة معتمداً على أدلة جزئية أخرى تعززه وتقويه . وإذا كان الرواة ، كما لاحظنا ، قد توسعوا في إطلاق كلمة « الواضع الأول للعربية » فاستباحوا لأنفسهم إطلاقها على من بذل جهداً في تخلص العربية بما شابهها من لحن وضعف فإنهم قد احتاطوا من ناحية أخرى فلم يطلقوها على من أشرف على هذه المهمة من ولاة الأمر فلم نر ولم نسمع بأن زياد ابن أبيه أو الحجاج بن يوسف الثقفي قد اشتركا في وضع النحو بالرغم مما أبدياه من حرص على اللغة وقدماء من معاونه في سبيل تخليصها والمحافظة عليها ؛ أما الأول فقد مد يد المساعدة إلى أبي الأسود الدؤلي ، وفي

بعض الروايات هو الذي أمره بوضع النحو وألح عليه في ذلك ؛ وأما الثاني فهو الذي باشر الخطوة الثانية في المحافظة على اللغة وضبطها وذلك بنقط الإجماع الذي وضعه نصر بن عاصم الليثي .

هذا وأمر نصر بن عاصم بالنسبة لوضع النحو يكاد يكون أدق وأشكل من أمر عبد الرحمن بن هرمز ، ذلك أن نصر بن عاصم قد قام بخطوة إيجابية في ضبط اللغة العربية وحل كثير من إشكالاتها بواسطة نقط الإجماع الذي أصبح ضرورياً بعد أن دخلت اللغة في مرحلة الكتابة واتسعت فيها دائرة التسجيل فكانت حاجتها إلى ضابط يميز الحروف المتشابهة كالباء والتاء والشاء والنون ، والسين والشين ، والذال والذال والراء والزاي ، والضاد والضاد والظاء . . . الخ .

نقول كانت حاجتها إلى ضابط يميز هذه الحروف بعضها عن بعض لا تكاد تقل عن حاجتها إلى نقط الشكل الذي يميز أواخر الكلمات . وما يزيد الموقف دقة بالنسبة لنصر بن عاصم هو أن بعض الرواة ينسب إليه أنه وضع كتاباً في النحو . بل إن الأستاذ مصطفي صادق الرافعي يذهب إلى أبعد من ذلك فيروي أن كتاب نصر بن عاصم يعتبر أول كتاب في النحو على التحقيق (1)

(1) تاريخ آداب العرب ج ١ ص ٢٩١

ومع هذا فإننا نستطيع في غير كبير عناء أن نفهم موقفه فيها بظمن
إليه البحث ، ونستخلص حقيقة موقفه دون تعارض مع ما نسب إلى أبي
الأسود الدؤلي من وضع اللبنة الأولى في بناء النحو العربي . ذلك أن الخطوة الإيجابية
التي قام بها نصر بن عاصم ولم ينسبها واحد من الرواة - فيما اطلعنا - إلى
غيره ينبغي أن نخرجها عن دائرة النحو بالرغم من مساهمتها الفعالة في خدمة
اللغة وتخليصها من كثير من الأخطاء التي كانت معرضة لها . وبالرغم كذلك
من مشاركتها إلى أحد كبير في حركة تنقية اللغة التي امتاز بها عصر الدولة
الأموية في بيئة العراق .

وأما ما نسب إليه من وضع كتاب في النحو فهناك من الملايسات ما
يجعلنا - على فرض صحته - نستسيغه ونقبله دون أن يكون ذلك مصدراً للطعن
في نسبة أولية الوضع في النحو لأبي الأسود الدؤلي ، ذلك أن المدة التي
عاشها نصر بن عاصم بعد وفاة أبي الأسود كفييلة بصهر بعض الملاحظات
النحوية والتوسع فيها ، ثم الإقدام على خطوة جديدة في ذلك الميدان
- خطوة التأليف والتدوين - بعد أن ظلت الملاحظات النحوية مدة من الزمن
تصدر عن أساتذة العربية مشافهة وتنقل عن طريق الرواية والسماع . فلقد
عاش نصر بن عاصم عشرين سنة بعد وفاة أبي الأسود أي من ٦٩ إلى
٨٩ هـ ، وهذه الفترة ليست باليسيرة ولا بالقصيرة بالنسبة لتطور علم من
أهم العلوم العربية ؛ من حيث الضرورة إليه وخصوصاً في وقت بدأت

العقلية العربية تتصل بالعقلية الأجنبية وتستمد منها عناصر المعرفة الإنسانية وأوليات العلوم .

محمّل إذن أن يكون نصر بن عاصم قد ألف في النحو العربي كتاباً ، ومحمّل أيضاً أن يكون قد برز في العربية واحتل مكان الصدارة فيها بعد وفاة أبي الأسود ؛ وما يؤيد هذا الاحتمال ويزيدنا ثقة فيه واطمئناناً إليه هو أن الحجاج بن يوسف قد وكل إلى نصر بن عاصم دون سواء مهمة وضع نقط الاعجام وإزالة اللبس الخطير الذي كانت اللغة عرضة له بعد أن انتشرت الكتابة وأصبحت أداة لتسجيل المعارف ونقل الأفكار .

وإذا لاحظنا هذه الظروف التي أحاطت بنصر بن عاصم وبمكاته في العربية ، ثم أدخلنا في حسابنا تقدير القدماء وفهمهم لمعنى العربية وتوسعهم فيها لدرجة إطلاقها على كل مجهود يبذل من أجلها في سبيل المحافظة عليها وتخليصها من الشوائب التي لحقت بها أو كانت عرضة لها ، نقول إذا لاحظنا كل ذلك أمكننا أن نفهم في يسر نسبه بعض الرواة أولية الوضع في العربية إلى نصر بن عاصم دون أن يكون في هذا تعارض مع ما نسبته جمهورهم إلى أبي الأسود الدؤلي ، وذلك إما لتفرده بخطوة جديدة في ضبط اللغة وإما لتوسعه في المجهود الذي بذله معاصروه وعلى الخصوص بمجهود أبي الأسود ، وإما لوضعه أول كتاب في النحو كما سوغنا احتمال ذلك . وإن كان من العسير أن نطمئن إليه ؛ إذ أننا قد استعرضنا تراجم العلماء

وقوائم المكتب المؤلفة في فروع المعرفة العربية على اختلافها ، وذلك كله في كتاب الفهرست وهو أهم مرجع في ذلك وأوفاه على الإطلاق ، ومع ذلك لم نقف على أثر لذكر كتاب ألفه نصر بن عاصم في النحو ؛ وعجيب أن يسقط هذا الكتاب . إن كان قد وجد - من قوائم ابن النديم وهو العالم المحقق المدقق الجماعة .

والآن بعد مناقشة هذه الروايات المتضاربة في نسبة أولية الوضع للنحو العربي واستبعاد ما يمكن استبعاده منها وتعليل ما يمكن احتمال صحته نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون إن واضح اللبنة الأولى في بناء النحو العربي إنما هو أبو الأسود الدؤلي دون سواه ، ودليلنا على ذلك بعد اتفاق جمهور الرواة من القدماء على أنه الواضع الأول للعربية ما يأتي : -

أولاً - إن واحداً من هؤلاء الرواة ، حتى من بين من نسب الوضع الأول إلى غير أبي الأسود ، لم يتعرض لنفي هذه النسبة إليه ليتخذ من ذلك وسيلة لإثباتها إلى غيره على انفراد ، بل اكتفى بنسبة الوضع الأول إلى من يراه وترك لمن يأتي بعده مهمة الفهم والتفسير لمعنى الوضع في العربية والتأسيس لها . وإن من يدرس الظروف الاجتماعية إذ ذاك ، ومن ينظر نظرة شاملة وفاحصة معاً في ملاسبات هذا العلم وفي عدم الدقة وقلة التحري التي اتصف بها القدماء في تعبيرهم والتي كانت مثار الكثير من الشك

والخلاف بالنسبة لمن جاء بعدهم^(١) ، نقول إن من يفعل ذلك لا يجد صعوبة في تعليل هذا التضارب واستخلاص حقيقة يظن إليها ويعتمد عليها وعلى هذا يسلم لنا تصحيح نسبة الرضع الأول لأبي الأسود ولا يظن في ذلك ما يرويه الآخرون من نسبة الرضع في العربية إلى غيره .

ثانياً - ما عثر عليه من آثار مادية قديمة تصور لنا ما ذكره الرواة خاصاً بمجهود أبي الأسود في العربية ، ومن هذه الآثار مصحف بخطوط قد عثر عليه في مسجد عمرو بن العاص في مدينة القسطنطينية ، ويعتبر هذا الأثر حتى اليوم أقدم مصحف بخطوط في العالم ، ولا يزال بحالته التي وجد عليها في المكتبة الخديوية في القاهرة ، وهذا المصحف قد جمع في نسخته العملان اللذين قام بهما أبو الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم اللبني ، فالشكل الذي وضعه أبو الأسود قد رسم بمداد أحمر وبنفس الطريقة التي نسبتها الرواة إلى أبي الأسود وأما نقط الإعجام فقد رسم بمداد أسود وبنفس الطريقة التي اعرفت كذلك عن نصر بن عاصم . وهناك أثر مادي آخر ينبغي أن يضاف إلى هذا المصحف ذلك هو عدد الصفحات التي كانت في مكتبة ابن أبي بكرة محمد بن الحسين ورآها صاحب الفهرست بنفسه وروينا نصه في هذا منذ قليل . وهذا الأثر وإن لم يصل إلينا إلا أنه ليس من السهل أن نطعن فيه ،

(١) قد لاحظ هذه الحقيقة الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في الجزء الأول من

كتابه - تاريخ آداب العرب - ص ٣٣٧ هامش رقم ٢

لأن ابن النديم قد عرف بدقته في النقل والرواية ، فهو حين يرى بنفسه يقول رأيت وحين يسمع من شخص يقول حدثني فلان أو سمعت من فلان ، وحينما لا يطمئن إلى شيء أو لا يتأكد منه لا يتحرج من أن يقول - لم أرى - أو يصحب هذا القول بعبارة تدل على عدم اطمئنانه إليه ، وهكذا تفيض تعبيراته من أول الكتاب إلى آخره بما يدل على تحفظه في النقل ودقته في الرواية وصراحته في التعبير . ولو أدخلنا في حسابنا إلى جانب هذا ما هو معروف من قسّم الزمن بين أبي الأسود وابن النديم ، فالمسافة بين وفاة الأول ومولد الثاني لا تكاد تتجاوز قرنين وربع قرن من الزمن ؛ إذاً إن الأول منها مات سنة ٦٩ هـ ، والثاني مات حوالي سنة ٣٨٠ هـ ، نقول لو أدخلنا في حسابنا أيضاً هذا الاعتبار لضعف ثقتنا وإكداً طمأنينتنا بما يذكره لنا صاحب الفهرست .

وكل ما أمكن أن يوجه من نقد - فيما اطلعنا عليه - إلى هذه الصفحات الأربع في النحو المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلي هو ما ذكره الاستاذ مصطفى صادق الرافعي ^(١) من أن أبا الأسود لم يكتب بنفسه هذه الصفحات وإنما كان أصحابه هم الذين يكتبون ذلك عنه ، ثم خلاص الأستاذ الرافعي إلى القول بأن كل ما كتبه أبو الأسود بنفسه إنما هو صحيفة في الأدب عرفت بتعليق أبي الأسود وكانت مصدر خلاف ومشار جدل

(١) - تاريخ آداب العرب - ١ - ص ٢٩١

بين النجاة ، سواء لدينا أكانت الصفائف الأربعة التي نسبها ابن النديم
إلى أبي الأسود من كتابة أبي الأسود نفسه أم من كتابة أصحابه عنه فإن
الذي يهمننا في هذا المقام إنما هو التأكد من أن ما تحوى عليه هذه
الصفائف من النحو أو من الكلام في الفاعل والمفعول إنما هو من عمل
أبي الأسود الدؤلي ، ولا يطعن في ذلك أن تكون الصفائف قد كتبت
بإيد شخص آخر ما دامت بمعرفة وتحت إشرافه ، كل لم يطعن في شكه
للقرآن بطريقة النقط ان كان ذلك بيد كاتب لئن ينفذ طريقة أبي الأسود
وينسجل ما يليه عليه أبو الأسود .

ونظن بعد هذا أن ذلك التمهيد الذي قدمناه ، وتلك الخطوات التي
سلكناها في بحث هذه النقطة ، وهذه النتائج التي وصلنا إليها ، كل ذلك
كاف للتأكد من أن أبا الأسود كان الواضع الأول للنحو العربي .

ولنترك الآن - مكتفين بهذا - الكلام عن أبي الأسود ، ولننتقل إلى
الحديث عن نقطة أخرى فيها من الدقة ، ولها من الخطورة ما يجعلها في
كفة أخرى معادلة لمسألة الواضع الأول للنحو العربي ونعني بتلك النقطة
اللبنة الأولى في بناء النحو العربي .

ما هي اللبنة الأولى في بناء النحو العربي ؟

ان أمر هذه اللبنة - بعد الذي قدمناه - سهل يسور ، فواضعها
هو أبو الأسود ، وهنا نجد من الخلاف والاضطراب عند القدماء بالنسبة

لهذه المسألة ما يعادل الخلاف والاضطراب بالنسبة للواضع الأول للنحو العربي ، وهما هي ذى كتب الرواة تعرض علينا صورة مشوهة المعالم ، غير دقيقة الملامح عن أولية الوضع فى النحو ، تشبيهاً تماماً نفس الصورة التى رأيناها عن الواضع الأول لهذا النحو ، فمرة تظالغنا هذه الكتب بأن أول ما وضع أبو الأسود فى النحو العربى إنما هو باب التعجب ، وذلك على أثر لجنة بدرت من ابنته فى صيغة التعجب ؛ ومرة أخرى تظالغنا هذه الكتب نفسها بأن أول ما وضع أبو الأسود إنما هو باب الفاعل والمفعول وذلك على أثر لجنة بدرت من شخص فارسى ؛ ومرة ثالثة تقرر هذه الكتب بأن أول ما وضعه أبو الأسود إنما هو حروف النواصب ، وذلك بإرشاد من على بن أبى طالب عليه السلام ، وقد يضاف إلى ذلك حروف الجوازم أيضاً ، ومرة رابعة تذكر هذه الكتب بأن أبا الأسود أول ما فكر فى النحو فكر فى الكلام ، ثم وضع أقسامه من اسم وفعل وحرف ، وهكذا من التشقيق ، والتفريع والخلاف ما يترك الباحث فى نفس الحيرة التى أحسنا بها وصورناها عندما كنا نتحدث عن الواضع للنحو العربى وفى الواقع أننا لو أهملنا عمل العقل ، واستسلمنا لكل ما ذكره الرواة دون تمحيص لانتهينا إلى أن أهم أبواب النحو ، وروعوس مسائله ، بل وكثيراً من التفصيل فيها قد وضعها أبو الأسود الدؤلى ، وذلك صعب فهمه ، عسير قبوله إذ أنه كيف يتصور ذلك وما رأينا فى تاريخ علم من العلوم الانسانية أنه بدأ ، ونما ، وأشرف على الكمال فى حياة رجل واحد

وعلى يد رجل واحد ؟

إن حياة العلوم طويلة شاقة ، وتحكيونها لكي تثبت على أقدامها يحتاج إلى مجهود جبار ، لا من شخص واحد ، ولكن من جماعات متآلفة متعاونة ، وأما منا من الأمثلة على ذلك تاريخ النحو اليوناني وتاريخ النحو اللاتيني ، فالأول قد استفد أجيالا ولم يشرف على درجة الكمال إلا بعد قرون ؛ والثاني بالرغم من استغائه بمنهج الأول ، وبمجهود رجال النحو اليوناني لم يثبت على قدميه إلا بعد مئتي ما يزيد على ثلاثة قرون . (١)

(١) من الثابت أن النحو اليوناني بدأ يأخذ طريقه إلى الحياة في خلال القرن الخامس قبل الميلاد على أيدي أساتذة الحركة السوفسطائية في أثينا ، ثم أخذ ينمو ويستقل عن العلوم اللغوية الأخرى ، ولكنه لم يستقر له ذلك إلا في أواخر القرن الثاني بعد الميلاد ؛ وكان ذلك على يد عالم يوناني من علماء الإسكندرية اسمه *Denys de Thrace* ؛ ومعنى هذا أنه استمر نحواً من سبعة قرون من الزمن ؛ وهذا مع ما هو معروف عن اليونان من ثقافة ونشاط ، ومع ما امتازوا به من سعة المعرفة ، وطول الباع في الأبحاث العلمية .

أما النحو اللاتيني فقد بدأ بدوره في خلال القرن الثاني قبل الميلاد بفضل مجهود عالم لغوي لاتيني يسمى *Varro* ؛ ولكنه لم يكمل إلا في خلال القرن الثاني بعد الميلاد على يد نفس العالم اليوناني *Denys de Thrace* ؛ أي أنه بقي أكثر من ثلاثة قرون .

ولكى نتصور المجهود العنيف في ذلك ، والصعوبة التي يتعرض لها العلم في تأسيسه وتكوينه نأخذ جزئية واحدة من جزئيات النحو العربي فتمثلها في عهدنا الاول ، ونصورها على حقيقتها ، ولتكن هذه الجزئية أقسام الكلام اسم ، وفعل ، وحرف ، أو حروف النواصب ، إن ، وأن ، وكانت ؛ ولكن ، وليت ، ولعل ؛ أو نواصب المضارع - أن ولن ؛ واذن ، وكى ؛ وحتى ؛ ولام التعليل ؛ أو ... أو ... الخ .

قد يبدو لنا الآن سهولة تصور انحصار الألفاظ العربية في الاسم ، والفعل ، والحرف ؛ أو انحصار حروف النصب للأسماء في إن ، وأن ، وكان ، وليكن ، وليت ، ولعل ؛ غير أن هذه السهولة ليست في الواقع إلا ثمرة مجهود أجيال عديدة ، وطوائف من العلماء قد أفنوا حياتهم في الدرس ، والتحصيل ، ثم في الشرح ، والتفصيل . وليكن جزئية من هذه الجزئيات كانت تتطلب حتماً ممن يعرض لها قبل وجودها ، ويريد وضع إحصاء لها قبل تأسيسها ؛ نقول إن بحث جزئية من هذه الجزئيات كان يتطلب حتماً استقراء شاملاً للغة ، ومفرداتها ، واستيعاباً عاماً لنصوصها ، وتراكيبها ، وأساليبها ، حتى يمكن حصر مفردات هذه الجزئية ، ومعرفة استعمال هذه المفردات ، وعقد المقارنات بين أساليبها في الاستعمال ، ومعرفة أوجه الشبه بين هذه المفردات من ناحية اللفظ ومن ناحية المعنى ومن ناحية العمل ، ثم إدراك الفروق بين هذه المفردات في كل ذلك حتى يمكن

الجمع بينها في باب واحد من حيث الوظيفة ، والعمل ، والتفرقة بينها في نفس الباب من حيث اللفظ والمعنى ، وليس ذلك كله بالشئ الهين اليسير .

إن الباحث الناقد لمثل هذه المسألة ، لو لم يكتب ، في إدراك خطورتها ، وتصور صعوبتها ، بما أشرنا إليه من تفرع البحث ، وامتداد جوانبه ، وتعدد أطرافه ، وبما قدمناه من الكلام في تاريخ العلوم ، وخصوصاً النحو اليوناني ، واللاتيني ؛ نقول إن الباحث الناقد ، لو لم يكتب بذلك ، ينبغي أن يطلع على النصوص الأدبية التي كانت معروفة في صدر الإسلام ، ويقرأ التاريخ ، ويلم بسير العلماء الأوائل في الإسلام ، ويعرف الكثير عن تاريخ نشأة العلوم الإسلامية ، ثم يعود بخياله وذاكرته إلى الوراء ليعيش فترة من الزمن ، على ضوء ذلك مع أبي الأسود الدؤلي ، ويحيى بن يعمر ، وعنبسة الفيل ، وميمون بن الأقرن ، ونصر ابن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، وعيسى بن عمر الثقفي ، وأبي عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ، ويونس بن حبيب ؛ ليرى كيف كان هؤلاء الرجال يتدارسون العلم ، ويواجهون مسائله ، ثم يتبادلون الرأي في نواحي المعرفة ، ويسمع ما كان يدور في حلقات الدرس ، في البيوت تارة وفي المساجد أخرى ، من الكلام في اللغة ، وفي النحو ، وفي الصرف ، وفي الأدب ، وفي الدين ، وفي التفسير ، وفي الحديث ، بل وفي غير ذلك من الكلام في السياسة ، وفي التاريخ ، وفيما يتعلق بشئون المجتمع ،

ليفهم كيف كان هؤلاء العلماء يستقون معارفهم وإلى أي المراجع يرجعون ،
كيف كان طلابهم يعون تلك المعارف ، وأي المناهج في تنظيمها يسلكون ،
لم يعد إلينا بعد ذلك يحدثنا عما رأى ، وما سمع ، وما فهم . وما نظمتم
خيالين حين نقول : إنه سيحدثنا عن خبايط هائل من المعرفة لا
يكاد المرء يميز فيه مادة علمية من مادة علمية أخرى ،
استطراد طويل في القول قد يكون فيه من ادواعي الإغراء ، ووسائل
لتشويق ما يمسك الانتباه ، فإذا ما تابع الطلاب الأستاذ ، وانتهوا معه
إلى آخر الكلام يكون قد غاب عنهم أوله ، وطريقة أخرى في فهم
الأمور ومعالجتها ، وفي منهج التفكير وأساليب التعبير .

وإذن فكيف يمكن أن نقبل كل ما نسبة الرواة إلى أبي الأسود
من وضع في النحو ؟

يخيل إلينا أننا لو استسغنا كل ما عزوه إلى أبي الأسود ولم نحتكم فيه إلى
طبيعة العلوم ونشأتها ، ولا إلى طبيعة البيئة التي كان يعيش فيها أبو الأسود
لظهر لنا من خلال أقوالهم علم في النحو يكاد يكون واضح المعالم ،
مستوفى البحث ، يحدد الأهداف ، بل ربما كان نحو أبي الأسود أدق نظاماً
وأكثر تفصيلاً من نحو سيبويه وبينهما نحو قرن من الزمان ؛ وليس
أمام القارئ ، لكي يستوضح هذه المسألة ، سوى أن ينظر في باب الفاعل
وفي باب حروف النصب للأسماء من كتاب سيبويه ، سيرى في الأول

خليطاً من المعارف ، واضطراباً في القواعد ، فهناك كلام في الفاعل ، وفي
النائب عن الفاعل ، وفي الفعل المتعدي ، وفي الفعل اللازم ، وفي الفعـل
المبني للمعلوم ، وفي الفعل المبني للجهول ، وفي الفعل المتعدي إلى مفعولين ،
وفي الفعل المتعدي إلى ثلاثة مفاعيل ، ثم يستطرد فيذكر الأفعال الناقصة
مثل كان وأخواتها مقارناً المبتدأ والخبر بالفاعل والمفعول . (١)

وسيرى في الثاني قصوراً وعدم شمول ، فهناك الحروف النواصب خمسة ؛
بينما هي في نحو أبي الأسود ستة . (٢)

وبعد الذي قدمناه من عرض سريع للبيئة العربية ، والمجتمع العربي أيام
أبي الأسود ، ومن كلام موجز عن طبيعة العلوم الإسلامية ونشأتها
نستطيع أن نقرر في صراحة أن منهج البحث العلمي الحديث ليس على
استعداد لقبول كل الروايات التي تنسب وضع النحو إلى أبي الأسود
الدؤلي ، ولستنا كذلك على استعداد بحفاة الإطالة - لمناقشة كل هـنـذه

(١) انظر كتاب سيديويه جز ١٠ - ٢٨ . طبعة باريس سنة ١٨٨١ م

(٢) انظر كتاب سيديويه ص ٢٤١ - ٢٥٠ من الجزء الأول طبعة باريس

سنة ١٨٨١ م . حيث ينص مرات على أن هذه الحروف خمسة ، وانظر
كذلك - إنباه الرواه على أبناء النحاة للقطبي جز ١ ص ٤ طبعة دار الكتب
المهربية سنة ١٩٥٠ م حيث يعد هذه الحروف ستة بطريقة واو العطف
التي تقضي المغايره ؛ وهو ينسب ذلك إلى أبي الأسود وعلى بن أبي طالب .

الروايات وتفنيدها ، مكتفين - على سبيل المثال - بما أشرنا إليه من تفنيد بعضها هنا ، وبما قدمناه من مناقشة آراء العلماء بالنسبة للواضع الأول للنحو العربي هناك .

وإذن فإن الذي نستطيع أن نطمئن إليه ، ونقرره على ضوء ما تقدم حتى الآن ، هو أن اللبنة الأولى التي أرساها أبو الأسود الدؤلي في بناء النحو العربي كانت شكله للقرآن عن طريق النقط كما أجمع الرواة على ذلك ، ونرجح أنه بعد أن تمت له هذه الخطوة - وهي ليست باليسيرة كما تتصورها الآن - قد تلاها ، وربما يكون قد صحبها كلام وملاحظات عما هو مرفوع وعما هو منصوب ، وعما هو مجرور ؛ ومدى هذه الملاحظات وذلك الكلام ليس من السهل أن نتبينه ، ولا أن نحده ، فقد ضاعت كل الآثار المادية التي تنير أمامنا الطريق في هذا . ولعل طول الدراسة ؛ وكثرة المناقشة بين أبي الأسود وطلابه قد قادتاهم إلى الكلام في معنى التعجب ، وفي معنى التفاعلية والمفعولية ، غير أننا نشك كثيراً في أنهم بوبوا للنحو ، وفصلوا في قواعده ، ووضعوا له هذه المصطلحات الغريبة التي تطالعنا في روايات المتقدمين ، وفي كتب المتأخرين .

ولسنا في هذا نتجنى على الرواة ، ولا نلقى القول على عواهنه ، ولكننا نحتكم إلى الأثر المادي الوحيد الذي حدثنا عنه وعن ضياعه عالم ثقة ليس من السهل أن نطمئن فيه ؛ ذلك هو ابن السديم صاحب الفهرست ، إذ

يقول عن الأوراق التي رآها عند ابن أبي بكرة أنها كانت تحتوي على كلام في الفاعل والمفعول من أبي الأسود ، ولم يقل إنها تحتوي على باب الفاعل وباب المفعول ، ^(١) ونرجح كذلك أن هذه الملاحظات النحوية التي بدأ بها أبو الأسود وتبعه فيها طلابه قد بقيت ملاحظات تتناول النصوص الأدبية من شعر ونثر حتى النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، أي حتى عهد عبد الله بن أبي اسحق الحضرمي ، ويونس بن حبيب ، والخليل بن أحمد ؛ ولم ترق هذه الملاحظات النحوية إلى أن تكون قواعد مجردة ، لا صلة لها بالنص الأدبي نفسه ؛ وذلك كأنه يقال مثلاً إن حروف النصب في الفعل المضارع هي كذا وكذا ، أو الحروف الناجمة لحكم المبتدأ والخبر هي كذا وكذا أو الحروف التي تجر الأسماء هي كذا وكذا . . . الخ ؛ وإنما كانت النصوص الأدبية نفسها هي ميدان الملاحظات ، ومادة الدرس ، وعماد النقاش ، كأن يقال مثلاً إن هذا الفعل المضارع في هذه الجملة قد نصب هنا ولم يرفع كما نصب الفعل المضارع في بيت من الشعر لأمريء القيس ، أو للتباينة ، أو للأعشى ثم يذكر نص البيت ، وربما يورد كل ما تستحضره الذاكرة من الشواهد الأدبية في هذا ؛ وهكذا يمضي النحويون في مناقشتهم وفي ملاحظاتهم الخاصة بالمسائل النحوية كرفع الاسم إذا وقع في أول الجملة أو بعد لفظ يدل على حدث ، ونصبه إذا كان دالاً على

(١) انظر الفهرست ص ٦٠ - ٦١

زمان ، أو مشيراً إلى مكان أو ميماً لحال ذات من الدورات ،

وبدلنا على صحة ذلك أمران نذكرهما باختصار :

الأمر الأول : هو ما نجده في النحو اليوناني أو النحو اللاتيني عند نشأة كل منها على أيدي أوائل النحاة اليونانيين واللاتينيين ؛ فقد كانت مسائل النحو إذ ذاك عامة ومنصبة على نصوص الأدب من شعر ونثر ، ولم تصل إلى مرحلة القواعد المنضبطة ، ولا إلى التجريد العلمي المطلق إلا بعد أجيال .

الأمر الثاني : هو ما نجده من صورة واضحة لتلك الملاحظات والمناقشات في أقدم أثر نحوي وصل إلينا ، وهو كتاب سيبويه ؛ فإننا لو نظرنا فيه بامعان لوجدناه يظالعنا في كل أبوابه بأشكال هندية الملاحظات ؛ وعلى الخصوص حينما ينقل إلينا في ثانياً مسألة آرام يونس بن حبيب ، أو آرام الخليل ابن أحمد .

وإذا أضفنا إلى هذين الأمرين تصورنا للبيئة العربية في صدر السولة الأموية ، وما كانت تتحمله العقلية العربية إذ ذاك من معرفة علمية ، ومقدرة على التجريد ؛ نقول إذا أضيف هذا إلى الأمرين السابقين ظهر لنا في وضوح نوع النحو الذي وضعه أو فكر فيه أبو الأسود الدؤلي ، وعن علمنا قبول الروايات التي تنسب إلى أبي الأسود وضلع أبواب منظمة وضوابط مجردة في النحو العربي كالرواية القائلة بأنه وضع باب الكلام وقال إنه يشتمل على اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ؛ أو الرواية الأخرى القائلة بأنه وضع باب النواسخ ، وقال - بعد مشاوره على بن أبي طالب - إنه يشتمل على إن ، وأن ،

ولسكن ، وكأن ، ولت ، ولعل !!!^(١)

ولم نذهب في استدلالنا بعيداً ، ونحاول في إثبات ما نحن فيه هنا أن نلجأ إلى طريق العقل ، والمقارنة ، وذلك أشبه ما يكون بطريق التجريد الذي نحاول أن نهدمه ، أو تستبعده في هذه المسألة بالذات ؛ نقول لم نذهب في هذا بعيداً وأماننا من الأشياء المادية في ذلك العصر بالذات ما يصور طبيعة العقلية ، ويوضح نوع العمل الذي كان يشغل نخاع العرب في ذلك الوقت ؟ إن طريقة نقط الشكل عند أبي الأسود ، وطريقة نقط الإجمام عند نصر بن عاصم ككثاهما تريناهما عملاً آلياً ، بدائياً ، بعيداً عن معنى التجريد ، ويكاد لا يكون للعقل أى تدخل فيه ؛ فكيف يتلاءم هذا العمل الآلى « الميكانيكى » مع التجريد المطلق ؛ الذى نلاحظه في أبواب النحو المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلى ؟

أما طريقة الشكل ، وهى اللبنة الأولى في بناء النحو العربى ، فقد استمدتها أبو الأسود الدؤلى من النحاة السريانيين ؛ ونحن نقرر مبدئياً بأنه ليس فى ذلك ما يضير النحو العربى ، ولا ما يقلل من قيمة مجهود أبى الأسود فيه .

إن موقف أبى الاسود فى هذا يشبه إلى حد كبير موقف الكثير منا

(١) انظر إنباه الرواه على أنباه النحاة للقفطى ج ١ ص ٤ - ٥ طبعة دار

الآن ؛ فنحن نحاول أن نتصل بالعرب نتعلم لغته وتدرس ثقافته ، ونعرف
مناهج البحث عنده ؛ وإذا ما ألمنا بشيء من ذلك عدنا إلى معارفنا الخاصة ،
واتخذنا من فروعها المختلفة ميداناً لتطبيق تلك المناهج لكي نبحث ثقافة
الشرق بحثاً جديداً ، ومع ذلك فلم يقل ، ولا ينبغي أن يقال إن هذا
الصنيع يسئ إلى معارفنا ، أو يقلل من شأن القائلين به . هذا وإن من
يدرس تاريخ الحضارات ، أو يقف على ما فيها من تداخل ، وما بينها من
صلات يستطيع أن يدرك في سهولة سلامة موقف أبي الأسود ، بل عظمة
صنيمه هذا في خدمة اللغة والنحو على السواء . إن الحضارة الإغريقية
القديمة قد أسست على صلاتها بالحضارة البابلية - الآشورية من ناحية ،
وبالحضارة المصرية القديمة من ناحية أخرى ؛ ومع هذا فلم يمنعها ذلك من
أن تسود العالم ، وتملا شعوبه بمبادئها العديدة ، ومعارفها المختلفة .

ولدينا من الأدلة ما يبين في وضوح أن أبا الأسود قد استمد طريقة
نقط الشكل من لدن النحاة السريانيين ؛ من هذه الأدلة أن أبا الأسود قد
اتخذ بيئة العراق موطناً ، وكان بها والياً إدارياً ، وفيها عالماً لغوياً ، وزعيماً
دينياً ؛ ونحن نعلم أن هذه البيئة كانت قبل الفتح العربي ، وبعده مغزوة
باللغة السريانية ، وبالمعارف السريانية ؛ وكانت إلى جانب ذلك
أهلة بالعلماء السريانيين ، وميداناً لدراساتهم ، ومناقشاتهم ، وجدلهم ،
لا في الناحية الدينية ، أو الفلسفية فقط ، ولكن في مختلف العلوم الإنسانية ،

ومنها اللغة والنحو ، ونعلم أيضاً أن اللغة العربية قد تعرضت - بعد اتساع
الفتوح الإسلامية - إلى نفس الأزمة التي تعرضت لها اللغة السريانية في
خلال القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد : ظهور لغات أخرى في ميدان
الحديث والكتابة ، وانتشار اللحن بين الناطقين ، والخوف من أن يمتد
هذا اللحن إلى نصوص الكتاب المقدس .

هذه هي مظاهر الأزمة التي مرت بها اللغة السريانية في القرنين الرابع
والخامس الميلادى ، واللغة العربية بعد اتساع الفتوح . ولقد كان من
نتائج هذه الأزمة عند السريان أن فكروا في وضع ضوابط لشكل كتابهم
المقدس ؛ ولم تكن هذه الضوابط سوى طريقة النقط التي استعمالها أبو
الأسود الدؤلى في ضبط شكل القرآن . من هذا نرى أن المقدمات متشابهة
والظروف متشابهة ، والنتائج متشابهة ، وكلا العاملين قد حدث في بيئة واحدة ؛
أليس من العناد إذن أن نقول إن أبا الأسود الدؤلى لم يستمد طريقة نقط
الشكل من السريانيين الذين سبقوه بنفس العمل ؟

بقى علينا أن نوضح كيف اتصل أبو الأسود باللغة السريانية وبعلمائها ؛
والأمر في ذلك سهل ؛ إذ أن صلته بالعلماء ليس من السهل أن يشك فيها ؛
فقد كانوا الطائفة المستنيرة المثقفة في بيئة العراق ، وكانوا فوق ذلك
يمارسون نشاطاً في هذه البيئة لا يجارى من ناحية الدرس ، والتفكير ؛ ولا
ينبغي مطلقاً لعالم ديني لغوي ، وحاكم إداري كأبي الأسود أن يجهل وجود

هذه الطبقة ؛ فهو لا بد وأن يكون قد اتصل بها ، وخالفها ، وتحدث إليها
وتعرف على كثير مما تهتم به من المسائل العلمية ؛ وإذا كان الأمر كذلك
فليس هناك ما يستلزم أن يكون أبو الأسود قد تعلم اللغة السريانية لكي
يأخذ منها شكل النصوص الدينية عن أصحابها ؛ فمن الممكن جداً أن يأخذه
عن طريق الترجمة ، سواء من العرب الذين يعرفون السريانية ، أم من
السريانيين الذين يعرفون العربية . على أننا نظن بل نرجح أن أبا الأسود
كان يعرف اللغة السريانية معرفة تمكنه من التفاهم بها ، وقراءة بعض
نصوصها إلى حد ما ؛ وذلك لإقامته الطويلة في بيثة العراق ، وإهتمامه
الشديد بالأبحاث اللغوية والدينية أثناء إقامته في تلك البيثة ، وهي تكاد
تكون بيثة سريانية في أول عهد اتصال العرب بها ، ولما ورد في الآثار
من أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه قد حثوا على تعلم اللغات
الأجنبية وأولاهها في ذلك الوقت ، بالنسبة للمهتمين بالبحث ، والمعرفة ،
والتمكين ، هي اللغة السريانية .

وعما يشهد بذلك ما عرف من أن علي بن أبي طالب كان ينطق في
أحاديثه أحياناً بألفاظ أجنبية ، مثل كلمة - قالون - باللغة اليونانية . (١)

(١) انظر فقه اللغة للشمالي ص ٤٥٥ القسم الأول ؛ ويلاحظ هنا أن الشمالي
ذكر أن هذه الكلمة رومية ، وهو من قبيل الخلط عند القدماء في تسمية ما
نأى بالرومي .

ومثل هذا ، وإن كان قد استعمل على سبيل التبسيط أو الفكاهة من
الإمام على كرم الله وجهه ، إلا أنه كان بمثابة الدعوة الصريحة لتعلم
اللغات الأجنبية ؛ ونحن نعلم مبلغ ما تحدثه إشارة الرئيس أو كلمته من
أثر في المجتمع ؛ فقد تكون كلمة تلتق ، أشد تأثيراً وأسرع سريراً في الشعب
من كتاب يؤلف أو قانون يوضع .

ولعل القارئ لا يجد صعوبة في فهم الصلة بين طريقة النقط التي وضعها
أبو الأسود لشكل النص القرآني ، وبين النحو العربي ؛ إذ أنها كانت بمثابة
الخطوة الأولى التي يشار حولها كلام في الموضوع ، وفي المنصوب ، وفي
المجورور ، وفي الساكن . وحكاية أبي الأسود مع زياد ابن أبيه ، وطلبه
كاتباً لقناً يكتب ما يملئ عليه ، وشرحه لطريقة الشكل الذي يريده ؛ كل
ذلك مبين واضح في المصادر القديمة مثل الفهرست لابن النديم ^(١) وإنباه
الرواة على أنباه النجاح للقفطي ^(٢) ولا يزال لدينا حتى الآن أثر قديم
يشرح لنا هذه الطريقة عملياً ولا يدع مجالاً للشك في تطبيق طريقة أبي
الأسود ؛ ذلك هو مصحف قد وجد في مسجد عمرو بن العاص في القاهرة
ولعله أقدم مصحف مخطوط في العالم ، قد شكل بنفس الطريقة التي شرحها
أبو الأسود لكاتبه ؛ ومن حسن الحظ أن عثر على هذا المصحف ولا يزال

(١) الفهرست ص ٦٠

(٢) إنباه الرواة على أنباه النجاح ص ٥١ طبعة دار الكتب المصرية سنة وجود

